الأسواق الشامية في العصر المملوكي

١/٢

اعداد

فيصل عبدالله محمد بني حمد

اشراف

الدكتور عبدالله العمري

١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

الأسواق الشامية في العصر المملوكي

١/٢

اعداد

فيصل عبدالله محمد بني حمد

اشراف

الدكتور عبدالله العمري

١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

الأسواق الشامية في العصر المملوكي

اعداد

فيصل عبدالله محمد بني حمد

بكالوريوس تاريخ ، جامعة اليرموك، ١٩٨٨م

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في جامعة اليرموك،
تخصص تاريخ إسلامي وحضارة إسلامية

لجنة المناقشة:

د. عبـــدالله العمـــــري ..... رئيساً ومشرفاً

أ.د. يوسف حســـن غوانمة ..... عضواً

أ.د. محمد عيسى صالحية ..... عضواً

١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

الإهـــداء

إلى والديّ الكريمين،

وإخواني وأخواتي الأعزاء.

شكر وتقدير

بعد أن منّ الله عليّ اتمام هذا البحث اتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى استاذي المشرف الدكتور عبد الله العمري اعترافاً مني بفضله ورعايته لي طيلة اعداد هذه الدراسة.

كما لا يفوتني إلا أن اوجه خالص الشكر والعرفان إلى اساتذتي اعضاء هيئة التدريس في دائرة التاريخ على ما بذلوه من عناية لي طيلة دراستي في هذه الجامعة.

كذلك اسجل تقديري إلى كافة العاملين في مكتبة جامعة اليرموك، وذلك لحسن تعاملهم وتعاونهم معي اثناء دراستي في هذه الجامعة.

وأخيراً اوجه شكري إلى كل من اسهم في اعداد هذا البحث حتى خرج بهذا الشكل المتواضع.

المحتويات

	الصفحة
تمهيد	١
دراسة تحليلية لبعض مصادر ومراجع البحث	٣
الفصل الاول: الأسواق الدائمة:	١٣
توطئة	١٤
١. التعريف بالسوق	١٤
٢. موقع الأسواق داخل المدينة الاسلامية	١٥
أ- أسواق المدن غير الساحلية:	١٩
١. أسواق دمشق	١٩
٢. أسواق حلب	٤٠
٣. أسواق حماة	٤٣
٤. أسواق حمص	٤٥
٥. أسواق القدس	٤٦
٦. أسواق الرملة والخليل	٤٩
٧. أسواق نابلس وبيت لحم	٥٠
٨. أسواق عجلون	٥١
ب- أسواق المدن الساحلية	٥٣
١. أسواق طرابلس	٥٣
٢. أسواق بيروت	٥٤
٣. أسواق عكا	٥٥
جـ- أسواق في مدن شامية أخرى	٥٦
- ملاحظات عامة حول أسواق بلاد الشام	٥٨
الفصل الثاني: الأسواق غير الدائمة	٧٣
أولاً: الأسواق الموسمية	٧٤
ثانياً: الأسواق السنوية	٧٦
أ- الأسواق الإعتيادية	٧٦
ب- أسواق على طرق الحاج الإسلامي	٨٠

١- أسواق على طريق الحاج الشامي ٨٠
٢- أسواق على طريق الحاج المصري ٨٦
جـ-الحاج المسيحي ٩١
د- الأعياد ٩٣
هـ-المشاهد ٩٥
و- تجار الغرب ٩٦
ثالثاً: الأسواق الأسبوعية ٩٨
أ- داخل المدن ٩٨
ب-خارج المدن ١٠٢
رابعاً: الأسواق المرافقة للجيش ١٠٥
خامساً: الأسواق الطارئة ١٠٨

الفصل الثالث: العناصر المكملة للأسواق: ١١١
أولاً: القياسر ١١٢
ثانياً: الفنادق ١١٩
ثالثاً: الخانات ١٢٦
أ- الخانات داخل المدن ١٢٦
ب-الخانات على الطرق ١٣٨
رابعاً:الوكالات ١٤٤
خامساً: منشآت تجارية أخرى ١٤٦
الفصل الرابع:العوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً وسلباً: ١٠٥
أولاً: العوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً ١٥١
أ- الموقع الجغرافي ١٥١
ب-الأهمية الدينية ١٥١
جـ-الأهمية الإقتصادية ١٥٣
د- الطرق التجارية ١٥٣
هـ-التسهيلات التجارية ١٥٦
و- عوامل أخرى ١٥٩

ثانياً: العوامل المؤثرة في الأسواق سلباً ١٦٠
أ- العوامل الطبيعية ١٦٠
١- الطاعون ١٦٠
٢- الزلازل ١٦٢
٣- السيول ١٦٢
ب-العوامل البشرية ١٦٦
١- الحرائق ١٦٦
٢- عوامل أخرى ١٧٣
الفصل الخامس: السلع التجارية ١٧٥
أولاً: السلع الصناعية ١٧٦
ثانياً: السلع المتبادلة بين الأسواق الشامية ١٨١
ثالثاً: السلع المتبادلة بين الأسواق الشامية والأسواق الخارجية ١٨٧
المكوس ١٩٥
الفصل السادس: المعاملات: ٢٠٢
أولاً. وسائط التعامل التجاري ٢٠٣
أ. النقود ٢٠٣
ب. نظام المقايضة وآثارها ٢٠٧
جـ السفتجة ٢٠٩
د. الصك ٢١٠
ثانياً. الأوزان ٢١١
ثالثا. المكاييل ٢١٤
رابعا. المقاييس ٢١٧
خامسا. وسطاء البيع والشراء (المنادي والدلال) ٢١٨
سادسا. الأسعار ٢٢١
سابعا. مراقبة الأسواق ٢٣٨
خاتمة ٢٤٩
الملاحق ٢٥٤
قائمة المصادر والمراجع ٢٥٧
الملخص باللغة العربية ٢٩١
الملخص باللغة الإنجليزية ٢٩٣

تمهيـــد

شهد العصر المملوكي ازدهاراً حضارياً واضحاً في مختلف الميادين، ففي مجال العمارة تزايد عدد المنشآت العمرانية المختلفة الدينية والمدنية والعسكرية، في الوقت نفسه برز ابداع وتفنن في تصميم هذه العمائر مما أضفى عليها حسناً وجمالاً.

هذا الإنتعاش الحضاري كان ناتجاً عن الإزدهار الإقتصادي الذي عاصر المماليك، فقد وصل عدد الأسواق في مدينة دمشق الى أكثر من مئة وأربعين سوقاً، عدا عن العمائر التجارية الأخرى مثل القياسر والفنادق والخانات والوكالات وغيرها.

ولأهمية الأسواق التجارية في بلاد الشام ودورها الواضح في ازدهار الدولة فقد لفت هذا الموضوع انتباهي ودفعني للكتابة فيه، وخاصة بعد أن بحثت فلم أجد أحداً من الباحثين قد تناوله باعتباره موضوعاً مستقلاً وشاملاً، وان كان البعض قد كتب في اجزاء منه إلا أن ذلك لم يكن كافياً.

ولكي يتكامل البحث فقد ارتأيت أن يشمل البعد المكاني لهذه الدراسة جميع الأسواق في بلاد الشام، وأن يكون البعد الزماني متضمناً العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨/١٢٥٠ - ٧٨٣هـ/١٣٨١م) والثاني (٧٨٤/١٣٨٢ - ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م)، كما وجد سبب آخر لهذا التحديد بالذات وهو أن معظم المصادر الهامة حول هذا الموضوع متوفرة في العصر المملوكي الثاني. لذا كان من الأجدى أن أبحث في العصرين الأول والثاني.

هذا وقد احتوى البحث على ستة فصول، ففي الفصل الاول والثاني تحدثت عن أنواع الأسواق، حيث قسمتها الى نوعين هما: الأسواق الدائمة ودرست في الفصل الثاني، والأسواق غير الدائمة وخصص لها الفصل الثالث. وقد شمل الفصل الثاني الأسواق الدائمة في معظم مدن بلاد الشام مثل أسواق دمشق وحلب وحماه وحمص والقدس ونابلس وعجلون، وأسواق المدن الساحلية مثل أسواق طرابلس وعكا وبيروت وصور وغيرها. وفي نهاية هذا الفصل خرجت بعدة نتائج عن هذه الأسواق.

أما الأسواق غير الدائمة فتتضمن الأسواق الموسمية والأسواق السنوية والأسواق الأسبوعية والأسواق المرافقة للجيش والأسواق الطارئة.

وبينت في الفصل الثالث أنواع العمائر التجارية المكملة للأسواق مثل القياسر والفنادق والخانات والوكالات وغيرها. أما الفصل الرابع فوضحت فيه العوامل المؤثرة في الأسواق ايجاباً وسلباً، ففي البداية ذكرت أسباب ازدهار الأسواق مثل الموقع المتوسط لبلاد الشام وأهميتها الدينية والإقتصادية ودور الطرق التجارية في ذلك، ناهيك عن رعاية السلطة المملوكية لها. وفي القسم الآخر تحدثت عن عوامل تضاؤل واضمحلال القسم الأكبر من الأسواق مثل العوامل الطبيعية (الزلازل، السيول، الطواعين)، والعوامل البشرية والمتمثلة بالحرائق وهجمات التتار والتركمان على بلاد الشام، وقطع البدو للطرقات ونهبهم لبعض المدن والقرى الشامية، علاوة على ضعف السلطة واكتشاف رأس الرجاء الصالح، حيث سبب ذلك كله انهياراً مباشراً للدول المملوكية إذ لم تعد تقوى على الثبات امام زحف العثمانيين سنة ١٥١٦م.

وفي الفصل الخامس بينت أنواع السلع التجارية المتبادلة بين الأسواق الشامية، سواء المصنعة في بلاد الشام، أو المستوردة اليها، والمصدرة منها. وقد دفعني هذا للحديث عن مقدار ما كان يدفع على تلك البضائع من مكوس.

وأخيراً اقتصرت الفصل السادس للحديث عن المعاملات في بلاد الشام حيث وضحت أنواع هذه المعاملات مثل التعامل بالنقود والمقايضة ونصف المقايضة والسفتجة والصك، ثم تحدثت عن الموازين والمكاييل والمقاييس المستعملة في الأسواق الشامية ومقدار كل منها، ودور المنادي والدلال (السمسار) في البيع والشراء وأسباب ارتفاع الأسعار، ومن هو المستفيد من وراء ذلك، ثم موقف السلطات المملوكية جراء ذلك، كما بينت في الفصل نفسه دور السلطة في مراقبة الأسواق، ومن هو المسؤول عنها، وما هي واجباته، كل ذلك وضحته في موضعه!

دراسة تحليلية لبعض مصادر ومراجع البحث

اعتمدت في دراستي هذه على العديد من المصادر المخطوطة والمطبوعة بالإضافة إلى الدراسات العربية والأجنبية الحديثة منها والمعاصرة، وسوف نتحدث عن أهم هذه المصادر والدراسات التي كان لها النصيب الأكبر في هذا البحث.

أ الموسوعات

برز خلال العصر المملوكي ثلاث موسوعات تعدّ من أعظم كتب التراث لاتساع موضوعاتها، واشتمالها على مختلف أنواع العلوم، وأصناف المعرفة. ومن هذه الموسوعات ما يلي:

١) « **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** » لمؤلفها شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل بن الملجي بن دعجان ***العمري*** (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، والذي شغل عدة مناصب في الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام،وآخرها كانت رئاسة ديوان الإنشاء، وقد أثنى عليه ابن كثير بقوله: "وكان يشبه بالقاضي الفاضل في زمانه، وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة، وكان حسن المذاكرة سريع الإستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق، يحب العلماء والفقراء ولم يجاوز الخمسين »[١].

تتألف هذه الموسوعة من بضعة وعشرين جزءاً،لم ينشر منها حسب اطلاعي سوى الجزء الأول الذي نشره أحمد زكي سنة ١٩٢٤م، وقسم خاص «بممالك مصر والشام والحجاز واليمن»،وقام بتحقيقه أيمن فؤاد ونشره سنة ١٩٨٥م. أما القسم الأخير،فيحمل عنوان «قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين»،وحققه دوروتيا كراڤولسكي ونشر سنة ١٩٨٥م.

هذه الموسوعة مثل التي قبلها لكن فائدتها كانت أكبر فقد استفدت منها في جميع فصول الرسالة، حيث كان لها النصيب الأكبر بإعطائي معلومات وافرة عن

١- ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، تحقيق أحمد ابو ملحم وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، جـ١٤، ص٢٤١ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية.

عمران المدن في بلاد الشام، علاوة على تقديم صورة واضحة عن الأسواق غير الدائمة، وبالأخص الأسواق التي كانت تقام على طريق الحاج الإسلامي، سواءاً الشامي منها، أم المصري، كتلك الأسواق التجارية التي كانت تقام للحاج في كل من زيزا والعقبة.

٢) «**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**» لصاحبها أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله الشهاب بن الحجال أبي اليمن الفزاري **القلقشندي** ثم القاهري الشافعي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، وكان عمله في ديوان الإنشاء بالقاهرة[٢]. وهذه الموسوعة لا تقل شأناً عما جاء في كتب إبن فضل الله العمري، بل أن كثيراً من المعلومات التي يذكرها القلقشندي هي نقلا عن إبن فضل الله العمري، فمثلاً عند حديثه عن طرق المواصلات في بلاد الشام ينقلها كما وردت عند إبن فضل الله العمري، لكن هذا لا يقلل من أهميتها، فقد أورد القلقشندي معلومات اقتصادية كثيرة نكاد لا نجدها في كتب غيره.

ب) المصادر التاريخية:

١) **أبو الفداء**، الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المشهور بأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م). وهو أمير عربي ومؤرخ وجغرافي، والده الملك الأفضل أخو الملك المنصور، وهو من سلالة أحد فروع الدولة الأيوبية بمصر، وأمير حماه في ذلك الوقت[٣].

لأبي الفداء عدة مؤلفات منها كتاب «**المختصر في تاريخ البشر**» يعد هذا الكتاب من المصادر التاريخية الهامة لدراسة التاريخ المملوكي، حيث أفادني في معظم فصول البحث، وبخاصة في توضيح العوامل التي كانت سبباً في ازدهار واضمحلال الأسواق الشامية خلال العصر المملوكي الأول.

٢- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءاً، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤هـ، جـ٢، ص٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السخاوي، الضوء اللامع.

٣- دائرة المعارف الإسلامية، أصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، واعتمد في الترجمة على الأصلين الإنجليزي والفرنسي، ترجمة خورشيد وآخرون، انتشارات جهان تران، بوذر حمبري (د.ت) م١، ص٣٨٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دائرة المعارف الإسلامية.

٢) **الذهبي**، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م). له عدة مؤلفات من أهمها: «**دول الإسلام**»، و«**ذيول العبر في خبر من غبر**»، وقد اعتمدت على هذه المصادر في مختلف فصول البحث ولا سيما في دراسة العوامل المؤثرة في الأسواق ايجاباً وسلباً.

٣) **ابن كثير**، عماد الدين اسماعيل بن أبي حفص عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) صاحب الكتاب المعروف «**البداية والنهاية**».

يهمنا من هذا الكتاب الجزء الثالث عشر والرابع عشر، لما يوجد فيهما من أحداث تتعلق ببلاد الشام وعلى الأخص مدينة دمشق، ولا غرابة في ذلك فهو ابنها وهي مسقط رأسه، وقد التزم ابن كثير في منهجيته في هذا الكتاب بالطريقة الحولية، وذلك بذكر أحداث كل سنة بعد الأخرى.

٤) **ابن المبرد**، جمال الدين يوسف بن القاضي بدر الدين حسن بن شهاب الدين أحمد بن حسن بن أحمد بن عبدالهادي بن عبدالحميد بن عبدالهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي الأصل، الدمشقي المولد والوفاة، الصالحي الشهير بابن المبرد، وهو لقب جده أحمد (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م).

لابن المبرد عدة مؤلفات تتحدث عن مدينة دمشق بشكل خاص مثال: «**نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**» و «**الإعلانات في معرفة الخانات**» و «**ثمار المقاصد في ذكر المساجد**» وغيرها. وقد أمدّتنا هذه المصنفات بمعلومات قيمة عن العمائر التجارية في مدينة دمشق. فمن خلال اطلاعنا على المصادر لم نجد مؤلفاً وضع مصنفاً مستقلاً تحدث فيه عن المنشآت التجارية أو جزء منها خاصاً في زمنه مثلما فعل ابن المبرد، بالرغم من اقتصاره فقط على ذكر أسماء الأسواق والخانات المتواجدة في مدينة دمشق وما يباع فيها، دون الخوض في التفاصيل، كالحديث عن أصل هذه الأسواق أو الخانات؟ والى أي عهد تعود؟ ومن بناها؟ إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذه المصنفات، فقد أعانتنا في توفير كثير من المعلومات التي تنقصنا، والتي لا نكاد نجدها في العديد من المصادر.

ومن الملفت للنظر أن «**نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**» قد نشره حبيب زيات في مجلة المشرق سنة ١٩٣٩م، ثم حققه صلاح الخيمي ونشره سنة ١٩٨٨، ومع ذلك

فقد اعتمدنا النسختين، لأن الأول قد نشر قائمة بأسماء جميع الأسواق التي ذكرها إبن المبرد وعددها مائة وتسعة وثلاثون سوقاً، في حين أن الثاني قد اقتصرها على ثمانية وسبعين سوقاً فقط. لذا فقد استخدمنا النسختين ورمزنا للأول بكلمة (المشرق) بعد ذلك المصدر [٤]. أما الثاني فلم نرمز له بشيء بل ذكرنا بعد اسم المصدر مباشرة (رقم الصفحة) [٥].

٥) **المقريزي**، تقي الدين بن علي بن عبدالقادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد البعلبكي الأصل المصري المولد المعروف بالمقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)،شغل المقريزي عدة مناصب في الدولة المملوكية كان من بينها حسبة القاهرة [٦].

للمقريزي عدة مؤلفات لكن افادتها لنا تمثلت بكتاب «***السلوك لمعرفة دول الملوك***»، وكتاب «***اغاثة الأمة بكشف الغمة*** » **أو** (***تاريخ المجاعات في مصر***)»، وكتاب «***النقود القديمة والإسلامية***»، بالإضافة الى كتاب «***المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار***» (المعروف بخطط المقريزي). وقد استفدنا من هذه المصنفات فائدة كبيرة، حيث القت الضوء على جوانب كثيرة للتاريخ الإقتصادي المملوكي، مثل العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار والعملة المتداولة في الأسواق.

٦) **ابن قاضي شهبة**، تقي الدين أبو بكر أحمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) مؤلف كتاب «***تاريخ ابن قاضي شهبة***»،وهو مختصر من تاريخه الكبير الذي ذيل به على كتب من تقدمه من مؤرخي بلاد الشام أمثال: الذهبي، والبرزاي، وابن كثير، وغيرهم. ويبدو أنه حتى الآن لم ينشر من هذا الكتاب إلا الجزء الثالث من المجلد الأول، والذي يتناول الأحداث ما بين (١٣٧٩/٧٨١ - ٨٠٠هـ/١٣٩٧). وتكمن قيمة هذا الكتاب بأن مدّنا بتفاصيل عن العمائر التجارية في دمشق، وعن العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار.

٤- ابن المبرد، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩م، ص٢٢-٢٧، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق.

٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق، في كتاب «رسائل دمشقية». تحقيق صلاح الخيمي، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، نزهة الرفاق.

٦- ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ٩ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، جـ٩، ص١٧٠-١٧٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حجر، أنباء الغمر؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٢١-٢٥.

٧) **ابن حجر العسقلاني**، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)،وهو مؤلف العديد من المصنفات من بينها كتاب « **أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ** »، وكتاب « **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ». الأول يتألف من تسعة أجزاء وتتناول الأحداث فيما بين (١٣٧١/٧٧٣-٨٥٠هـ/١٤٤٦م)،وأهمية هذا الكتاب تكمن بتوضيح أثر العوامل السلبية على الأسواق من حرائق وسيول وطواعين وغيرها. أما الكتاب الثاني فهو تراجم.

٨) **البدري**، عبدالله بن محمد (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م) وهو مؤلف كتاب « **نزهة الأنام في محاسن الشام** ».وقد أمدّنا البدري من خلال هذا الكتاب بتفاصيل واضحة عن مدينة دمشق،وبخاصة فيما يتعلق بجانبها الحضاري، حيث وصف معظم معالم المدينة مثل أبوابها، متنزهاتها، قلعتها، أسواقها المتواجدة حول القلعة وما يباع فيها، ثم تعرض للحديث عن زراعتها وصناعتها وتجارتها. لذا فقد استفدنا من هذا المصدر في تقديم صورة واضحة عن المدينة الإسلامية ونموذجها دمشق، كما أفادنا بمعلومات عن النشاط الصناعي والتجاري لمدينة دمشق.

٩) **البصروي**، علاء الدين بن يوسف (ت ٩٠٥هـ/١٤٩٩م) صاحب كتاب «**تاريخ البصروي** »،وهو يبحث في تاريخ دمشق خلال عصر المماليك من سنة (٨٧١هـ/١٤٦٦م ولغاية سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م). وقد استفدت من هذا الكتاب في معظم المواضيع التي بحثتها،وبخاصة العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار خلال أواخر عصر المماليك.

١٠) **ابن الشحنة**، حسين بن محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وهو مؤلف كتاب « **الدر المنتخب في تاريخ حلب** »، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية لمدينة حلب، إذ وضح مختلف الجوانب الحضارية لهذه المدينة العريقة. وقد استفدنا منه في معرفة أسماء كثيرة من الأسواق والخانات في مدينة حلب، وما كان يعرض ويصنع فيها، كما أمدّنا بمعلومات قيمة حول أهمية حلب التجارية خلال العصر المملوكي، علاوة على تزويده لنا بتفاصيل عن معظم خطط المدينة الإسلامية في زمانه.

١١) **النعيمي**، عبدالقادر محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) صاحب كتاب « **الدارس في تاريخ المدارس** ». يقدم النعيمي في هذا الكتاب تفاصيل عن المدارس في مدينة دمشق، ومن

خلالها أخذنا مادة عن الجانب العمراني للمدينة، وما وجد فيها من عمائر تجارية بمختلف أنواعها كالقياسر والخانات والأسواق وغيرها.

١٢) **العليمي الحنبلي**، أبو اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م)،وهو مؤلف كتاب «**الأنس الجليل بذكر القدس والخليل**». وهذا المصدر يعد من المصادر الأساسية لدراسة القدس،والخليل،وعامة مدن فلسطين منذ القدم وحتى أواخر عصر المماليك، ففيه معلومات حضارية قل أن نجدها في العديد من المصادر.

وتكمن أهمية هذا المصدر بأن زودنا بتفاصيل عن الأسواق في القدس والرملة، كما ذكر أنواعاً أخرى عن العمائر التجارية كالخانات وغيرها من الخطط الأخرى. فضلاً عن ذلك فقد اَستفدنا منه عند الحديث عن الأساليب الإحتكارية (الطرح والرمي) التي اتبعها بعض السلاطين المماليك في سبيل جمع الثروة. لذا فإن هذا المصدر يعتبر في مقدمة المصادر التاريخية لفلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص.

١٣) **ابن طولون**، شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي الحنفي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) ولد وتوفي في مدينة دمشق، وقد عاصر أواخر دولة المماليك وبداية الدولة العثمانية.

لإبن طولون عدة مصنفات وأهمها «**مضاكهة الخلان في حوادث الزمان**»، و«**القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**»، و «**أعلام الورى بمن وُلي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**»، و «**حارات دمشق القديمة**»، و «**ضوء السراج فيما قيل في النساج**». وجميع هذه المصادر قيّمة حيث أفادتني في دراسة المدينة الإسلامية،وتزويدي بمعلومات عن النشاط الإقتصادي لبلاد الشام خلال أواخر العصر المملوكي.

جـ) كتب الحسبة:

١) منها كتاب «**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**»،لعبد الرحمن بن نصر **الشيزري** (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م). ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر الأساسية التي تحدثت عن الحسبة، حيث أمدّنا بمعلومات قيمة عن نشأة الأسواق وتنظيمها، ودور المحتسب في مراقبتها، كما استفدت منه في الحديث عن المعاملات (الموازين والمكاييل) في بلاد

الشام خلال العصر الأيوبي. ومن الملفت للنظر أن العديد من مصادر الحسبة اللاحقة ربما كانت مادتها عن الحسبة نقلاً عن هذا المصدر.

٢) كتاب « **معالم القربة في أحكام الحسبة** » لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف **بابن الاخوة** (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م). ويبدو أن هذا المؤلف قد استقى مادة كتابه عن الشيزري، فكثيراً من المعلومات التي ذكرها تماثل ما ورد ذكره عند الشيزري، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته، فقد استفدت منه بشكل خاص في الحديث عن الأوزان، ودور الدلال في الأسواق،ثم أهمية المحتسب في مراقبة الأسواق.

د) الرحلات:

١) **ابن بطوطة**، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) مؤلف كتاب « **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** »،انطلق ابن بطوطة من شمال افريقية عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م لأداء فريضة الحج حيث زار مصر العليا فالبحر الأحمر، ثم عاد إلى بلاد الشام ومدح ما بها من الأسواق مثل أسواق دمشق وعجلون وغيرها، كما ذكر تجارة بلاد الشام، لذا كانت رحلته هامة بسبب ما قدم لنا من معلومات قيمة حول هذا الموضوع.

٢) **لابروكييه، دي**، قام برحلة إلى بلاد الشام في أواسط القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وترجمها محمود زيود، وقد استفدنا منها في تسليط الأضواء على الجانب الحضاري لبلاد الشام وبخاصة الناحية الإقتصادية، وكان من المتعذر عليّ إغفال هذه الرحلة لما فيها من معلومات أثرت البحث قيمة.

٣) **ابن الجيعان**، شهاب الدين أبو البقاء (ت ٩٠٢هـ/١٢٩٦م) ورحلته المشهورة باسم « **التول المستطرف في سفر السلطان الملك الأشرف** »، وهو الملك الأشرف قايتباي إلى الشام عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، وتكمن أهمية هذا الكتاب بما قدمه لنا من معلومات كثيرة وبخاصة عن بعض الأسواق غير الدائمة، والخانات المقامة على الطرقات في بلاد الشام.

٤) **راوولف**، ليونهارت مؤلف «**رحلة المشرف الى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣م**» وقام بترجمتها إلى العربية سليم طه التكريتي، وهي تعد من أهم الرحلات الأجنبية لبلاد الشام بالرغم من تأخرها، فقد وصف صاحب هذه الرحلة المعالم الحضارية في بلاد الشام والتي لا نشك في أن أصولها مملوكية، حيث ذكر المنشآت العمرانية في طرابلس ودمشق وحلب، وكان من بين ما ورد بعض العمائر التجارية، فأثناء رحلته من دمشق وحلب عدّ ما بين تسعة إلى عشرة خانات كانت قائمة على هذا الطريق، والتي نرجح أنها تعود في تاريخها إلى العصر المملوكي.

هـ) المصادر الجغرافية:

١) كتاب «**معجم البلدان**»،لشهاب الدين أبو الفضل **ياقوت الحموي** (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ويعّد هذا المصدر من المصادر الأساسية التي لاغنى للباحث عن الرجوع اليه، ففيه تعريف لكل مدينة، من حيث مكانها، تجارتها، سكانها، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في كثير من المصادر.

٢) كتاب «**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**»،لمؤلفه عز الدين ابي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم المعروف **بابن شداد** (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م). وهذا الكتاب يقسم إلى أكثر من جزء ففي الجزء الأول القسم الأول يتحدث عن مدينة حلب فقط، أما الجزء الثاني فقد اختص حديثه عن مدينة دمشق، في حين أن الجزء الثالث شمل موضوعه لبنان والأردن وفلسطين.

وتعدّ جميع هذه الأجزاء مصادر هامة في طبوغرافية بلاد الشام التاريخية إذ يصف مدنها وقراها وكورها وجبالها،وما بها من مدارس وحمامات ومعابد وآثار ومزارات، لكنه لم يضع عنواناً خاصاً للعمائر التجارية كالأسواق والقياسر والفنادق والخانات وغيرها، إلا أنه قد تم التعرف على مثل هذه المنشآت التجارية من خلال حديث المؤلف عن الخطط الأخرى للمدينة.

٣) كتاب «**نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**»،لصاحبه شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف **بشيخ الربوة** (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م).احتلت بلاد الشام المكانة الأولى من خلال مادة هذا الكتاب،لأن

مؤلفه أمضى فيها كل حياته،وهو يعّد مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها، وقد استفدنا منه في معظم فصول البحث،وبخاصة عند الحديث عن السلع التجارية.

٤) كتاب «**تقويم البلدان**»،لمؤلفه الملك الأفضل نور الدين بن الحسن المشهور **بأبي الفداء**[٧] صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).وقد أفادنا هذا الكتاب بالكثير من المعلومات الإقتصادية عن العديد من المدن الشامية حيث حدد مكانها، وذكر شهرتها.

و) الدراسات العربية والأجنبية:

١) منها موسوعة «**دائرة المعارف الإسلامية**» «The Encyclopaedia of Islam» القسم الأكبر من هذه الموسوعة مترجم للعربية، وتكمن أهمية هذه الموسوعة بما قدمت من معلومات قيمة في مختلف المواضيع، ولم يقتصر دورها على ذلك فحسب، بل أنها أمدتنا بأسماء المصادر التي تبحث في هذه المواضيع. لذا فقد استفدت منها في كثير من الموضوعات ففيها ابحاث عن العمائر التجارية مثل السوق والخان والفندق والقيسارية، وهي جميعها موضوعات أساسية في هذه الدراسة.

٢) ومنها كتاب «**المدينة الإسلامية**»،ترجمة أحمد محمد تغلب ١٩٨٣م، وهذا الكتاب قيم لما فيه من أبحاث في المدينة الإسلامية،مثل بحث قدمه بدور **شالميتا**،واسمه «**الأسواق**»، وبحث قدمه **نيكتيا** اليسييف تحت عنوان «**التخطيط المادي**». وهذه الأبحاث زودتني بمعلومات وافرة عن المنشآت العمرانية الدينية والمدنية داخل المدينة الإسلامية، وقد كان جلّ اهتمامي منصباً حول العمائر التجارية المختلفة حيث عرفت مواقعها داخل المدينة،والسبب وراء ذلك.

٣) ومنها كتاب «**أحياء حلب وأسواقها**»،لمؤلفه خير الدين **الأسدي**، وهو كتاب هام في دراسة الجانب الحضاري لمدينة حلب، حيث رتب المؤلف مادته على حسب الحروف الهجائية فذكر أحياء حلب وخاناتها وأسواقها وحماماتها وغيرها من المعالم العمرانية.

٧- سبقت ترجمته في ص٤ .

٤) ومنها كتاب «**طرق التجارة الدولة ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)**»،لنعيم زكي **فهمي**. وقد استفدت من هذا المرجع في معظم فصول هذا البحث،وبخاصة عند الحديث عن الأسواق غير الدائمة، والعمائر المكملة للأسواق، والعوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً وسلباً. وتكمن أهمية هذا الكتاب بأن مؤلفه قد استقى مادته من مصادر كان من المتعذر علينا الوصول اليها مثل الوثائق المحفوظة في دور الأراشيف في الدول الأجنبية، بالإضافة إلى اطلاعه على العديد من الدراسات الإجنبية المختلفة.

الفصل الأول

الأســـــواق الدائمـــة

توطئة

١. التعريف بالسوق

٢. موقع الأسواق داخل المدينة الاسلامية

أ- أسواق المدن غير الساحلية:

١. أسواق دمشق

٢. أسواق حلب

٣. أسواق حماة

٤. أسواق حمص

٥. أسواق القدس

٦. أسواق الرملة والخليل

٧. أسواق نابلس وبيت لحم

٨. أسواق عجلون

ب- أسواق المدن الساحلية

١. أسواق طرابلس

٢. أسواق بيروت

٣. أسواق عكا

جـ- أسواق في مدن شامية أخرى

- ملاحظات عامة حول أسواق بلاد الشام

توطئة

أ. التعريف بالسوق

السوق كلمة آرامية اطلقت على أسماء الشوارع والاماكن[١]، وهي في اللغة العربية تعني موضع المبيعات، وهي تذكر وتؤنث، وجمعها أسواق[٢]. واصطلاحاً تعني الموسم، وهو الموضع المحدد الذي يؤمه الناس في زمن معين من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معاً[٣]. وفي العرف العام تطلق على المكان الذي يجتمع فيه الناس من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معا دون تحديد للزمان أو المكان[٤]، ولا لنوع البضاعة المتواجدة في ذلك المكان، سواء كانت ضرورية أم كمالية[٥].

والأسواق نوعان دائم، وغير دائم، فالدائم محلي ثابت لم يخضع لزمن معين حيث كان ينصب للبيع والشراء في كل يوم. أما الثاني فكان يخصص لإقامته وقت من العام أو الاسبوع، وكان يقام في الغالب خارج اسوار المدينة، وقد ضم هذا النوع من الأسواق عدة انماط من الأسواق مثل الأسواق الموسمية، والسنوية، والاسبوعية، والأسواق المرافقة للجيش، واخيراً الأسواق الطارئة وقت الضرورة[٦].

١- دائرة المعارف الاسلامية، م١٢، ص ٣٨٠.

٢- إبن منظور، لسان العرب المحيط، ١٥ مجلداً، دار صادر، بيروت، (د. ت)، مادة سوق، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: إبن منظور، لسان العرب.

٣- بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، م١، ص ٢٣٥.
وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البستاني، المعارف.

٤- المرجع نفسه، م١، ص ٢٣٥.

٥- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (وهو الجزء الاول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر)، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م ، ص ٢٢٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن خلدون، المقدمة.

٦- انظر الفصل الثاني الاسواق غير الدائمة.

ب. موقع الاسواق داخل المدينة الاسلامية:

يرجع اقامة الاسواق الدائمة في بلاد الشام إلى عصور قديمة كالعصر اليوناني والهلنستي والروماني،حيث اقيمت في الساحة العمومية للمدينة، وحول المعابد، والكنائس، والقصور، ثم انتشرت فيما بعد في كل مكان. وليس من السهل معرفة تاريخ ذلك الانتشار، ولكن يبدو أن اتساع المدينة كان عاملاً هاماً في انتشار التجارة في كل ركن من أركان المدينة[٧].

وفي العصور الوسطى اثر العرب تاثيراً واضحاً في الأسواق،إذ نقلوا معهم عند فتحهم للبلاد صورة لأسواقهم التي عرفوها في جزيرتهم العربية منذ الجاهلية، ولم يكن لهذه الأسواق اسوار تحددها وانما تركوها دون بناء، وحتى عند بناء الامصار فقد ظلت هي الاخرى دون بناء لأسواقها حيث أوضح عمر بن الخطاب ذلك بقوله: "الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته، ويفرغ من بيعه" [٨]، كما اكد علي بن ابي طالب على ذلك بقوله: "سوق المسلمين كمصلى المسلمين، من سبق إلى شيء فهو له حتى يدعه يومه" [٩]. إلاّ ان ذلك لم يستمر طويلا ففي خلافة معاوية بن ابي سفيان (٦٦١/٤١ - ٦٨٠/٦٠ هـ/م) كانت المحاولات الأولى لبناء الأسواق، إذ شيدت دارين في المدينة المنورة قامت بدور الأسواق، الدار

٧- جان سوفاجية، دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م ، ص ٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: سوفاجية، دمشق؛ بشير زهدي، بناء المدن السورية، وتخطيطها في العهد الهلنستي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م ٤-٥، ١٩٥٤-١٩٥٥م، ص ٤٧-٤٨ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زهدي، المدن السورية ؛ ناصر الرباط، مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق من القرن السابع حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م ٣٨ - ٣٩، ١٩٨٨ - ١٩٨٩، ص ٧٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الرباط، تطور السوق.

٨- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ٤٥ - ٤٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ الرسل.

٩- ابن سلام، كتاب الاموال، تحقيق محمد خليل هراس،مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٠٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن سلام، الاموال.

الاولى سميت "بدار القطران" أما الاخرى فعرفت "بدار النقصان" [١٠]. كما غطيت الأسواق في مدينة الكوفة بحصائر الغاب المعمولة فيها وذلك قبيل انتهاء النصف الاول من القرن الاول الهجري/السابع الميلادي [١١].

ومع كل ذلك لم تأخذ الأسواق شكلها الطبيعي إلاّ على يد الوالي خالد بن عبدالله القسري (١٠٥/٧٢٣-١٢٠هـ/٧٣٧م) في العراق، حيث بنى الأسواق في مدينة الكوفة "وجعل سقوفها ازاجاً معقودة بالآجر والجص" [١٢]بعد أن كانت مظللة بالحصر [١٣].

هذا وقد راعى المسلمون في اختيار وسط المدينة كموضع مناسب لاقامة الأسواق حيث مثلت احدى المراكز الاساسية للحياة العامة في المدينة بعد الجامع ودار الامارة، فأقيمت حولهما ولا سيما الجامع، ولعل السبب في ذلك أن الجامع يمثل بؤرة التجمع في المدينة وملتقى الطرق الرئيسة[١٤]، فلا غرابة إذاً إن عرفت بعض المساجد باسماء الاسواق مثل مسجد الرماحين، ومسجد الخشابين، ومسجد الصفارين في دمشق[١٥] وغيرها من المساجد الاخرى، كما ارتبطت الأسواق بالمساجد ايضاً من

١٠- السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ٢ جزء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م، ج٢، ص ٧٤٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السمهودي، وفاء الوفاء.

١١- عبد العزيز الدوري، المؤسسات الحكومية بحث في كتاب "المدينة الاسلامية" ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص ٥٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الدوري، المؤسسات الحكومية.

١٢- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص ٤٠٢، وسيشار إليه فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

١٣- عبد العزيز الدوري، نشوء الاصناف والحرف في الاسلام، مستل من مجلة كلية الاداب، بغداد، ع١، حزيران، ١٩٥٩، ص ٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الدوري، الاصناف.

١٤- المرجع نفسه، ص ٢-٣، ٥.

١٥- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)، نشر وتحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦، ص ٩٥، ١٠٣، ١١٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شداد، الأعلاق، دمشق.

تمهيـــد

شهد العصر المملوكي ازدهاراً حضارياً واضحاً في مختلف الميادين، ففي مجال العمارة تزايد عدد المنشآت العمرانية المختلفة الدينية والمدنية والعسكرية، في الوقت نفسه برز ابداع وتفنن في تصميم هذه العمائر مما أضفى عليها حسناً وجمالاً.

هذا الإنتعاش الحضاري كان ناتجاً عن الإزدهار الإقتصادي الذي عاصر المماليك، فقد وصل عدد الأسواق في مدينة دمشق الى أكثر من مئة وأربعين سوقاً، عدا عن العمائر التجارية الأخرى مثل القياسر والفنادق والخانات والوكالات وغيرها.

ولأهمية الأسواق التجارية في بلاد الشام ودورها الواضح في ازدهار الدولة فقد لفت هذا الموضوع انتباهي ودفعني للكتابة فيه، وخاصة بعد أن بحثت فلم أجد أحداً من الباحثين قد تناوله باعتباره موضوعاً مستقلاً وشاملاً، وان كان البعض قد كتب في اجزاء منه إلا أن ذلك لم يكن كافياً.

ولكي يتكامل البحث فقد ارتأيت أن يشمل البعد المكاني لهذه الدراسة جميع الأسواق في بلاد الشام، وأن يكون البعد الزماني متضمناً العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨/١٢٥٠ - ٧٨٣هـ/١٣٨١م) والثاني (٧٨٤/١٣٨٢ - ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م)، كما وجد سبب آخر لهذا التحديد بالذات وهو أن معظم المصادر الهامة حول هذا الموضوع متوفرة في العصر المملوكي الثاني. لذا كان من الأجدى أن أبحث في العصرين الأول والثاني.

هذا وقد احتوى البحث على ستة فصول، ففي الفصل الاول والثاني تحدثت عن أنواع الأسواق، حيث قسمتها الى نوعين هما: الأسواق الدائمة ودرست في الفصل الثاني، والأسواق غير الدائمة وخصص لها الفصل الثالث. وقد شمل الفصل الثاني الأسواق الدائمة في معظم مدن بلاد الشام مثل أسواق دمشق وحلب وحماه وحمص والقدس ونابلس وعجلون، وأسواق المدن الساحلية مثل أسواق طرابلس وعكا وبيروت وصور وغيرها. وفي نهاية هذا الفصل خرجت بعدة نتائج عن هذه الأسواق.

أما الأسواق غير الدائمة فتتضمن الأسواق الموسمية والأسواق السنوية والأسواق الأسبوعية والأسواق المرافقة للجيش والأسواق الطارئة.

وبينت في الفصل الثالث أنواع العمائر التجارية المكملة للأسواق مثل القياسر والفنادق والخانات والوكالات وغيرها. أما الفصل الرابع فوضحت فيه العوامل المؤثرة في الأسواق ايجاباً وسلباً، ففي البداية ذكرت أسباب ازدهار الأسواق مثل الموقع المتوسط لبلاد الشام وأهميتها الدينية والإقتصادية ودور الطرق التجارية في ذلك، ناهيك عن رعاية السلطة المملوكية لها. وفي القسم الآخر تحدثت عن عوامل تضاؤل واضمحلال القسم الأكبر من الأسواق مثل العوامل الطبيعية (الزلازل، السيول، الطواعين)، والعوامل البشرية والمتمثلة بالحرائق وهجمات التتار والتركمان على بلاد الشام، وقطع البدو للطرقات ونهبهم لبعض المدن والقرى الشامية، علاوة على ضعف السلطة واكتشاف رأس الرجاء الصالح، حيث سبب ذلك كله انهياراً مباشراً للدول المملوكية إذ لم تعد تقوى على الثبات امام زحف العثمانيين سنة ١٥١٦م.

وفي الفصل الخامس بينت أنواع السلع التجارية المتبادلة بين الأسواق الشامية، سواء المصنعة في بلاد الشام، أو المستوردة اليها، والمصدرة منها. وقد دفعني هذا للحديث عن مقدار ما كان يدفع على تلك البضائع من مكوس.

وأخيراً اقتصرت الفصل السادس للحديث عن المعاملات في بلاد الشام حيث وضحت أنواع هذه المعاملات مثل التعامل بالنقود والمقايضة ونصف المقايضة والسفتجة والصك، ثم تحدثت عن الموازين والمكاييل والمقاييس المستعملة في الأسواق الشامية ومقدار كل منها، ودور المنادي والدلال (السمسار) في البيع والشراء وأسباب ارتفاع الأسعار، ومن هو المستفيد من وراء ذلك، ثم موقف السلطات المملوكية جراء ذلك، كما بينت في الفصل نفسه دور السلطة في مراقبة الأسواق، ومن هو المسؤول عنها، وما هي واجباته، كل ذلك وضحته في موضعه!

دراسة تحليلية لبعض مصادر ومراجع البحث

اعتمدت في دراستي هذه على العديد من المصادر المخطوطة والمطبوعة بالإضافة إلى الدراسات العربية والأجنبية الحديثة منها والمعاصرة، وسوف نتحدث عن أهم هذه المصادر والدراسات التي كان لها النصيب الأكبر في هذا البحث.

أ الموسوعات

برز خلال العصر المملوكي ثلاث موسوعات تعدّ من أعظم كتب التراث لاتساع موضوعاتها، واشتمالها على مختلف أنواع العلوم، وأصناف المعرفة. ومن هذه الموسوعات ما يلي:

١) « **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** » لمؤلفها شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل بن الملجي بن دعجان ***العمري*** (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، والذي شغل عدة مناصب في الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام،وآخرها كانت رئاسة ديوان الإنشاء، وقد أثنى عليه ابن كثير بقوله: "وكان يشبه بالقاضي الفاضل في زمانه، وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة، وكان حسن المذاكرة سريع الإستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق، يحب العلماء والفقراء ولم يجاوز الخمسين »[١].

تتألف هذه الموسوعة من بضعة وعشرين جزءاً،لم ينشر منها حسب اطلاعي سوى الجزء الأول الذي نشره أحمد زكي سنة ١٩٢٤م، وقسم خاص «بممالك مصر والشام والحجاز واليمن»،وقام بتحقيقه أيمن فؤاد ونشره سنة ١٩٨٥م. أما القسم الأخير،فيحمل عنوان «قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين»،وحققه دوروتيا كراڤولسكي ونشر سنة ١٩٨٥م.

هذه الموسوعة مثل التي قبلها لكن فائدتها كانت أكبر فقد استفدت منها في جميع فصول الرسالة، حيث كان لها النصيب الأكبر بإعطائي معلومات وافرة عن

١- ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، تحقيق أحمد ابو ملحم وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، جـ١٤، ص٢٤١ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية.

عمران المدن في بلاد الشام، علاوة على تقديم صورة واضحة عن الأسواق غير الدائمة، وبالأخص الأسواق التي كانت تقام على طريق الحاج الإسلامي، سواءاً الشامي منها، أم المصري، كتلك الأسواق التجارية التي كانت تقام للحاج في كل من زيزا والعقبة.

٢) «**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**» لصاحبها أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله الشهاب بن الحجال أبي اليمن الفزاري **القلقشندي** ثم القاهري الشافعي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، وكان عمله في ديوان الإنشاء بالقاهرة[٢]. وهذه الموسوعة لا تقل شأناً عما جاء في كتب إبن فضل الله العمري، بل أن كثيراً من المعلومات التي يذكرها القلقشندي هي نقلا عن إبن فضل الله العمري، فمثلاً عند حديثه عن طرق المواصلات في بلاد الشام ينقلها كما وردت عند إبن فضل الله العمري، لكن هذا لا يقلل من أهميتها، فقد أورد القلقشندي معلومات اقتصادية كثيرة نكاد لا نجدها في كتب غيره.

ب) المصادر التاريخية:

١) **أبو الفداء**، الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المشهور بأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م). وهو أمير عربي ومؤرخ وجغرافي، والده الملك الأفضل أخو الملك المنصور، وهو من سلالة أحد فروع الدولة الأيوبية بمصر، وأمير حماه في ذلك الوقت[٣].

لأبي الفداء عدة مؤلفات منها كتاب «**المختصر في تاريخ البشر**» يعد هذا الكتاب من المصادر التاريخية الهامة لدراسة التاريخ المملوكي، حيث أفادني في معظم فصول البحث، وبخاصة في توضيح العوامل التي كانت سبباً في ازدهار واضمحلال الأسواق الشامية خلال العصر المملوكي الأول.

٢- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءاً، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤هـ، جـ٢، ص٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السخاوي، الضوء اللامع.

٣- دائرة المعارف الإسلامية، أصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، واعتمد في الترجمة على الأصلين الإنجليزي والفرنسي، ترجمة خورشيد وآخرون، انتشارات جهان تران، بوذر حمبري (د.ت) م١، ص٣٨٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دائرة المعارف الإسلامية.

٢) **الذهبي**، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م). له عدة مؤلفات من أهمها: «**دول الإسلام**»، و«**ذيول العبر في خبر من غبر**»، وقد اعتمدت على هذه المصادر في مختلف فصول البحث ولا سيما في دراسة العوامل المؤثرة في الأسواق ايجاباً وسلباً.

٣) **ابن كثير**، عماد الدين اسماعيل بن أبي حفص عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) صاحب الكتاب المعروف «**البداية والنهاية**».

يهمنا من هذا الكتاب الجزء الثالث عشر والرابع عشر، لما يوجد فيهما من أحداث تتعلق ببلاد الشام وعلى الأخص مدينة دمشق، ولا غرابة في ذلك فهو ابنها وهي مسقط رأسه، وقد التزم ابن كثير في منهجيته في هذا الكتاب بالطريقة الحولية، وذلك بذكر أحداث كل سنة بعد الأخرى.

٤) **ابن المبرد**، جمال الدين يوسف بن القاضي بدر الدين حسن بن شهاب الدين أحمد بن حسن بن أحمد بن عبدالهادي بن عبدالحميد بن عبدالهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي الأصل، الدمشقي المولد والوفاة، الصالحي الشهير بابن المبرد، وهو لقب جده أحمد (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م).

لابن المبرد عدة مؤلفات تتحدث عن مدينة دمشق بشكل خاص مثال: «**نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**» و «**الإعلانات في معرفة الخانات**» و «**ثمار المقاصد في ذكر المساجد**» وغيرها. وقد أمدّتنا هذه المصنفات بمعلومات قيمة عن العمائر التجارية في مدينة دمشق. فمن خلال اطلاعنا على المصادر لم نجد مؤلفاً وضع مصنفاً مستقلاً تحدث فيه عن المنشآت التجارية أو جزء منها خاصاً في زمنه مثلما فعل ابن المبرد، بالرغم من اقتصاره فقط على ذكر أسماء الأسواق والخانات المتواجدة في مدينة دمشق وما يباع فيها، دون الخوض في التفاصيل، كالحديث عن أصل هذه الأسواق أو الخانات؟ والى أي عهد تعود؟ ومن بناها؟ إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذه المصنفات، فقد أعانتنا في توفير كثير من المعلومات التي تنقصنا، والتي لا نكاد نجدها في العديد من المصادر.

ومن الملفت للنظر أن «**نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**» قد نشره حبيب زيات في مجلة المشرق سنة ١٩٣٩م، ثم حققه صلاح الخيمي ونشره سنة ١٩٨٨، ومع ذلك

فقد اعتمدنا النسختين، لأن الأول قد نشر قائمة بأسماء جميع الأسواق التي ذكرها إبن المبرد وعددها مائة وتسعة وثلاثون سوقاً، في حين أن الثاني قد اقتصرها على ثمانية وسبعين سوقاً فقط. لذا فقد استخدمنا النسختين ورمزنا للأول بكلمة (المشرق) بعد ذلك المصدر [٤]. أما الثاني فلم نرمز له بشيء بل ذكرنا بعد اسم المصدر مباشرة (رقم الصفحة) [٥].

٥) **المقريزي**، تقي الدين بن علي بن عبدالقادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد البعلبكي الأصل المصري المولد المعروف بالمقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)،شغل المقريزي عدة مناصب في الدولة المملوكية كان من بينها حسبة القاهرة [٦].

للمقريزي عدة مؤلفات لكن افادتها لنا تمثلت بكتاب «***السلوك لمعرفة دول الملوك***»، وكتاب «***اغاثة الأمة بكشف الغمة*** » **أو** (***تاريخ المجاعات في مصر***)»، وكتاب «***النقود القديمة والإسلامية***»، بالإضافة الى كتاب «***المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار***» (المعروف بخطط المقريزي). وقد استفدنا من هذه المصنفات فائدة كبيرة، حيث القت الضوء على جوانب كثيرة للتاريخ الإقتصادي المملوكي، مثل العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار والعملة المتداولة في الأسواق.

٦) **ابن قاضي شهبة**، تقي الدين أبو بكر أحمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) مؤلف كتاب «***تاريخ ابن قاضي شهبة***»،وهو مختصر من تاريخه الكبير الذي ذيل به على كتب من تقدمه من مؤرخي بلاد الشام أمثال: الذهبي، والبرزاي، وابن كثير، وغيرهم. ويبدو أنه حتى الآن لم ينشر من هذا الكتاب إلا الجزء الثالث من المجلد الأول، والذي يتناول الأحداث ما بين (١٣٧٩/٧٨١ - ٨٠٠هـ/١٣٩٧). وتكمن قيمة هذا الكتاب بأن مدّنا بتفاصيل عن العمائر التجارية في دمشق، وعن العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار.

٤- ابن المبرد، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩م، ص٢٢-٢٧، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق.

٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق، في كتاب «رسائل دمشقية». تحقيق صلاح الخيمي، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، نزهة الرفاق.

٦- ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ٩ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، جـ٩، ص١٧٠-١٧٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حجر، أنباء الغمر؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٢١-٢٥.

٧) **ابن حجر العسقلاني**، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)،وهو مؤلف العديد من المصنفات من بينها كتاب « **أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ** »، وكتاب « **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ». الأول يتألف من تسعة أجزاء وتتناول الأحداث فيما بين (١٣٧١/٧٧٣-٨٥٠هـ/١٤٤٦م)،وأهمية هذا الكتاب تكمن بتوضيح أثر العوامل السلبية على الأسواق من حرائق وسيول وطواعين وغيرها. أما الكتاب الثاني فهو تراجم.

٨) **البدري**، عبدالله بن محمد (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م) وهو مؤلف كتاب « **نزهة الأنام في محاسن الشام** ».وقد أمدّنا البدري من خلال هذا الكتاب بتفاصيل واضحة عن مدينة دمشق،وبخاصة فيما يتعلق بجانبها الحضاري، حيث وصف معظم معالم المدينة مثل أبوابها، متنزهاتها، قلعتها، أسواقها المتواجدة حول القلعة وما يباع فيها، ثم تعرض للحديث عن زراعتها وصناعتها وتجارتها. لذا فقد استفدنا من هذا المصدر في تقديم صورة واضحة عن المدينة الإسلامية ونموذجها دمشق، كما أفادنا بمعلومات عن النشاط الصناعي والتجاري لمدينة دمشق.

٩) **البصروي**، علاء الدين بن يوسف (ت ٩٠٥هـ/١٤٩٩م) صاحب كتاب «**تاريخ البصروي** »،وهو يبحث في تاريخ دمشق خلال عصر المماليك من سنة (٨٧١هـ/١٤٦٦م ولغاية سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م). وقد استفدت من هذا الكتاب في معظم المواضيع التي بحثتها،وبخاصة العوامل المؤثرة في الأسواق والأسعار خلال أواخر عصر المماليك.

١٠) **ابن الشحنة**، حسين بن محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وهو مؤلف كتاب « **الدر المنتخب في تاريخ حلب** »، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية لمدينة حلب، إذ وضح مختلف الجوانب الحضارية لهذه المدينة العريقة. وقد استفدنا منه في معرفة أسماء كثيرة من الأسواق والخانات في مدينة حلب، وما كان يعرض ويصنع فيها، كما أمدّنا بمعلومات قيمة حول أهمية حلب التجارية خلال العصر المملوكي، علاوة على تزويده لنا بتفاصيل عن معظم خطط المدينة الإسلامية في زمانه.

١١) **النعيمي**، عبدالقادر محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) صاحب كتاب « **الدارس في تاريخ المدارس** ». يقدم النعيمي في هذا الكتاب تفاصيل عن المدارس في مدينة دمشق، ومن

خلالها أخذنا مادة عن الجانب العمراني للمدينة، وما وجد فيها من عمائر تجارية بمختلف أنواعها كالقياسر والخانات والأسواق وغيرها.

١٢) **العليمي الحنبلي**، أبو اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م)،وهو مؤلف كتاب «**الأنس الجليل بذكر القدس والخليل**». وهذا المصدر يعد من المصادر الأساسية لدراسة القدس،والخليل،وعامة مدن فلسطين منذ القدم وحتى أواخر عصر المماليك، ففيه معلومات حضارية قل أن نجدها في العديد من المصادر.

وتكمن أهمية هذا المصدر بأن زودنا بتفاصيل عن الأسواق في القدس والرملة، كما ذكر أنواعاً أخرى عن العمائر التجارية كالخانات وغيرها من الخطط الأخرى. فضلاً عن ذلك فقد اَستفدنا منه عند الحديث عن الأساليب الإحتكارية (الطرح والرمي) التي اتبعها بعض السلاطين المماليك في سبيل جمع الثروة. لذا فإن هذا المصدر يعتبر في مقدمة المصادر التاريخية لفلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص.

١٣) **ابن طولون**، شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي الحنفي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) ولد وتوفي في مدينة دمشق، وقد عاصر أواخر دولة المماليك وبداية الدولة العثمانية.

لإبن طولون عدة مصنفات وأهمها «**مضاكهة الخلان في حوادث الزمان**»، و«**القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**»، و «**أعلام الورى بمن وُلي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**»، و «**حارات دمشق القديمة**»، و «**ضوء السراج فيما قيل في النساج**». وجميع هذه المصادر قيّمة حيث أفادتني في دراسة المدينة الإسلامية،وتزويدي بمعلومات عن النشاط الإقتصادي لبلاد الشام خلال أواخر العصر المملوكي.

جـ) كتب الحسبة:

١) منها كتاب «**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**»،لعبد الرحمن بن نصر **الشيزري** (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م). ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر الأساسية التي تحدثت عن الحسبة، حيث أمدّنا بمعلومات قيمة عن نشأة الأسواق وتنظيمها، ودور المحتسب في مراقبتها، كما استفدت منه في الحديث عن المعاملات (الموازين والمكاييل) في بلاد

الشام خلال العصر الأيوبي. ومن الملفت للنظر أن العديد من مصادر الحسبة اللاحقة ربما كانت مادتها عن الحسبة نقلاً عن هذا المصدر.

٢) كتاب « **معالم القربة في أحكام الحسبة** » لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف **بابن الاخوة** (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م). ويبدو أن هذا المؤلف قد استقى مادة كتابه عن الشيزري، فكثيراً من المعلومات التي ذكرها تماثل ما ورد ذكره عند الشيزري، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته، فقد استفدت منه بشكل خاص في الحديث عن الأوزان، ودور الدلال في الأسواق،ثم أهمية المحتسب في مراقبة الأسواق.

د) الرحلات:

١) **ابن بطوطة**، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) مؤلف كتاب « **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** »،انطلق ابن بطوطة من شمال افريقية عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م لأداء فريضة الحج حيث زار مصر العليا فالبحر الأحمر، ثم عاد إلى بلاد الشام ومدح ما بها من الأسواق مثل أسواق دمشق وعجلون وغيرها، كما ذكر تجارة بلاد الشام، لذا كانت رحلته هامة بسبب ما قدم لنا من معلومات قيمة حول هذا الموضوع.

٢) **لابروكييه، دي**، قام برحلة إلى بلاد الشام في أواسط القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وترجمها محمود زيود، وقد استفدنا منها في تسليط الأضواء على الجانب الحضاري لبلاد الشام وبخاصة الناحية الإقتصادية، وكان من المتعذر عليّ إغفال هذه الرحلة لما فيها من معلومات أثرت البحث قيمة.

٣) **ابن الجيعان**، شهاب الدين أبو البقاء (ت ٩٠٢هـ/١٢٩٦م) ورحلته المشهورة باسم « **التول المستطرف في سفر السلطان الملك الأشرف** »، وهو الملك الأشرف قايتباي إلى الشام عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، وتكمن أهمية هذا الكتاب بما قدمه لنا من معلومات كثيرة وبخاصة عن بعض الأسواق غير الدائمة، والخانات المقامة على الطرقات في بلاد الشام.

٤) **راوولف**، ليونهارت مؤلف «**رحلة المشرف الى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣م**» وقام بترجمتها إلى العربية سليم طه التكريتي، وهي تعد من أهم الرحلات الأجنبية لبلاد الشام بالرغم من تأخرها، فقد وصف صاحب هذه الرحلة المعالم الحضارية في بلاد الشام والتي لا نشك في أن أصولها مملوكية، حيث ذكر المنشآت العمرانية في طرابلس ودمشق وحلب، وكان من بين ما ورد بعض العمائر التجارية، فأثناء رحلته من دمشق وحلب عدّ ما بين تسعة إلى عشرة خانات كانت قائمة على هذا الطريق، والتي نرجح أنها تعود في تاريخها إلى العصر المملوكي.

هـ) المصادر الجغرافية:

١) كتاب «**معجم البلدان**»،لشهاب الدين أبو الفضل **ياقوت الحموي** (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ويعّد هذا المصدر من المصادر الأساسية التي لاغنى للباحث عن الرجوع اليه، ففيه تعريف لكل مدينة، من حيث مكانها، تجارتها، سكانها، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في كثير من المصادر.

٢) كتاب «**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**»،لمؤلفه عز الدين ابي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم المعروف **بابن شداد** (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م). وهذا الكتاب يقسم إلى أكثر من جزء ففي الجزء الأول القسم الأول يتحدث عن مدينة حلب فقط، أما الجزء الثاني فقد اختص حديثه عن مدينة دمشق، في حين أن الجزء الثالث شمل موضوعه لبنان والأردن وفلسطين.

وتعدّ جميع هذه الأجزاء مصادر هامة في طبوغرافية بلاد الشام التاريخية إذ يصف مدنها وقراها وكورها وجبالها،وما بها من مدارس وحمامات ومعابد وآثار ومزارات، لكنه لم يضع عنواناً خاصاً للعمائر التجارية كالأسواق والقياسر والفنادق والخانات وغيرها، إلا أنه قد تم التعرف على مثل هذه المنشآت التجارية من خلال حديث المؤلف عن الخطط الأخرى للمدينة.

٣) كتاب «**نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**»،لصاحبه شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف **بشيخ الربوة** (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م).احتلت بلاد الشام المكانة الأولى من خلال مادة هذا الكتاب،لأن

مؤلفه أمضى فيها كل حياته،وهو يعّد مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها، وقد استفدنا منه في معظم فصول البحث،وبخاصة عند الحديث عن السلع التجارية.

٤) كتاب «**تقويم البلدان**»،لمؤلفه الملك الأفضل نور الدين بن الحسن المشهور **بأبي الفداء**[٧] صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).وقد أفادنا هذا الكتاب بالكثير من المعلومات الإقتصادية عن العديد من المدن الشامية حيث حدد مكانها، وذكر شهرتها.

و) الدراسات العربية والأجنبية:

١) منها موسوعة «**دائرة المعارف الإسلامية**» «The Encyclopaedia of Islam» القسم الأكبر من هذه الموسوعة مترجم للعربية، وتكمن أهمية هذه الموسوعة بما قدمت من معلومات قيمة في مختلف المواضيع، ولم يقتصر دورها على ذلك فحسب، بل أنها أمدتنا بأسماء المصادر التي تبحث في هذه المواضيع. لذا فقد استفدت منها في كثير من الموضوعات ففيها ابحاث عن العمائر التجارية مثل السوق والخان والفندق والقيسارية، وهي جميعها موضوعات أساسية في هذه الدراسة.

٢) ومنها كتاب «**المدينة الإسلامية**»،ترجمة أحمد محمد تغلب ١٩٨٣م، وهذا الكتاب قيم لما فيه من أبحاث في المدينة الإسلامية،مثل بحث قدمه بدور **شالميتا**،واسمه «**الأسواق**»، وبحث قدمه **نيكتيا** اليسييف تحت عنوان «**التخطيط المادي**». وهذه الأبحاث زودتني بمعلومات وافرة عن المنشآت العمرانية الدينية والمدنية داخل المدينة الإسلامية، وقد كان جلّ اهتمامي منصباً حول العمائر التجارية المختلفة حيث عرفت مواقعها داخل المدينة،والسبب وراء ذلك.

٣) ومنها كتاب «**أحياء حلب وأسواقها**»،لمؤلفه خير الدين **الأسدي**، وهو كتاب هام في دراسة الجانب الحضاري لمدينة حلب، حيث رتب المؤلف مادته على حسب الحروف الهجائية فذكر أحياء حلب وخاناتها وأسواقها وحماماتها وغيرها من المعالم العمرانية.

٧- سبقت ترجمته في ص٤ .

٤) ومنها كتاب «**طرق التجارة الدولة ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)**»،لنعيم زكي **فهمي**. وقد استفدت من هذا المرجع في معظم فصول هذا البحث،وبخاصة عند الحديث عن الأسواق غير الدائمة، والعمائر المكملة للأسواق، والعوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً وسلباً. وتكمن أهمية هذا الكتاب بأن مؤلفه قد استقى مادته من مصادر كان من المتعذر علينا الوصول اليها مثل الوثائق المحفوظة في دور الأراشيف في الدول الأجنبية، بالإضافة إلى اطلاعه على العديد من الدراسات الإجنبية المختلفة.

الفصل الأول

الأســـــواق الدائمـــة

توطئة

١. التعريف بالسوق

٢. موقع الأسواق داخل المدينة الاسلامية

أ- أسواق المدن غير الساحلية:

١. أسواق دمشق

٢. أسواق حلب

٣. أسواق حماة

٤. أسواق حمص

٥. أسواق القدس

٦. أسواق الرملة والخليل

٧. أسواق نابلس وبيت لحم

٨. أسواق عجلون

ب- أسواق المدن الساحلية

١. أسواق طرابلس

٢. أسواق بيروت

٣. أسواق عكا

جـ- أسواق في مدن شامية أخرى

- ملاحظات عامة حول أسواق بلاد الشام

توطئة

أ. التعريف بالسوق

السوق كلمة آرامية اطلقت على أسماء الشوارع والاماكن[١]، وهي في اللغة العربية تعني موضع المبيعات، وهي تذكر وتؤنث، وجمعها أسواق[٢]. واصطلاحاً تعني الموسم، وهو الموضع المحدد الذي يؤمه الناس في زمن معين من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معاً[٣]. وفي العرف العام تطلق على المكان الذي يجتمع فيه الناس من أجل الشراء أو البيع أو كلاهما معا دون تحديد للزمان أو المكان[٤]، ولا لنوع البضاعة المتواجدة في ذلك المكان، سواء كانت ضرورية أم كمالية[٥].

والأسواق نوعان دائم، وغير دائم، فالدائم محلي ثابت لم يخضع لزمن معين حيث كان ينصب للبيع والشراء في كل يوم. أما الثاني فكان يخصص لإقامته وقت من العام أو الاسبوع، وكان يقام في الغالب خارج اسوار المدينة، وقد ضم هذا النوع من الأسواق عدة انماط من الأسواق مثل الأسواق الموسمية، والسنوية، والاسبوعية، والأسواق المرافقة للجيش، واخيراً الأسواق الطارئة وقت الضرورة[٦].

١- دائرة المعارف الاسلامية، م١٢، ص ٣٨٠.

٢- إبن منظور، لسان العرب المحيط، ١٥ مجلداً، دار صادر، بيروت، (د. ت)، مادة سوق، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: إبن منظور، لسان العرب.

٣- بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، م١، ص ٢٣٥.
وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البستاني، المعارف.

٤- المرجع نفسه، م١، ص ٢٣٥.

٥- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (وهو الجزء الاول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر)، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م ، ص ٢٢٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن خلدون، المقدمة.

٦- انظر الفصل الثاني الاسواق غير الدائمة.

ب. موقع الاسواق داخل المدينة الاسلامية:

يرجع اقامة الاسواق الدائمة في بلاد الشام إلى عصور قديمة كالعصر اليوناني والهلنستي والروماني،حيث اقيمت في الساحة العمومية للمدينة، وحول المعابد، والكنائس، والقصور، ثم انتشرت فيما بعد في كل مكان. وليس من السهل معرفة تاريخ ذلك الانتشار، ولكن يبدو أن اتساع المدينة كان عاملاً هاماً في انتشار التجارة في كل ركن من أركان المدينة[٧].

وفي العصور الوسطى اثر العرب تاثيراً واضحاً في الأسواق،إذ نقلوا معهم عند فتحهم للبلاد صورة لأسواقهم التي عرفوها في جزيرتهم العربية منذ الجاهلية، ولم يكن لهذه الأسواق اسوار تحددها وانما تركوها دون بناء، وحتى عند بناء الامصار فقد ظلت هي الاخرى دون بناء لأسواقها حيث أوضح عمر بن الخطاب ذلك بقوله: "الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته، ويفرغ من بيعه" [٨]، كما اكد علي بن ابي طالب على ذلك بقوله: "سوق المسلمين كمصلى المسلمين، من سبق إلى شيء فهو له حتى يدعه يومه" [٩]. إلاّ ان ذلك لم يستمر طويلا ففي خلافة معاوية بن ابي سفيان (٦٦١/٤١ - ٦٨٠/٦٠ هـ/م) كانت المحاولات الأولى لبناء الأسواق، إذ شيدت دارين في المدينة المنورة قامت بدور الأسواق، الدار

٧- جان سوفاجية، دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م ، ص ٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: سوفاجية، دمشق؛ بشير زهدي، بناء المدن السورية، وتخطيطها في العهد الهلنستي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م ٤-٥، ١٩٥٤-١٩٥٥م، ص ٤٧-٤٨ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زهدي، المدن السورية ؛ ناصر الرباط، مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق من القرن السابع حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م ٣٨ - ٣٩، ١٩٨٨ - ١٩٨٩، ص ٧٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الرباط، تطور السوق.

٨- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ٤٥ - ٤٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ الرسل.

٩- ابن سلام، كتاب الاموال، تحقيق محمد خليل هراس،مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٠٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن سلام، الاموال.

الاولى سميت "بدار القطران" أما الاخرى فعرفت "بدار النقصان" [١٠]. كما غطيت الأسواق في مدينة الكوفة بحصائر الغاب المعمولة فيها وذلك قبيل انتهاء النصف الاول من القرن الاول الهجري/السابع الميلادي [١١].

ومع كل ذلك لم تأخذ الأسواق شكلها الطبيعي إلاّ على يد الوالي خالد بن عبدالله القسري (١٠٥/٧٢٣-١٢٠هـ/٧٣٧م) في العراق، حيث بنى الأسواق في مدينة الكوفة "وجعل سقوفها ازاجاً معقودة بالآجر والجص" [١٢]بعد أن كانت مظللة بالحصر [١٣].

هذا وقد راعى المسلمون في اختيار وسط المدينة كموضع مناسب لاقامة الأسواق حيث مثلت احدى المراكز الاساسية للحياة العامة في المدينة بعد الجامع ودار الامارة، فأقيمت حولهما ولا سيما الجامع، ولعل السبب في ذلك أن الجامع يمثل بؤرة التجمع في المدينة وملتقى الطرق الرئيسة[١٤]، فلا غرابة إذاً إن عرفت بعض المساجد باسماء الاسواق مثل مسجد الرماحين، ومسجد الخشابين، ومسجد الصفارين في دمشق[١٥] وغيرها من المساجد الاخرى، كما ارتبطت الأسواق بالمساجد ايضاً من

١٠- السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ٢ جزء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م، ج٢، ص ٧٤٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السمهودي، وفاء الوفاء.

١١- عبد العزيز الدوري، المؤسسات الحكومية بحث في كتاب "المدينة الاسلامية" ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص ٥٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الدوري، المؤسسات الحكومية.

١٢- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص ٤٠٢، وسيشار إليه فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

١٣- عبد العزيز الدوري، نشوء الاصناف والحرف في الاسلام، مستل من مجلة كلية الاداب، بغداد، ع١، حزيران، ١٩٥٩، ص ٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الدوري، الاصناف.

١٤- المرجع نفسه، ص ٢-٣، ٥.

١٥- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)، نشر وتحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦، ص ٩٥، ١٠٣، ١١٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شداد، الأعلاق، دمشق.

خلال المساجد المعلقة التي ظهرت في العصور الوسطى، وكانت عبارة عن مبنى مكون من طابقين، الارضي كان سوقاً، والعلوي مسجداً[١٦]، ولدينا في بلاد الشام امثلة على هذا النمط من الأسواق كانت تتواجد في كل من دمشق[١٧]، وحلب[١٨].

وقد جاء تنظيم تلك الأسواق في مدن الشام[١٩] غير بعيد عن أسواق المدن الاسلامية الاخرى،بحيث اختص كل سوق ببيع أو صنع سلعة واحدة دون غيرها من السلع الاخرى. وقد جاء ترتيبها على النحو التالي:

فأقرب الأسواق إلى الجامع كانت أسواق الشماعين، وذلك لحاجة الجامع إلى الأضاءة بالشموع، وخاصة اثناء الليل، وبعدها كان يأتي سوق العطارين، والطيبين باعة البخور من أجل تعطير وتبخير الجامع، وهناك ايضاً سوق القباقبية لاجل

١٦- عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الاسلامية، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م، ص ١٥٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الريحاوي، العمارة.

١٧- انظر ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (م٢، ق١، خطط دمشق) تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م جـ ٢، ص ٦٣، ٦٥-٦٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عساكر، دمشق، ابن شداد، الأعلاق، دمشق، ص ١١٧.

١٨- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (جـ١، ق١)، تحقيق دومسيك سورديل، المعهد الفرنسي للدرسات العربية بدمشق، ١٩٥٣، جـ١ ، ق١، ص١٤٦، ١٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شداد الأعلاق، جـ١ ، ق١ .

١٩- الشام: بسكون الهمزة أو فتحها، وتلفظ كذلك بغير همزة، قيل معناها الطيب، وقد تعددت الآراء في سبب هذه التسمية، منها أنها نسبة إلى اليد الشوامى وهي اليسرى، وربما سميت أيضاً لكثرة قراها، وتقارب بعضها من بعض فشبهت بالشامات، وقد تكون أيضاً لوجود شامات في أرض الشام كالأبيض والأسود والأحمر، أي أن بها أراض ونبات بحسب هذه الالوان وقيل غير ذلك. أما حدود الشام فهي أربعة، فمن الغرب بحر الروم (البحر المتوسط)، ومن الشرق البادية من أيلة (العقبة) إلى الفرات، ومن الجنوب المنطقة الواقعة بين رفح أو العريش وبالس، وأخيراً يحدها من الشمال بلاد الروم، أما اليوم فيطلق لفظ الشام على دمشق عاصمة سوريا. أنظر: ياقوت، معجم البلدان، ٥أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٣، ص٣١١-٣١٢. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم البلدان؛ ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٢٤-٢٢٥. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، المصطلح؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي وعالم التراث، دمشق، ١٩٨٤، ص٨. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن الشحنة، الدر المنتخب.

الوضوء، ثم سوق العدول المأذونيين لان عقود النكاح كانت تتم بالجامع، ثم سوق الكتب، فالجوامع كانت عبارة عن مدارس يخرج منها الطلاب، ثم تتابع الأسواق في البعد عن مركز المدينة والجامع، فتبتعد أسواق الدباغين، والصباغين، والسراجين، والحدادين، والنجارين عن الجامع، وذلك حرصاً على راحة المصلين[٢٠].

كما اقيمت بعض الأسواق قرب بعض المراكز المدنية كالقلعة مثلاً، حيث وصل عددها في دمشق إلى أكثر من عشرين سوقاً كانت متواجدة بحذاء القلعة، ومرتبة حسب حاجتها مثل سوق الخيل، وسوق السلاح، وسوق السروجين وغيرها من الأسواق الاخرى التي كانت تلبي حاجة الجيش[٢١].

كما عرفت بلاد الشام ايضا انواعاً أخرى من المنشآت التجارية لم يقل دورها عن الأسواق، وتمثل ذلك بالقياسر، والوكالات أو دور الطعم، والفنادق، والخانات، وغيرها من العمائر الاخرى، حيث جاء توزيعها على سائر انحاء المدينة[٢٢].

٢٠- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الامصار، وعجائب الاسفار"، ٢ جزء، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م، جـ١، ص١٠٦-١٠٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، الرحلة؛ إبن المبرد، نزهة الرفاق، ص٧٤، ٧٥، ٧٩.

٢١- ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٦، ص ٦٣، البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البدري، نزهة الانام.

٢٢- انظر الفصل الثالث العمائر المكملة للاسواق.

أ – أسواق المدن غير الساحلية:

١. أسواق دمشق:

تعدّ مدينة دمشق من أهم المدن التجارية في بلاد الشام، حيث شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً في العصر المملوكي، ودلّ على ذلك هذا العدد الكبير من الأسواق والتي بلغ عددها في أواخر عصر المماليك اكثر من مائة واربعين سوقاً تقريباً[٢٣]، ذكر منها إبن عساكر[٢٤] اكثر من ثلاثين سوقاً من اصل ثمانية واربعين سوقاً كانت قائمة في بداية الدولة الايوبية، أما الباقي، فيبدو انه اندثر أو تغير اسمه وهو ما سنتحدث عنه في موضعه.

وقد اعتمدنا اعتماداً يكاد يكون كلياً في دراستنا لأسواق دمشق في العصر المملوكي على مصدر متخصص في هذا المجال وهو "نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق"، لصاحبه ابن المبرد، إذ خصص حديثه عن أسواق دمشق فقط، فذكر معظمها باستثناء عدد قليل عثرنا عليها في المصادر الاخرى، ومهما يكن من أمر فان إبن المبرد يعتبر من أفضل من كتب في هذا المجال عن مدينة دمشق بالرغم من عدم ذكره لاصل تلك الأسواق، ومن شيدها، وزمان بنائها.

وعلى أي حال فأن أسواق دمشق لم يختلف ترتيبها عن أسواق المدن الأخرى من حيث احاطتها للمسجد الجامع كاحاطة السوار بالمعصم، كما اقيم كثير منها تحت القلعة، والتي كانت تمثل المركز المدني للمدينة. أما باقي الأسواق الأخرى، فتوزعت قرب الابواب الرئيسة للمدينة، وسائر الخطط الأخرى.

يتضح من خلال هذه المقدمة المختصرة أن المجال يضيق عن تتبع كل سوق من هذه الأسواق في مدينة كدمشق مثلاً، لذا فقد ارتأينا أن نقسم الأسواق في دمشق بحسب نوع البضاعة الموجودة في كل سوق، بمعنى وضع أسواق السلع الغذائية في مجموعة، وأسواق الملابس وملحقاتها في مجموعة ثانية، وأسواق الزينة والتجميل في مجموعة ثالثة، وهكذا.

٢٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٢-٢٧.

٢٤- ابن عساكر، دمشق، جـ٢. ص ٢٢٧-٢٢٩.

أ أسواق المواد الغذائية

انتشرت أسواق المواد الغذائية في مختلف انحاء المدينة، وهو أمر كان يتمشى بالضرورة مع توزيع الكثافة السكانية. ومن هذه الأسواق:

سوق القمح: ويعدّ من أقدم الأسواق في دمشق، وكان يقع جنوب الجامع الاموي، قرب حمام نور الدين زنكي، وحول مسجده ايضاً[٢٥]. وقد غلب عليه في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي اسم سوق البزورية[٢٦]. ويبدو انه انتقل فيما بعد إلى ميدان الحصا، حيث ورد ذكره ثانية عند ابن المبرد[٢٧] في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

سوق الدقاقين والحبوبية[٢٨]: وموقعهما كان عند باب الجابية، فالأول اختص ببيع الدقيق، والثاني بالحبوب[٢٩].

سوق اللحامين: وكان مركزه الرئيس بباب الجابية، وهناك قسم آخر من باعته تفرقوا في عامة الأسواق[٣٠].

أما الطباخين، فكان لهم سوق عرف بهم، وفي الوقت نفسه كانوا موزعين في نواحي المدينة[٣١].

٢٥- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٢٩.

٢٦- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٣٨. انظر سوق البزورية في هذا الفصل ص٦١.

٢٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٨.

٢٨- الحبوبية: ويعرف بائعها بالحبوباني نسبة لمن يبيع الحبوب بانواعها مثل الحمص، والفول، والعدس، والقنبس، وما شابه ذلك. انظر محمد سعيد القاسمي وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، ٢جزء، تحقيق ظافر القاسمي، ط١، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨، جـ١، ص ٩١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القاسمي، قاموس الصناعات.

٢٩- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٨، ٧٩.

٣٠- المصدر نفسه، ص ٨٠.

٣١- المصدر نفسه، المشرق، ص ٢٦.

سوق دار البطيخ[٣٢]: وكان يباع فيها البطيخ في البداية، وفيما بعد بيع فيها سائر أصناف الفواكة[٣٣]. وموقعها كان تحت القلعة[٣٤]، عليها مسجد معلق يصعد اليه بدرج[٣٥].

وعند باب الفرج وجد سوقان، أحدهما كان لبيع الخضر سيما البقل منها، والآخر اختص ببيع الحلاوة الصابونية[٣٦]. كما وجد سوق ثالث لبيع الفاكهة في صالحية دمشق، حيث عدّ من أكبر أسواقها على الاطلاق[٣٧].

سوق القضمانيين[٣٨]: وكانت تصنع فيه القضامة[٣٩]، ولم يحدد ابن المبرد موقعه، وانما اكتفى بالقول: "وخلف القضمانيين مسجد كبير فيه شجر وبركة عند بابه"[٤٠].

سوق السكريين: اختص ببيع السكر، وكان يقع تحت سوق البزوريين[٤١].

٣٢- دار البطيخ: وهي عبارة عن مخازن كبيرة او خانات كبيرة. انظر آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، او عصر النهضة في الاسلام، ٢جزء، تعريب محمد عبدالهادي، ط٥، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، (د.ت) جـ٢، ص ٣٨٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: متز، الحضارة.

٣٣- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ٢٧٣؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١؛ حبيب زيات، دور البطيخ ببغداد ودمشق، مجلة المشرق، ع٢٧، ١٩٢٩م، ص ٧٦١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زيات، دور البطيخ.

٣٤- البدري، نزهة الانام، ص ٣٦.

٣٥- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٠٢.

٣٦- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

٣٧- المصدر نفسه، ص ٢٧؛ ابن كنان، المروج السندسية الفسيحة في تلخيص الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان، مطبوعات مديرية الآثار القديمة العامة، دمشق، ١٤٧، ص ٣٢. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن كنان ، المروج السندسية.

٣٨- القضمانيين: وهم صانعوا القضامة التي هي من الحمص المقلي على النار، والقضامة انواع منها ما يعرف بالصفراء والملحة والمغبرة. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٣٥٦.

٣٩- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧.

٤٠- ابن المبرد، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٩٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، ثمار المقاصد.

٤١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٦.

سوق البقسماطية[٤٢]،ومركزه كان تحت القلعة[٤٣].

التنورية[٤٤]: وكانوا موزعين، وأفضلهم من كان بجسر الزلابية عند باب الجابية[٤٥].

الشراباتية[٤٦]: وكانوا موزعين مع الفقاعية[٤٧]، والاقسماوية[٤٨] في عدة أماكن داخل المدينة[٤٩].

سوق الحلوانيين: وكان يقع بالقرب من جامع السلطان[٥٠].

سوق المویاتية: ولهم سوقان أحدهما كان بباب الجابية، والآخر بالنقلية[٥١].

٤٢- البقسماطية: نسبة الى صانعي البقسماط او البقصماط بمعنى الخبز المجفف او اليابس، انظر خير الدين الاسدي، موسوعة حلب المقارنة، ط١، مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤م، م٢، ص ١٥٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاسدي، الموسوعة.

٤٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

٤٤- التنورية: وهم صانعوا التنور أي الخبز والكعك. انظر الاسدي، الموسوعة، جـ٢، ص ٤٢٩.

٤٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

٤٦- الشراباتية: يبدو انهم كانوا ينسبون الى صانعي الشربات، ولذا قيل لمن يعمل بهذه المهنة. "الشرباتي". والشربة: اناء للماء يصنع من التراب بعد عجنه بالماء، وحرقه على النار، وكان يستخدم في الصيف بكثرة لاحتفاظه ببرودة الماء فيه. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٢٥٢.

٤٧- الفقاعية: عرفوا بذلك لاتخاذهم شراباً من الشعير حيث يكون على سطحه زبد. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة فقع.

٤٨- الاقسماوية: اقسما بفتح الهمزة، وسكون القاف، وكسر السين، نقيع الزبيب معروف بهذا الاسم وهو معرب عن الرومية، وهو في الاصل يصنع من مزيج العسل والنحل والماء. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧، حاشية رقم (٢).

٤٩- المصدر نفسه، ص ٢٤، ٢٧.

٥٠- جامع السلطان: لم نتوصل الى معرفة مكانه وإلى أي سلطان ينسب. المصدر نفسه، ص ٢٦.

٥١- النقلية: تقع جنوبي خان السلطان القريب من باب الجابية. انظر ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢ جزء، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٤م، جـ٢، ص ٣٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، مفاكهة الخلان.

ويستبعد زيات ان يكون لهذين السوقين صلة ببيع الماء بسبب كثرة المياه في دمشق وايصالها لجميع المنازل[٥٢]. لكن ما قصد هنا ليس ذلك، فعلى ما يبدو ان هذه المياه التي كانت تباع في هذين السوقين هي مياه نقية وصحية، وذلك بناء على ما ذكره السبكي من ان بعض الناس كان ينقل الماء من نهر ثورا أو باناس ويبيعها لطائفة معينة من الناس[٥٣].

كذلك ذكر ابن طولون سوقاً اختص ببيع البصل إلاّ انه لم يحدد موقعه[٥٤].

ب. أسواق الملابس ومحتوياتها

منها: سوق الذراع[٥٥]: وكان موقعه قرب الجامع الاموي من جهة الغرب، واختص ببيع البز من الحرير والكتان، والملابس الجيدة والممتازة[٥٦]. وهناك سوقان آخران حملا نفس الاسم أحدهما كان مركزه بالنقلية، والآخر تحت القلعة. وقد اهتما ببيع القماش، ولكن باقل جودة من السوق الاول[٥٧].

سوق الحرير[٥٨]: ومحله كان بحذاء الباب الجنوبي للجامع الاموي، واقتصر على بيع الحرير[٥٩].

٥٢- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦. حاشية رقم (١).

٥٣- السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط١، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٨م، ص ٦٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السبكي، معيد النعم.

٥٤- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٠٧.

٥٥- سوق الذراع: لعل السبب في هذه التسمية ان القماش كان يباع بالذراع. انظر الفصل السادس، ص٢١٧.

٥٦- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٣.

٥٧- المصدر نفسه، المشرق، ص ٢٦.

٥٨- زال هذا السوق، وهناك بالقرب منه سوق يحمل نفس الاسم تباع فيه أدوات الزينة، وبعض حليّ النساء ونحو ذلك. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤، حاشية رقم (٧).

٥٩- المصدر نفسه، ص ٧٤.

سوق جقمق: عرف بذلك نسبة إلى بانيه جقمق، ومركزه كان إلى الغرب من التكة [٦٠]، واهتم ببيع الثياب والبز، ولكن باقل جودة مما كان يباع بسوق الذراع [٦١].

سوق العبيين [٦٢]: وكان لهم سوقان في اسفل سوق البزوريين، وعندما يتعطل واحد منهما كان اصحابه ينقلون انفسهم إلى السوق الآخر [٦٣].

سوق الدقاقين [٦٤]: عرف بذلك نسبة لمن كانوا يدقون الثياب فيه، وكان لهم سوقان، أحدهما عند باب الخضر (حول الجامع الاموي)، والآخر عند سوق العبي تحت سوق البزورية [٦٥].

سوق الابارين [٦٦]: ولهم ايضاً سوقان، واحد عند باب الفرج، والآخر غربي البزوريين [٦٧].

٦٠- التكة: تقع في الجنوب الغربي للجامع الاموي قرب سوق مدحت باشا. انظر عبدالقادر الريحاوي، خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م٢٥، ١٩٧٥م، ص ٥٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الريحاوي، خانات دمشق.

٦١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧.

٦٢- العبيين: وهم صانعوا الألبسة الواسعة التي تحتوي على خطوط سود كبار. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة عبا.

٦٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٦.

٦٤- الدقاقين: ومفردها دقاق، وكان يطلق غالباً على من يدق اثواب الحرير، واثواب القطن، وكانت الطريقة تتم بغسل قطعة الحرير أو القطن بعد صنعها لازالة اثر النشا عنها، ثم يأخذها الدقاق فيبخها بالماء بواسطة فمه، ثم يطويها شيئاً فشيئاً، ويدقها بخفة بآلة خشبية ثقيلة تعرف "بالمدقة" ثم يثنيها طيا، وتدق اخر طية دقاً محكماً بغير شدة، فيظهر بعد ذلك حسن لونها، وجمال تموجها مع البريق اللمعان، انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ١، ص ١٤٤.

٦٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٩.

٦٦- الابارين: وهم صانعوا الإبر المتنوعة والمسلات والسنارات وغيرها للخياطة والاعمال المتنوعة. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٢١٥.

٦٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

سوق الجوخيين[٦٨]: واختص ببيع الجوخ عند الكتة[٦٩].

سوق الشيخي: وكان يقع في الشاغور[٧٠] وقد اختص هذا السوق ببيع الملابس القديمة [٧١]. كما وجد سوق آخر عُني ببيع هذا الصنف من الملابس، وكان يقع قرب القلعة، وعرف بسوق البيمارستان أو سوق قُميلة أو سوق برا، وهذه الأسواق كانت في البداية متخصصة في بيع الجواري والرقيق (الخلقان) [٧٢] ، ثم ربما تحولت فيما بعد إلى العناية بالأقمشة القديمة.

سوق السقطية[٧٣]: وكان لهم سوقان[٧٤] تحت القلعة، أحدهما في النحاسين، والآخر في فضاء تحت القلعة[٧٥].

سوق الفرايين: وكان لهم ثلاثة أسواق، أحدهما للفراء النفيسة، والآخر للفراء الحمر[٧٦]، أما الثالث، فاهتم بالفراء الخشنة، ولا نعرف شيئاً عن موقع هذه الأسواق باستثناء الثالث منها، والذي كان موضعه قرب باب الحديد احد ابوب القلعة[٧٧].

٦٨- لم يعد لهذا السوق اليوم وجود. وموقعه القديم كان في سوق مدحت باشا. انظر ابن المبرد نزهة الرفاق، ص ٧٦. حاشية رقم (٨).

٦٩- المصدر نفسه، ص ٧٦.

٧٠- الشاغور: بالغين المعجمة، محلة تقع قرب الباب الصغير، أنظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص٣١٠.

٧١- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص٢٠٥.

٧٢- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص٢٤، ٢٦؛ اكرم حسن العلبي، خطط دمشق (دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام، من سنة ٤٠٠-١٤٠٠هـ)، ط١، دار الطباع، دمشق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٤٥٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العلبي، خطط دمشق.

٧٣- السقطيون، جمع سقطي، وتطلق على بائع السقط أي ردى المتاع. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سقط.

٧٤- زال هذان السوقان. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١ حاشية رقم (٢).

٧٥- المصدر نفسه، ص ٨١.

٧٦- المصدر نفسه، ص ٧٧.

٧٧- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢١٧.

سوق القطانيين[٧٨]: ومركزه كان اسفل سوق جقمق، واهتم ببيع القطن فقط[٧٩]. كما وجد في صالحية دمشق سوقان آخران لبيع القطن، عرف أحدهما بسوق القطن، والآخر بسوق القطانين[٨٠].

سوق الكوفيين[٨١]: وموقعه كان بالقرب من باب البريد[٨٢].

سوق الخلعيين[٨٣]: وموضعه كان بالقرب من باب الحديد[٨٤].

سوق الدهشة[٨٥]: ووجد في دمشق ثلاثة منها، اثنتان للرجال[٨٦] وواحدة للنساء[٨٧]. واهتمت هاتان الدهشتان بالملابس والامتعة، ولا سيما دهشة النساء التي حوت على لوازم النساء من الثياب الرفيعة والنفيسة، وكان موقعها شرقي الجامع الاموي[٨٨].

٧٨- ما زال هذا السوق موجود الى اليوم، ويعرف بسوق القطن، انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧. حاشية رقم (٥).

٧٩- المصدر نفسه، ص ٧٧.

٨٠- ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ٢ قسم، تحقيق محمد احمد دهمان، ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٠م، ق١، ص٣١٠، ٣٥٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، القلائد الجوهرية.

٨١- الكوفيين: جمع كوف، وهي أغطية للرأس تعمل من القطن، وتوضع تحت العقال. وهذا السوق قد زال، ولم يعد له اليوم وجود. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤، حاشية رقم (٦).

٨٢- المصدر نفسه، ص ٧٤.

٨٣- الخلعيين: من خلع الشيء أي نزعة، والخلعة من الثياب بمعنى الملابس المستعملة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خلع.

٨٤- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢١٧.

٨٥- الدهشة: اصلها قيسارية أو خان أو وكالة يهتم في تحسينها حتى تصبح دهشة. انظر محمد احمد دهمان، ولاة دمشق، في عهد المماليك، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م، ص ٢٢٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دهمان، ولاة دمشق.

٨٦- ابن صصري، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، عنى بتحقيقه وترجمته ونشره. وليم م، بريز، مكتبة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٦٣م، ص ١١٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن صصري، الدرة المضيئة.

٨٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤.

٨٨- المصدر نفسه، ص ٧٤.

سوق الغزل[٨٩] العتيق: ومركزه كان في الجهة الشمالية للمدينة على يمين الداخل من الباب الشرقي[٩٠].

سوق الازرار: وسوق الكتان، وموقعهما كانا بالقرب من باب البريد[٩١].

سوق الخياطين: ومكانه كان في رأس سوق برا الكائن تحت القلعة[٩٢].

سوق الأدميين والحور[٩٣]: ومحله كان بباب الفراديس[٩٤].

سوق القلانسيين[٩٥]: وموضعه كان بالقرب من سوق القطانين[٩٦].

جـ. أسواق الاحذية ومستلزماتها

منها: سوق الاخفافين[٩٧]: وكان يقع في رأس الرصيف[٩٨]، ولعله نفس السوق

٨٩- الغزل: وغالباً ما كان يصنع من الصوف، وعرف صانعه بالمغزل .انظر: القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٣٢٨.

٩٠- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١١٢؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٨٠.

٩١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

٩٢- المصدر نفسه، ص ٢٥.

٩٣- الأدميين: هم باعة الاديم أي الجلد المدبوغ، ويجمع عن أدم، والحور جلد احمر من جلود الضأن انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة أدم ومادة حور.

٩٤- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

٩٥- القلانسيين: عرفوا بذلك نسبة إلى صنعتهم القلسوة أو القلنسوة التي هي من ملابس الرأس، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة قلس.

٩٦- ابن عساكر، دمشق، جـ٢، ص ٢٢٩؛ ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ٩٣؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٦٢، ٩٧.

٩٧- الاخفافين: مفرد خف وهو ما يلبس بالقدم من الاحذية الخفيفة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خفف.

٩٨- الرصيف: ويقع عند باب البريد، انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٥.

الذي ذكر من قبل باسم سوق الاكافيين[٩٩] أو الاكافين[١٠٠].

سوق السراميجين[١٠١]: ومركزه كان غربي الجامع الاموي عند البيمارستان العتيق[١٠٢].

سوق السيوريين[١٠٣]: ومحله كان تحت سوق العنبرانيين[١٠٤]، واقتصر عمله على صناعة وبيع السيور[١٠٥].

سوق القباقبية[١٠٦]: وكان يوجد شمالي الجامع الاموي في داخل باب الفراديس[١٠٧].

د. أسواق التزين والحليّ وتوابعها

منها: سوق الذهبيين[١٠٨]: ومحله كان شرقي سوق الذراع، واقتصر على بيع

٩٩- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ٩٩؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٦٥.

١٠٠- ابن عساكر، دمشق، جـ٢، ص ٢٢٧.

١٠١- السراميجين: اختص ببيع الاحذية دون صنعها. اكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة العربية المتحدة، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٥١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العلبي، دمشق.

١٠٢- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤.

١٠٣- السيوريين: ومفردها سيوري، نسبة لمن يبيع السيوره المعدة لصناعة القباقيب، وهي تصنع من الجلد، ويخاط لها بطانة ثم يتم بيعها للقباقبية، وكان هذا السوق قد زال ولم يعد له وجود الآن. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٥، حاشية رقم (٥)؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص٢٤٢.

١٠٤- سوق العنبرانيين: موقعه كان بالقرب من الباب الجنوبي للجامع الاموي، انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤.

١٠٥- المصدر نفسه، ص ٧٥.

١٠٦- القباقبية: وهم صانعوا القباقب المعمولة من خشب الصفصاف والجوز، فكانوا يقصونه حسب القدم، ثم يدقون به السير. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٣٤٨.

١٠٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

١٠٨- الذهبيين: جمع ذهبي وهو يطلق على من يبيع ويتجر بالذهب. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ١٥١.

الذهب المرقوق وما يتعلق بذلك[١٠٩].

الصاغة[١١٠]: وهما سوقان، أحدهما عرف بالصاغة الجوانية، وكان يباع فيها اللؤلؤ والجواهر وما يتعلق بذلك، والآخر سمى بالصاغة البرانية، وكان يصنع فيها الخواتم والاساور ونحو ذلك[١١١].

سوق اللؤلؤ: عليه مسجد معلق[١١٢]، ويبدو كما هو ظاهر من اسمه قد اختص ببيع اللؤلؤ والجواهر النفيسة وما شاكل ذلك.

سوق الطيبين[١١٣]: ومركزه كان بالقرب من الجامع الاموي من جهة الغرب عند باب البريد[١١٤]، من أجل تلبية حاجة المسلمين بالذات من الطيب أو العطور التي حث الاسلام المسلم على استعمالها[١١٥].

سوق العنبرانيين[١١٦]: وموقعه كان بحذاء الباب الجنوبي للجامع الاموي[١١٧]، من أجل سد حاجة الجامع بالذات من العنبر، ليبقى دوماً طيب الرائحة.

١٠٩- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٣.

١١٠- الصاغة والعامل فيها يسمى صائغ لكونه يعمل في الذهب والفضة ونحوهما اذ يغيرها من حالة الى اخرى، وذلك حسب رغبة طالبه. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٢٦٤.

١١١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٥.

١١٢- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٠١، ١١٦؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٦٨-٦٩، ٨٤.

١١٣- زال هذا السوق. أنظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤، حاشية رقم (٧).

١١٤- المصدر نفسه، ص ٧٤.

١١٥- سورة المدثر، آية ٤.

١١٦- زال هذا السوق، انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤ حاشية رقم (٣).

١١٧- المصدر نفسه، ص ٧٤.

سوق الزهوريين[١١٨]: ولم يكن لهؤلاء سوق معين، بل كانوا موزعين على كل باب من ابواب المدينة حيث يوجد دكان لبيع الزهور[١١٩].

سوق الخريزاتيين[١٢٠]: وكان لهم سوقان، أحدهما في باب البريد، والآخر اسفل سوق البزوريين[١٢١].

سوق الرسامين[١٢٢]: وكان يقع بين سوق العنبرانيين والسراميجين[١٢٣].

سوق التواسيم[١٢٤]: ومحله كان بباب الفرج[١٢٥].

سوق الطواقين[١٢٦]: وموضعه كان خلف سوق البزوريين من ناحية الغرب[١٢٧].

١١٨- الزهوريين: وهم باعة الزهور بانواعها، مثل الورد والنسرين والعنبر وغيرها من الاشكال الاخرى. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ١، ص ٦٩.

١١٩- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٨.

١٢٠- الخريزاتيين: عرف بذلك لاهتمامه بالخرز، وهو عبارة عن فصوص من الحجارة. وقيل بل خياطة الأدم فكل ثقب في الأدم وخيطها تعرف بالخرز. وقد زال هذان السوقان، ولم يعد لهما اليوم وجود. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خرز؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٦، حاشية رقم (٢).

١٢١- المصدر نفسه، ص ٧٦.

١٢٢- الرسامين: ومفردها رسام، ويطلق على من يرسم القماش المنسوج بانواعه، أي يطبعه بطابع بواسطة قالب من خشب محفور عليه مختلف الاشكال بحسب رغبة طالبه. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ١، ص ١٥٤.

١٢٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤.

١٢٤- التواسيم: مصدر وسم وهي العلامة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة وسم.

١٢٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

١٢٦- الطواقين: مصدر طوق وهو الحليّ حيث يوضع حول العنق. انظر ابن المنظور، لسان العرب، مادة طوق.

١٢٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣.

هـ. أسواق الحيوانات والطيور وما يتعلق بهما:

منها: سوق الخيل: ومركزه كان تحت القلعة[١٢٨]، وهو يعد من أهم أسواق دمشق في العصر المملوكي، حيث مدّ الدولة بالاموال وبوسيلة النقل التي هي الركيزة الاولى التي كان يستند اليها الجيش[١٢٩].

سوق السروجين[١٣٠]: ومحله كان يقع غربي القلعة، واقتصر على بيع السروج ولوازم الخيل[١٣١]، كما وجد سوق آخر قام بنفس الدور الذي لعبه سوق السروجين، وقد عرف بسوق السرايجية، ولم يكن لاصحابه مكان محدد في المدينة، بل كانوا موزعين في سائر انحاء المدينة، إلاّ ان افضلهم من كان قرب القلعة[١٣٢].

سوق الهوى: ومكانه قرب باب دار السعادة، حيث عني هو الآخر ببيع معدات الخيل[١٣٣].

سوق البراذعية[١٣٤]: كان لهم سوقان احدهما بباب الجابية، والآخر بباب الفرج[١٣٥].

١٢٨- المصدر نفسه، ص ٨١.

١٢٩- نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦، ص ١٥٩-١٦٠. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: زيادة، دمشق.

١٣٠- السروجين: مفردها سرج وهو ما يوضع على الخيل للركوب فوقه، وهذا السوق لا يزال قائما حتى وقتنا الحاضر. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠، حاشية رقم (٣)؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ١٨٠.

١٣١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠.

١٣٢- المصدر نفسه، المشرق، ص ٢٧.

١٣٣- المصدر نفسه، ص٨٠

١٣٤- البراذعية: جمع برذع وهو الحلس الذي يوضع على الدابة، وبخاصة على الحمير. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة برذع.

١٣٥- المصدر نفسه، ص ٧٨.

سوق الرحال: ومحله كان تحت القلعة على جسر الحديد، حيث اختص بلوازم الجمال[١٣٦].

سوق الحمير: وموقعه كان هو الآخر تحت القلعة[١٣٧].

سوق الغنم[١٣٨]: وكان يوجد بين الباب الصغير وجسر المصلى[١٣٩].

سوق الطير[١٤٠]: ومركزه كان بالقرب من الباب الصغير، واختص ببيع الطيور وبخاصة طيور الصيد[١٤١].

سوق الدجاجين: وموقعه كان عند باب الجابية، وبالحدرة غربي القلعة[١٤٢].

سوق البياطرة[١٤٣]: ولم يكن لهؤلاء موضع محدد بل كانوا موزعين في جميع المدينة[١٤٤].

١٣٦- المصدر نفسه، المشرق، ص ٢٥.

١٣٧- المصدر نفسه، ص ٨١.

١٣٨- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٥٩؛ القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ٣ اجزاء، تحقيق عبد الستار احمد فراج، عالم الكتب، بيروت، (د. ت) جـ ٢، ص ٩٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر الانافة.

١٣٩- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص ٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.

١٤٠- ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٨٨؛ ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٠١.

١٤١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

١٤٢- المصدر نفسه، ص ٢٧.

١٤٣- البياطرة: هم أطباء الحيوانات، انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ٥٨.

١٤٤- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠.

و. أسواق الحدادة، والنجارة، والزجاج وما شاكلهم:

منها: سوق الحدادين[١٤٥]: وكان لهم سوقان، أحدهما بباب الجابية، والآخر بالشاغور[١٤٦].

سوق المسمارية[١٤٧]: ولهم أيضا سوقان، واحد كان تحت القلعة، والآخر في العلبية[١٤٨].

سوق السكاكينيين[١٤٩]: ومحله كان إلى الشمال الغربي من القلعة داخل سوق جسر الزلابية[١٥٠].

سوق الخراطين[١٥١]: وكان لهم سوقان، أحدهما كان جنوب القلعة إلى الجنوب من دار السعادة. أما الثاني، فكان بالقرب من سوق القشاشين[١٥٢].

١٤٥- الحدادين: جمع حداد، اطلق على من يطوع الحديد، وذلك بادخاله في الكور، والنفخ عليه بالكير حتى اذا اصبح كالجمر شكله كما يريد، وموضع هذا السوق قد زال. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٩ حاشية رقم (٣)؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ٩٣.

١٤٦- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١.

١٤٧- لم يعد لهذين السوقين اليوم وجود. انظرالمصدر نفسه، ص ٨١، حاشية رقم (٣).

١٤٨- المصدر نفسه، ص ٨١.

١٤٩- لم يعد لهذا السوق اليوم وجود انظر المصدر نفسه، ص ٨٠، حاشية رقم (٨).

١٥٠- المصدر نفسه، ص ٨٠.

١٥١- الخراطين: جمع خراط، وهذه الكلمة اطلقت على من كانوا يجهزون المواد الخشبية للصناعة، وذلك بتقشيرها وتنظيفها بواسطة آلة اعدت لهذا الغرض، ولم يعد لهذا السوق وجود الآن. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٩، حاشية رقم (٧)؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ١٢٢.

١٥٢- سوق القشاشين: يبدو أن هذا السوق كان مختصاً ببيع أو صنع المكانس التي ينظف بها المنازل وغيرها. وموقع هذا السوق غير معروف. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة قشش؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٩.

سوق النجارين[١٥٣]: وصناع هذا السوق كانوا موزعين داخل المدينة، فقسم منهم كان بالقرب من باب الصغير وبالسبعة[١٥٤]، واختص هؤلاء بنجارة عدة الحراثة، أما الآخرون فقد اهتموا بنجارة السكاكر والمفاتيح، وموضعهم كان إلى الأعلى من سوق البيمارستان[١٥٥]، كما ورد ذكر آخر لسوق النجارين في صالحية دمشق[١٥٦].

سوق الاخصاصيين[١٥٧]: عرف بذلك نسبة لصانعي الاخصاص والاقفاص، وما كان يتعلق بذلك، وكان موضع هذا السوق جنوب القلعة إلى الغرب من دار السعادة[١٥٨].

سوق الخشابين: مركزه كان خارج باب الصغير[١٥٩].

سوق العلبيين[١٦٠]: وموضعه قرب قنطرة أم حكيم ومسجد الطباخين[١٦١].

١٥٣- اندثر هذا السوق ولم يعد له اليوم وجود. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٩، حاشية رقم (٤).

١٥٤- السبعة كانت تقع شرقي مسجد القصب بالقرب من باب توما. انظر المصدر نفسه، ص ٧٩، حاشية رقم (٤).

١٥٥- المصدر نفسه، ص ٧٩.

١٥٦- ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٣٣٤.

١٥٧- الاخصاص: جمع خص وهو عبارة عن شباك خشبي فيه فتحات صغيرة مربعة كانت توضع على النوافذ لتطل من خلفها النسوة على الطريق دون ان يراهن احد. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خصص؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠، حاشية رقم (١).

١٥٨- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠.

١٥٩- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٣٦.

١٦٠- العلبيين: جمع علبي وهو "صانع الاواني الخشبية من علب ومجامع ومخامر وكيلات وغيرها". انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٣١٨.

١٦١- ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٢٨؛ ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٠٠.

سوق الدفوفين والطنابير[١٦٢]: ومحله كان بالقرب من سوق الاخصاصيين[١٦٣].

سوق الهواونية[١٦٤]: ومكانه كان قرب باب الفراديس[١٦٥].

سوق الأمشاطية[١٦٦]: ولهم سوقان أحدهما كان يقع جنوب سوق البزوريين قرب الخريزاتية، واختص بصناعة امشاط الترجيل، أما الآخر، فاقتصر على صناعة امشاط الحياكة، وموضعه كان إلى الشرق من خان السلطان[١٦٧]، والذي عرف ايضاً بخان ابن العسال[١٦٨].

سوق النحاسين[١٦٩]: وكان لهم ايضاً سوقان، واحد لبيع النحاس، ومحله كان تحت القلعة. أما الثاني، فاقتصر على صناعة النحاس فقط دون البيع، وكان موضعه قرب باب الفراديس[١٧٠]، وعلى يسار الخارج من دهليز الباب الجنوبي للمسجد الاموي

١٦٢- الدفوفيين والطنابير: اختص هذا السوق بصنع أو بيع الدُّف الذي تضرب به النسوة للتعبير عن الفرح. زال هذا السوق، ولم يعد له اليوم وجود. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة دفَّفَ ومادة طُنبر؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠ حاشية رقم (٢).

١٦٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨٠.

١٦٤- الهواونية: اطلقت على بائعي وصانعي الهوان. والهوان عبارة عن أداة مستطيلة ومدورة مدببة من الامام حيث استخدمت لتكسير الجوز واللوز ونحو ذلك، وكانت تصنع غالبا من النحاس بواسطة قوالب خاصة اعدت لذلك. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٣٧، ٤٩٢.

١٦٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

١٦٦- الامشاطية: اطلقت على صانعي الامشاط، وعرف صانعها "بالمشيطاني". وكانت تصنع عادة من خشب المشمش، واستخدمها الفلاحون لبخس ثمنها، كما اشترتها نساء دمشق لتفكيك شعورهن. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٤٤٤.

١٦٧- خان السلطان: موقعه كان خارج باب الجابية. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢١.

١٦٨- المصدر نفسه، ص ٧٩.

١٦٩- لا يزال الى اليوم سوق النحاسين يوجد بالقرب من باب الفراديس، اما الاخر فقد زال. انظر المصدر نفسه، ص ٨١ حاشية رقم (١).

١٧٠- المصدر نفسه، ص ٨١.

والذي عرف بباب الزيادة كان يوجد سوق آخر قام بتكملة الدور الذي كان يقوم به سوق النحاسين، وسمي هذا السوق بسوق الصفارين[١٧١]، حيث اعتنى بتنظيف الاواني النحاسية بمختلف اشكالها، وقد عدّه ابن بطوطة من أجمل اسواق دمشق قاطبة[١٧٢].

سوق القزازين: ومحله كان بالقرب من باب الفرج[١٧٣]، كما وجدت حوانيت أخرى لصناعة الزجاج وكان موضعها بالقرب من الباب الشرقي للجامع الاموي، حيث وصفها ابن بطوطة بقوله:"وفيها (أي دمشق) صناع أواني الزجاج العجيبة"[١٧٤].

علاوة على ما ذكر فإن أسواقاً أخرى قد وجدت في مدينة دمشق غير التي ذكرناها من قبل،إذ اختص بعضها ببيع الكتب والورق، مثل سوق الزرابليين، وسوق الوراقين، وسوق المجلدين، وكان موقع هذه الأسواق جميعاً في الجهة الغربية من الجامع الاموي قرب باب البريد[١٧٥]. كما وجد عدد آخر من الأسواق كانت تلبي حاجة الجيش من السلاح كالرماح والسيوف وغيرها من الاسلحة الأخرى[١٧٦].

وفضلاً عن ذلك ضمت دمشق مجموعة أخرى من الأسواق كانت تسد حاجات الناس اليومية، مثل سوق الفضلات، وسوق القشاشية[١٧٧]، وسوق المدهون[١٧٨]،

١٧١- الصفارين: اطلق هذا اللفظ ايضا على صانعي النحاس الجيد. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة صفر.

١٧٢- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ١٠٦.

١٧٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١.

١٧٤- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ١٠٧.

١٧٥- المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٠٧؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٤، ٧٥.

١٧٦- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ١٣٩.

١٧٧- القشاشية: مفرد قشاشة وهي عبارة عن آلة مصنوعة من الخشب تشبه العصا طولها اربع اذرع، مركب في رأسها عارضة بطول ذراع ونصف ذات اسنان يجمع بها السبّل وقت الحصاد. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٣٥٣.

١٧٨- المدهون: عرف بذلك نسبة لبيع الدهن. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة دهن.

وسوق الحصر[١٧٩]، وسوق النشارين[١٨٠]، وسوق الفاخورية[١٨١]، وسوق النقلية، وسوق السلبية[١٨٢]، وسوق الحطب. وجميع هذه الأسواق كانت تتواجد بالقرب من القلعة، "أما ساحة تحت القلعة فانك لا تستطيع أن ترى ارضها لكثرة ما به[١٨٣] من المتعيشين والوظائفية. ويتخلل بينهم ارباب الحلق والفالاتية والمضحكون واصحاب الملاعيب والحكوية والمسامرون وكل ما يتلذذ به السمع ويسر العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون، لكن المساء اكثر اجتماعاً ويستمرون إلى طلوع الثلثين"[١٨٤].

وعند باب الفرج وقرب باب البريد كان يوجد في كل منهما سوق لبيع الشموع. كما وجد عند باب الفرج ايضاً سوق الغرابيل، وسوق المناخل[١٨٥].

وهناك عدد آخر من الاسواق لبت أيضاً حاجة الناس من البضائع المختلفة، إلاّ أن توزيعها جاء في أماكن متفرقة من المدينة مثل اسواق اللبادين[١٨٦]، وسوق

١٧٩- الحصر: تصنع من نوع حبال يعرف "بالمصيص" بالاضافة الى القش، كانت تفرش في المساجد والمنازل للجلوس عليها. انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ٩٨.

١٨٠- النشارين: وهم نشارين الاخشاب بمختلف انواعها كالجوز والصفصاف والحور وغيرها. انظر المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٤٨١.

١٨١- الفاخورية: اصلها فخار وهو نوع من الخزف المشهور تصنع منه الجرار والكيزان وغيرها. انظر ابن المنظور، لسان العرب، مادة فخر.

١٨٢- سوق السلبية: اختص بصناعة السلال والتي مادتها قشر من قشور الشجر. انظر المصدر نفسه، مادة سلب.

١٨٣- به: هكذا ورد في النص والاصح ان تكون "بها" أي الساحة.

١٨٤- الثلثين: ويعني ضرب كل طبل من طبول القلعة الثلاثة ضربتين في الثلث الثاني من الليل. انظر البدري، نزهة الانام، ص ٣٦-٣٧.

١٨٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٦.

١٨٦- اسواق اللبادين: وهي ثلاثة اسواق كانت تقع جوار الجامع الاموي، وقد اقتصرت على صنع الفراش والملاحف من مادة الصوف. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٢جزء، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١م، ج٢، ص٣٩١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: النعيمي، الدارس؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٣٩٩.

الاقباعيين [١٨٧]، وسوق القناديل[١٨٨]، وسوق الدهيناتيين[١٨٩]، وسوق الحباكين[١٩٠]، وسوق الحبالين [١٩١]، وسوق مزبلي الآثار[١٩٢]، وسوق النجادين[١٩٣]، وسوق الصابون[١٩٤]، وسوقي المحايرية[١٩٥].

واخيراً وجد في دمشق عدد آخر من الأسواق حيث صنفناها إلى نوعين، النوع الاول عرفت باسماء الامكنة التي كانت تباع عندها، ولا نعرف ما كان يباع فيها، مثل سوق باب السريجة، وسوق باب الصغير، وسوق الباب الشرقي، وسوق باب توما، وسوق داخل باب الفراديس، وسوق عند باب المصلى، وسوق شمالي المصلى، وسوق

١٨٧- سوق الاقباعيين: نسبة لمن يصنعون الطواقي من الجلد، ومركز هذا السوق كان تحت سوق الطواقين، واقتصر على بيع الاقباع للفلاحين والبدو. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٤٦١.

١٨٨- سوق القناديل وموقعه كان بالقرب من مسجد ابن عوف. انظر ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١١٣؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٨١.

١٨٩- سوق الدهيناتيين: وموضعهم كان بين سوق السلاح والبزوريين، حيث اهتم بصناعة وبيع عامة الادهان من دهن اللوز وغيره، انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣.

١٩٠- الحباكين: اقتصر عملهم على استعمال الحبال لشد الخشب من وسطه حيث صنعوا من ذلك الحظائر. وكان لهم سوقان واحد عند باب البريد، والآخر عند الباب الشرقي للجامع الاموي. انظر ابن المنظور، لسان العرب، مادة حبك؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣.

١٩١- الحبالين: مفرد حبال اطلق هذا الاسم على من يصنع الحبال بكافة اصنافها كالمرس والخيوط المصيص. ومركز هؤلاء كان بالقرب من باب الجابية. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ٩٠.

١٩٢- مزبلي الآثار: وهم بائعوا الزبل حيث استخدم وقودا للحمامات. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ١، ص ١٦٣.

١٩٣- النجادين: نسبة لنجادي الفرش. ومكانهم كان غربي سوق القطن، وسوق جقمق. انظر ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣.

١٩٤- سوق الصابون: وكان يقع غربي القضمانيين. انظر المصدر نفسه، ص ٢٣.

١٩٥- المحايرية: نسبة لصانعي المحاير وهي تشبه السرير كانت تصنع من الخشب، حيث توضع على الجمال لكي يستريح فيها المسافر، وقد استخدمها الحجاج في سفرهم لمكة، وكان موقع احدى هذه الاسواق عند الاخصاص، والآخر عند القشاشين، والاول تعطل اما الثاني فظل صالحا. انظر المصدر نفسه، ص ٢٧؛ القاسمي، قاموس الصناعات، جـ ٢، ص ٤٢٠.

عند جامع كريم الدين بالقبيبات، وسوق جسر الزلابية، وسوق العمارة الكائن إلى الشمال الغربي من باب الفراديس، وسوق قناة العوني، وسوق مسجد القصب، وسوق السبعة، وسوق المنابة، وسوق الربوة، وسوق حكر السماق[١٩٦]، وسوق قصر حجاج، وسوق الرصيف، وسوق المزار بالشاغور، وسوق الفسقار[١٩٧]، وسوق جيرون [١٩٨]، وفي صالحية دمشق ذكر فيها سوقان بهذا الوصف، وهما السوق التحتاني، وسوق الجسر[١٩٩].

أما النوع الثاني من الاسواق، فكانت تعرف باسماء اشخاص معينين دون تحديد نوع البضاعة التي كانت تعرض فيها، مثل سوق خان السلطان، وسوق كنيسة مريم [٢٠٠]، وسوق صاروجا[٢٠١] الواقع إلى الأعلى من سوق تحت القلعة، وكان هذا السوق خاص لسكن الجيش بسبب قربه من القلعة[٢٠٢]، كما وجد في صالحية دمشق سوقان من هذا الصنف هما سوق شعيب، وسوق الشركسية[٢٠٣].

١٩٦- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣-٢٧.

١٩٧- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ١٩٠، ٢٨١-٢٨٤، ٣٣٥، ٣٥٢.

١٩٨- الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، ٤ اجزاء، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م، جـ ١، من ٣٠٥-٣٠٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الكتبي، فوات الوفيات.

١٩٩- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

٢٠٠- المصدر نفسه، ص ٧٨.

٢٠١- هو الأمير صارم الدين صاروجا بن عبد الله المظفري، تولى إمره صفد، ثم نقل إلى دمشق أمير فقبض عليه تنكز وكحله وأرسله إلى القدس، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب؛ ٨ اجزاء، تحقيق نخبة احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الافاق الجديدة، بيروت (د. ت) جـ ٦، ص ١٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب.

٢٠٢- العلبي، دمشق، ص٤٦.

٢٠٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

وباختصار فقد حوت دمشق جميع أصناف السلع، فمن "المحال أن يطلب بها شيء من جليل اعراض الدنيا، ودقيقها إلاّ وهو فيها أوجد من جميع البلاد"[٢٠٤].

٣. أسواق حلب:

كان لموقع حلب الاستراتيجي دور كبير في إزدهارها اقتصادياً، إذ كانت على اتصال مع آسيا الصغرى والعراق واوروبا عبر المتوسط[٢٠٥]، مما اسهم في قدوم اعداد كبيرة من التجار اليها، ولا سيما تجار الغرب أمثال تجار البندقية وبيزا وجنوا وغيرهم، حيث انتعش نشاطها التجاري وبلغ ذروته في العصر المملوكي[٢٠٦]، فأخذت تضاهي دمشق على وجه الخصوص[٢٠٧] حتى وصفها البعض بانها اكبر مدينة تجارية في الشام واكثرها شهرة على الاطلاق[٢٠٨].

وقد دلّ على ذلك ما ذكره إبن الشحنة من انه "قد يتفق انه يباع فيها في يوم واحد ما لا يباع في غَيْرِها في شهر كل ذلك باطيب ثمن، وارغبه مثلا إذا احضر اليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه، ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة احمال لا تباع في شهر، وعلى هذا فقس"[٢٠٩]. كما دلّ على ذلك أيضاً تعدد أسواقها التي كانت تحوي جميع الأصناف المختلفة من البضائع، نذكر منها أَسواق الألبسة وما تعلق بها، مثل سوق الحرير[٢١٠]، وسوقي البز، بالاضافة إلى سوق

٢٠٤- ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٦٥.

٢٠٥- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٨.

٢٠٦- انظر الفصل الرابع، العوامل المؤثرة على تلك الاسواق.

٢٠٧- سوقاجيه، دمشق، ص ٣٩.

٢٠٨- راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، دار الحرية، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨، ص ٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: راوولف، رحلة المشرق.

٢٠٩- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٥٤.

٢١٠- خير الدين الاسدي، احياء حلب واسواقها، تحقيق عبد الفتاح رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٨٤م، ص٧٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاسدي، احياء حلب.

الخلع، وسوق الكتانين[٢١١]، وسوق الفرايين[٢١٢]، وسوق العبي[٢١٣]، وسوق الغزل، وسوق السقطية، وسوق الابرية[٢١٤].

كما وجد في حلب أيضاً أسواقاً أخرى لبيع الحيوانات كالغنم والتي كان لها سوقان واحد عرف بسوق الغنم، والاخر سمي بسوق التركمان للغنم، علاوة على سوق البقر، وسوق الجمال، وسوق الخيل[٢١٥]، وهذا الاخير كان أهمها جميعا، حيث مثل العمود الفقري في سير النشاط العسكري والتجاري أيضاً. إذ لم يقتصر على بيع الخيول فحسب، بل بيعت فيه سروج الخيل والاقواس والسهام، كما أن كثيراً من غرف هذا السوق قد استخدمتها الجيوش في حالة الحرب[٢١٦].

ومن الأسواق الأخرى كذلك أسواق لبيع الطيور، ويبدو أن حلب كان فيها اكثر من سوق من هذا الصنف، فقد ذكر إبن شداد مثلا ثلاثة اسماء لبيع الطيور، ولم يذكرها بنفس الاسم. فمرة قال: سوق الطير، وأخرى الطير العتيق، وثالثاً سمى الطيوريين[٢١٧].

ولم يقتصر الحال في حلب على هذه الأسواق فحسب، بل وجد فيها أسواق أخرى لتلبية حاجات الناس اليومية، امثال سوق الحدادين، وسوق البنائين، وسوق الخشابين، وسوق الخرازين، وسوق الفقاعين، وسوق الطباخين، وسوق الحصارين،

٢١١- ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ اجزاء، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، (د. ت)، جـ ٣، ص ٣٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن العديم، زبدة حلب.

٢١٢- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق١، ص ٦٨.

٢١٣- السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص ٢٧٢.

٢١٤- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨.

٢١٥ ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق١، ص ٧٦، ٧٩؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٧٣، ١٤٧.

٢١٦- جورج فريد داود، مدينة حلب في العصر المملوكي الاول، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٧٧، ص ٩٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: داود، حلب.

٢١٧- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق١، ص ٦٦، ١٤٦، ١٤٧.

وسوق الدلائين، وسوق البارقية، وسوق التنانيرين، وسوق النطاعين[٢١٨]، وسوق العطر، وسوق التبن[٢١٩]، وسوق النحاسين، وسوق الهوى[٢٢٠]، وسوق النشابين، وسوق الصابون[٢٢١]، علاوة على سوق الزجاجين الذي ذاعت شهرته حتى قيل: "أن الانسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة، والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا"، وهو بهذا الوصف لا يقل عن سوق المزوقين، حيث ضم هو الآخر انواعاً عديدة من الآلات الجميلة المزوقة منها والعجيبة [٢٢٢].

وأخيراً ورد ذكر لأسواق أخرى كانت تتواجد في مدينة حلب وذلك دون ذكر لنوع البضاعة التي كانت تباع فيها، مثل سوق البهرمية، وسوق الحرافشة، وسوق الاعلى[٢٢٣]، وسوق التجار[٢٢٤]، وسوق يشبك[٢٢٥]، وسوق بني شداد، وسوق الدهشة [٢٢٦].

٢١٨- النطاعين: جمع نطاع، وهو صانع طبق القش، انظر القاسمي، قاموس الصناعات، جـ٢، ص ٤٨٤.

٢١٩- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق١، ص ٤٢، ٦٣، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٩٨، ١٣٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩.

٢٢٠- سوق الهوى: اختص هذا السوق ببيع أدوات الطرب، ويعرف في الوقت الحاضر بسوق خان التتن، انظر الاسدي، احياء حلب، ص ٢٤٢.

٢٢١- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ٢٣٤، ٢٤٧-٢٤٩.

٢٢٢- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ١٨٣-١٨٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلاد.

٢٢٣- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق١، ص ٦٩، ٧٥، ١٤٨؛ محمد راغب الطباخ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب، ٧ أجزاء، ط٢، دار العلم العربي، حلب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ٢، ص٣٢٧، جـ٥، ص٢٧٣ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الطباخ، أعلام النبلاء.

٢٢٤- الغزي، الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة، ٣ اجزاء، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الاميركانية، بيروت، ١٩٤٥، جـ ١، ص ٣٠٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الغزي، الكواكب السائرة.

٢٢٥- يشبك: نسبة ليشبك اليوسفي المؤيدي نائب حلب، كان من الرقيق، ثم تولى عدة مناصب في الدولة المملوكية كان آخرها نيابة حلب عام (٨٢٠ هـ/١٤١٧م الى عام ٨٢٤ هـ/١٤٢١م) وهي السنة التي قتل فيها، انظر السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١٠، ص ٢٧٩.

٢٢٦- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٢، ٢٤٨.

٣. أسواق حماة:

تقع مدينة حماة بين حمص وقنسرين يحيط بها سور حصين، وخارج السور حاضر واسع المساحة، منه قطعة سفلى يدور حولها ايضاً سور وهي بحذاء نهر العاصي، وتعرف هذه القطعة بالسوق الاسفل، وباعلى هذه القطعة قطعة أخرى سميت بالسوق الاعلى أو المنصورية[٢٢٧].

إزدهرت حماة في العصر الايوبي بعد أن كانت الشهرة لحمص، حيث أولاها الأيوبيون عناية خاصة فزادوا في عمارتها، وجلبوا لها سائر الصناع، وحظيت أسواقها باهتمام خاص من جانبهم[٢٢٨]، مما دفع إبن جبير إلى مدحها وبخاصة أسواق المدينة العليا فقال عنها: " هي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب، والتقسيم"[٢٢٩].

وفي العصر المملوكي لم يتوقف نشاط حماة التجاري عما كان عليه في العصر الأيوبي بل زاد اكثر من قبل[٢٣٠]، حتى وصفت أسواقها بانها " لا تعدم نوعاً من الانواع، ولا صنفاً من الصنوف جليلها، وحقيرها" [٢٣١]. كما اثنى عليها إبن بطوطة فذكر عظمتها، وبأن فيها أسواقاً حافلة لعامة السلع[٢٣٢]. فمن أهم أسواقها كان سوق

٢٢٧- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٠٠؛ البغدادي، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع (وهو مختصر معجم البلدان لياقوت) ٣ اجزاء، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٥م، جـ ١، ص ٤٢٣-٤٢٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البغدادي، مراصد.

٢٢٨- الخالدي، المقصد الرفيع الهادي إلى صناعة الإنشاء، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمحفوظات، مكتبة الجامعة الأردنية رقم (١٠٢٧)، وهو مصور عن مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (٤٤٣٩)، ورقة أ ٩٤. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الخالدي، المقصد الرفيع.

٢٢٩- ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٣١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن جبير، الرحلة.

٢٣٠- انظر الفصل الرابع العوامل المؤثرة في الاسواق.

٢٣١- ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار (ممالك مصر والشام والحجازواليمن)، تحقيق ايمن فؤاد رشيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٢٦، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، ممالك الشام.

٢٣٢- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨٥.

المنصورية، والذي يرجع تشييده إلى عهد ملك حماة المنصور محمد (ت ٦١٧هـ/١٣٢٠م). وهو ما يسمى الآن بسوق الطويل، وقد كان هذا السوق غير مخصص ببضاعة معينة، ويؤكد ذلك ما وجد على مدخله من نقش يذكر فيه "ان المنصور قد أبطل المكوس والبدع من خراج السمن، والعسل، والقطن، والعصفر، وغير ذلك، ولعن من بدل ذلك أو غير"[٢٣٣].

ومن الأسواق الهامة ايضا سوق الخيل، حيث عدّ من الأسواق الرئيسة والمتخصصة وكان موقعه خارج المدينة في مكان عرف بالموقف، إذ كانت تجري فيه الاحتفالات والمواكب مثلما كان متبعا في سائر البلاد الشامية[٢٣٤].

كما ذكرت اسماء أخرى لأسواق كانت قد وجدت في مدينة حماة عرف بعضها باسماء السلع التي بيعت فيها، أو بنوع الصناعة التي نشطت فيها، مثل سوق الغزل، وسوق العبي، وسوق القصابين، وسوق النجارين، وسوق الدق، وسوق الحطب، وسوق الحدادين، وسوق القطن، وسوق الطحين، وغيرها من الأسواق[٢٣٥]. ولا ادل على كثرة أسواقها من أن حريقاً قد وقع فيها عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م فاحترق بسببه "مائتان وخمسون حانوتا" [٢٣٦].

٢٣٣- نعمان محمود جبران، مملكة حماة في العهدين الايوبي والمملوكي الاول (٥٧٠/١١٧٤ - ٧٨٣هـ/١٣٨١م) رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٨١م، ص ٢٤٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: جبران، حماة.

٢٣٤- ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ٤ اجزاء، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، (د. ت)، جـ ٤، ص ٤٤-٤٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو الفداء، المختصر.

٢٣٥- غسان سبانو، مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٧٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: سبانو، حماة؛ عبد الودود يوسف، طوائف الحرف والصناعات او طوائف الاصناف في حماة في القرن السادس عشر، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، م ١٩، جـ ١-٢، ١٩٦٩، ص ٨٥-١٠٢، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: يوسف، الحرف في حماة.

٢٣٦- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١١٥-١١٦؛ ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، ٢جزء، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠، جـ٢، ص ٤٤٠. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن الوردي، تتمة المختصر.

٤. أسواق حمص:

حمص من المدن القديمة في بلاد الشام، ازدهرت تجارتها منذ القدم بسبب موقعها المتوسط بين اكبر سوقين تجاريين وهما دمشق وحلب، حيث ارتادتها القوافل التجارية المارة بين هاتين المدينتين، كما نشطت تجارتها لاتصالها بطريق آخر للقوافل كان يربطها مباشرة بالرقة والفرات[٢٣٧]، وقد نتج عن هذا انتعاشها اقتصاديا فطرقها وأسواقها وسككها اصبحت مرصوفة ومبلطة بالحجارة[٢٣٨].

ولم يمض زمن طويل على ذلك الازدهار حتى دب الخراب بها بعد دخول الروم اليها عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م[٢٣٩]، حيث "انصرف سلطانها عنها" [٢٤٠]. وفي العصر الايوبي قل شأن حمص كثيرا لسببين أحدهما: أن انظار السلاطين الايوبيين اتجهت إلى مدينة حماة بدلا منها، فاخذت هذه الاخيرة مكانتها[٢٤١]، وربما كانت الهجمات الصليبية عاملا آخر أدى إلى تراجع تجارتها، إذ اتخذ الفرنج حصن الاكراد القريب منها كمركز انطلاق للاعتداء على المسلمين، لذا فعندما زارها ابن جبير قال عنها: "لا رونق لأسواقها، لا سدة لا عهد لها بنفاقها"[٢٤٢]. ومع ذلك استمرت أسواقها قائمة في العصر المملوكي، إذ وفد اليها التجار من كل صوب، ومعهم كل فن[٢٤٣].

٢٣٧- ف، هايد، تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى، جـ ١، ترجمة احمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ١٨١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: هايد، تاريخ التجارة.

٢٣٨- الاصطخري، كتاب مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٦١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاصطخري، المسالك.

٢٣٩- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢.

٢٤٠- ابن حوقل، كتاب صورة الارض (القسم الاول)، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص ١٧٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة الارض.

٢٤١- الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة أ ٩٤.

٢٤٢- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٢.

٢٤٣- الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٩٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الحميري، الروض المعطار.

٥. أسواق القدس:

كان لأهمية القدس الدينية دور بارز في ازدهار نشاطها التجاري، فهي المدينة المقدسة عند عامة الطوائف الدينية الذين حرصوا على زيارتها والحج اليها من مختلف الاقطار، وفوق ذلك كانت بلداً ذا مصدر إنتاجي زراعي، وصناعي قبل ان يكون تجارياً[٢٤٤].

وقد اسهم هذا في تعدد أسواقها، وتنوع أصنافها، نذكر منها الأسواق الثلاثة التي هي من بناء الروم، والتي كانت تمتد بحذاء المسجد الاقصى من الجنوب إلى الشمال قرب باب المحراب الذي هو احد ابواب المدينة. فالاول منها غربي وسمي بسوق العطارين[٢٤٥]، وكان قبل العصر المملوكي سوقا للطعام والحلاقين[٢٤٦]. أما الثاني فاختص ببيع الخضروات، وعرف بسوق الخضروات. في حين أن الثالث اعتنى ببيع القماش وعرف بسوق القماش[٢٤٧].

ويبدو أن هذه الأسواق هي التي قصدها ابن شاهين حينما وصف أسواق القدس بقوله: "وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قيل انه لم يكن بغالب البلاد نظيرها"[٢٤٨]. كما مدحها المسافرون بقولهم: "انهم لم يروا مثل الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلد من البلدان، وان ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس"[٢٤٩].

٢٤٤- انظر الفصل الرابع، العوامل المؤثرة في الاسواق.

٢٤٥- العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ جزء، دارالجيل، بيروت، ١٩٧٣م، جـ٢، ص ٥٠. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: العليمي، الأنس.

٢٤٦- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، جـ١، ط ١، مكتبة الاندلس، القدس، ١٩٦١م، ص ١٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العارف، المفصل.

٢٤٧- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٥٠-٥١.

٢٤٨- ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤، ص ٢٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شاهين، زبدة الممالك.

٢٤٩- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٥٠.

كما وجد في مدينة القدس أسواق أخرى غير التي ذكرناها من قبل، مثل سوق الدجاج والجبن[٢٥٠]، ومركزه كان يمتد من سوق الخضروات في الجنوب إلى الشارع المؤدي إلى كنيسة القيامة في الشمال[٢٥١].

ومن الأسواق الهامة ايضا سوق القطانين، وكان مخصصاً لبيع القطن، ويعود بناؤه إلى العصر المملوكي، حيث شيد في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقد عثر على نص مكتوب على بابه يشير إلى انه من بناء السلطان المذكور في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٥م [٢٥٢]. وكان موقع هذا السوق الى جوار الباب الغربي للمسجد الاقصى، وقد وصف ذلك السوق بانه في "غاية الارتفاع والاتقان لم يوجد مثله في كثير من البلاد"[٢٥٣]. طوله مئة متر، وعرضه عشرة امتار، وعلى طرفيه دكاكين كانت عند بنائها معدة لبيع جميع الاقمشة القطنية، والبضائع الحريرية، ولكن أهمية هذا السوق تضاءلت باكتشاف رأس الرجاء الصالح، ولم يعد له مكانة في اواخر العهد التركي[٢٥٤] إذ اصبح مكباً للنفايات في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي [٢٥٥].

وغربي هذا السوق كان يقع سوق الزيت، والى القرب منه سوق آخر اختص بصناعة الصابون، وقد عرف بسوق الفخر نسبة إلى فخر الدين صاحب المدرسة الفخرية، وخلال شهر رجب سنة ٨٧٨ هـ/تشرين ثان (نوفمبر) ١٤٧٣م شُيد سوق آخر في القدس عرف بسوق الطباخين[٢٥٦]، وكان هذا السوق قد زاره فابري في جمادى

٢٥٠- سوق الدجاج والجبن: هو سوق واحد.

٢٥١- العارف، المفصل، جـ ١، ص ١٧٧.

٢٥٢- L. Golvin, Quelques notes sur le suq Al-Qattanin et ses annexes A Jerusalem-Bulletin deludes orientales Tome x x, 1967, P 102.

وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Golvin, suq Al-Qattanin.

٢٥٣- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٥٠.

٢٥٤- العارف، المفصل، جـ ١، ص ٢٠٤.

٢٥٥- M.H. Burgoyne: Mamluk Jerusalem, the British school of Archealogy in Jerusalem by the world of Islam, London, 1984, P. 277.

وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Burgoyne, Mamluk Jerusalem.

٢٥٦- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٥٤، ٣٠٤.

الاولى ٨٨٨هـ / ٢٨ تموز (يوليو) ١٤٨٣م، حيث مدحه واعجب به وبنظافته حتى اعتقد أن المقادسة لا يطبخون في بيوتهم بل يأكلون من الاطعمة التي كانت تباع جاهزة في هذا السوق[٢٥٧].

ويبدو أن هذا السوق هو نفسه الذي اطلق عليه البعض اسم السوق الكبير[٢٥٨]، إذ يتفق تماماً في تحديد مكانه مع ما ذكره العليمي عن سوق الطباخين، والذي كان يقع في خط داود إلى الشارع الاعظم، حيث امتد من باب المسجد الاقصى المعروف بباب السلسلة إلى باب الخليل[٢٥٩].

ومن الأسواق التي وجدت في هذا الشارع ايضاً سوق القشاش، وسوق المبيضين، وسوق خان الفحم، وسوق الحريرية، وسوق الصاغة[٢٦٠]، وهذا الاخير كان مكونا من قسمين قسم كان يعمل فيه الصياغ السريان، أما القسم الآخر، فاقتصر على الصناع اللاتين[٢٦١].

كما وجد في القدس أسواق أخرى غير التي ذكرناها مثل سوق اللحم، وسوق القمح[٢٦٢]، وسوق السمك[٢٦٣]، وسوق التجار، والسوق الاسفل، وسوق الليل[٢٦٤]،

٢٥٧- نقولا زياده، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، هدية المقتطف السنوية، ١٩٤٣م، ص ١٩٩-٢٠٠. و سيشار اليه فيما بعد هكذا: زياده، رواد الشرق..

٢٥٨- يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، دار الحياة، عمان، الأردن، ١٩٨٢م، ص٨١ . وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمة، القدس.

٢٥٩- العليمي، الانس، جـ٢، ص ٥٢.

٢٦٠- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٢.

٢٦١- رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣-١٥١٦م) الدار التونسية، تونس، ١٩٧٦م، ص ١٥٠-١٥١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الامام، القدس.

٢٦٢- المرجع نفسه، ص ١٥١.

٢٦٣- علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢٠٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: علي السيد، القدس.

٢٦٤- غوانمه، القدس، ص ٨١.

وسوق المعرفة، وهذا الاخير يقول عنه العليمي: "ولا اعرف سبب تسميته بذلك، والظاهر انه من اختراعات الخدام لترغيب من يرد اليهم من الزوار" [٢٦٥].

وبالرغم من تعدد الأسواق في مدينة القدس إلاّ انه لم يرد لدينا أي ذكر لسوق اختص ببيع السلاح كما كان الحال في معظم المدن الشامية، ولا غرابة في ذلك فهذا نابع من كون المدينة ذات طابع ديني خالص.

٦. أسواق الرملة والخليل:

استحدثت الرملة في العصر الاموي على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك (ت٩٩هـ/٧١٧م) في فلسطين، على الطريق الممتد من القدس إلى البحر[٢٦٦]. وكان من أهم أسواقها سوق القماحين، وسوق البصالين، وسوق القطانين، وسوق المشاطين الخاص بالكتان، وسوق العطارين، وسوق الحبالين، وسوق الخرازين، وسوق البقالين، وسوق الصياقلة، ثم سوق السراجين، وكانت معظم هذه الأسواق تمتد من أبواب المدينة إلى المسجد الجامع[٢٦٧].

وبدخول الفرنج إلى هذه المدينة زالت معظم أسواقها، إذ لم يبق من المدينة سوى "ثلثها بل ولا ربعها"[٢٦٨]. ومع ذلك ظل قسم من أسواقها عامر حتى العصر المملوكي، حيث وصفها ابن بطوطة بقوله: انها "حسنة الأسواق"[٢٦٩]. كما زارها فابري في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي فقال عنها: "زرنا جميع أسواق الرملة التي تحتوي جميع المتاجر" [٢٧٠]. ولم يقتصر الامر على ذلك بل ان لابروكيية ذكر المدينة بكاملها على

٢٦٥- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ١٤-١٥.

٢٦٦- صادق احمد داود جودة، مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٧-٢٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: جودة، مدينة الرملة.

٢٦٧- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٦٨.

٢٦٨- المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٦٨.

٢٦٩- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨٠.

٢٧٠- نقولا زياده، فيلكس فابري في فلسطين (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام) عمان، الاردن، م٢، ١٩٨٣م، ص ١٩٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زياده، فابري.

انها تجارية تقع في منطقة خصبة ملائمة[٢٧١]. كل ذلك يؤكد ان نشاط الرملة التجاري لم يتوقف بل استمر قائماً ومزدهراً حتى نهاية دولة المماليك.

أما الخليل فهي بلدة تقع بالقرب من بيت المقدس على بعد يوم، فيها قبور بعض الانبياء[٢٧٢]، ولعل مكانتها الدينية هذه كانت سبباً في انتعاشها اقتصاديا فقد ذكر العليمي بعض أسواقها مثل سوق الحصرية، وسوق الزياتين، وسوق الغزل، وسوق الزجاجين. وجميع هذه الأسواق كانت تتواجد بالقرب من المساجد مثل مسجد إبن عثمان ومسجد رعونة[٢٧٣].

٧. أسواق نابلس وبيت لحم:

نابلس مدينة فلسطينية معروفة، بينها وبين بيت المقدس مسافة ٦٠ كم تقريباً، ولها حدود واسعة[٢٧٤]. برزت أهميتها التجارية منذ القدم ثم ازدادت شهرة في العصر المملوكي. حيث كانت تقع في وسط فلسطين وهي محط القوافل التجارية القادمة من الشرق والمتجهة إلى البحر في الغرب، أو القادمة من الجنوب إلى الشمال[٢٧٥].

ومن ناحية أخرى كانت مدينة نابلس تمتلك ثروة اقتصادية كبيرة فاشجار الزيتون غطت سفوحها، مما لفت الانظار اليها حتى اصبحت من اكبر المدن المصدرة لمادة الزيت، وقد اشار شيخ الربوة إلى أن زيت نابلس كان يُحمل إلى الديار المصرية والشامية وإلى بلاد الحجاز والبراري مع العربان، فضلاً عن ذلك كان "يُحمل إلى

٢٧١- لابروكيية، رحلة برتراندون دي لابروكيية إلى فلسطين ولبنان وسورية (١٤٣٢م) ترجمة محمود زايد من مجلة الأبحاث، جـ٣، السنة ١٥، أيلول ١٩٦٥م، ص ٣٠٥ وسيشار إليه فيما بعد هكذا: لابروكيية، رحلته.

٢٧٢- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٨٧؛ البغدادي، مراصد، جـ ١، ص ٤٨٠.

٢٧٣- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٧٩.

٢٧٤- البغدادي، مراصد، جـ ٣، ص ١٣٤٧.

٢٧٥- سعيد عبدالله البيشاوي، نابلس خلال الحروب الصليبية "١٠٩٩ - ١٢٩١م/٤٩٢ - ٦٩٠هـ"، (د.ن)، عمان، ١٩٩١م، ص ٢١٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البيشاوي، نابلس.

جامع بني امية منه في كل سنة الف قنطار بالدمشقي[٢٧٦]. وقد تبع ذلك تصنيع مادة الصابون لارتباطها بالزيت[٢٧٧].

هذه الاهمية التجارية الكبيرة لمدينة نابلس تطلب وجود العديد من الأسواق[٢٧٨]. إلاّ اننا نجهل اسماءها بسبب شح المعلومات حول ذلك.

وبالقرب من بيت المقدس كان يقع بيت لحم وهو مهد السيد المسيح، ونظراً لهذه المكانة الدينية فقد وجد فيه العديد من المنشآت التجارية حيث ذكر ياقوت الحموي ذلك بقوله: "فيه (أي بيت لحم) سوق وبازارات" [٢٧٩].

٨. أسواق عجلون

عجلون مدينة تقع في شمال الاردن، بالقرب من جبل عوف المطل على الغور[٢٨٠]، تبعد عن عمان مسافة ٧٠كم تقريباً، وعن إربد حوالي ٣٠كم.

نشطت تجارتها في العصر المملوكي لعدة اسباب منها: موقعها المتوسط الذي ربط أرض الرافدين ودمشق بفلسطين ومصر، كما انها جزء من المنطقة التي كانت تمر فيها تجارة الهند والصين وجنوب الجزيرة العربية الوافدة إلى دمشق عن طريق جدة [٢٨١]، علاوة على ثرائها الاقتصادي المتمثل بكثرة ينابيعها المائية وغابتها الكثيفة المزروعة باشجار السنديان واشجار الزيتون والفواكة المتنوعة، ولا ننسى كذلك

٢٧٦- شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البحر، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ت)، ص ٢٠٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: شيخ الربوة، نخبة الدهر.

٢٧٧- انظر الفصل الخامس السلع التجارية.

٢٧٨- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨١.

٢٧٩- ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٥٢١.

٢٨٠- الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ب ٨٨.

٢٨١- يوسف غوانمة، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى (القسم الحضاري)، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٩م، ص ٦١-٦٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمة، الاردن الحضاري.

رعاية السلاطين والامراء المماليك لها بسبب موقعها الاستراتيجي، حيث أستغلت كسد منيع امام الطامعين بالسلطنة من نواب دمشق من ناحية، وفي وجه الخطر الصليبي والتتاري من ناحية أخرى، ولتقف حجر عثرة امام المعارضة الايوبية التي ظلت تنتهز الفرصة لاعادة عرشها المسلوب منها من ناحية ثالثة[٢٨٢].

كل ذلك اسهم في انتعاشها اقتصادياً وقد دل على ذلك تعدد أسواقها التي لم يحصها البعض كابن بطوطة مثلاً والذي اكتفى بالقول عنها: "وبها أسواق كثيرة"[٢٨٣]. وليس لدينا أي ذكر لاسماء أسواقها إلاّ من خلال ما اوردته بعض المصادر من أن سيلاً قد اجتاحها في ٢٢ ذي القعدة ٧٢٨هـ/تشرين أول (أول أكتوبر)، ١٣٢٨م حيث سبب خراباً في العديد من أسواقها مثل سوق الادميين، وسوق القطانين، وسوق الاقباعين، وسوق الخلعيين، وسوق الفرايين، وسوق الفاميين، وسوق العلافين، وسوق الحصريين، وسوق اللحامين، وسوق السقطيين، وسوق الصاغة، وسوق البز العتيق، وسوق التجار، وسوق أم معبد، وسوق الامير سيف الدين، وسوق الامير ركن الدين، وحوانيت الخبازيين، وحوانيت الطباخين، وحوانيت البضاعة، وحوانيت القاضي فخر الدين، وحوانيت الدق[٢٨٤]، بالاضافة إلى غيرها من الأسواق الأخرى التي لم تذكرها كثير من المصادر. فماورد ذكره لا يمثل سوى ما احدثه هذا السيل من دمار.

٢٨٢- يوسف غوانمه، التجارة الدولية في مناطق شرقي الاردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي، دراسات تاريخية، ع٢٣-٢٤، ايلول، كانون الاول، ١٩٨٦م، ص ٩٣-٩٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، التجارة الدولية.

٢٨٣- ابن بطوطة، الرحلة؛ جـ١، ص ٨٠.

٢٨٤- ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص ٤١٢-٤١٣؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه، ٢جزء، تحقيق محمد محمد امين، مطبعة دار الكتب بالإشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ١٩٨٢م، جـ٢، ص ١٨٩-١٩٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حبيب، تذكرة النبيه؛ غوانمه التجارة الدولية ص ٩٤-٩٥، نقلاً من النويري، نهاية الارب في فنون الادب، مخطوط دار الكتب المصرية القاهرة، جـ٣١، لوحة ٩٠-٩٢.

ب. أسواق المدن الساحلية

١. أسواق طرابلس

طرابلس مدينة ساحلية تقع على البحر المتوسط، ازدهرت في العصر المملوكي، وكانت قبل ذلك عبارة عن ثلاث مدن متقاربة، ثم اصبحت مدينة واحدة في عهد المنصور قلاوون سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م حيث امر بهدم تلك المدن المتقاربة وبناء مدينة على بعد ٣كم من تلك المدن السابقة[٢٨٥]، فجاء وضعها افضل مما كانت عليه من قبل إذ وصفت: "بانها شامية مصرية لحسن هيئتها"[٢٨٦].

لقد كان لهذا الموقع دور بارز في زيادة النشاط التجاري لطرابلس، فقد وفد اليها اعداد كبيرة من تجار الغرب حيث استوردوا من منتوجاتها القطن وغيرها من السلع الأخرى[٢٨٧]، إذ سمح ميناؤها الواسع لرسو اعداد كبيرة من تلك السفن دون ضيق أو مانع [٢٨٨].

أما أسواقها، فكانت "جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين"[٢٨٩]، وكان بعضها "على شكل أروقة، والبعض الآخر مسقف بالأخشاب بحيث تستطيع أن تتمشى وتساوم وتشتري دون أن تبتل بماء المطر"[٢٩٠]، مما دفع البعض إلى وصفها مرة بانها عجيبة[٢٩١]، وأخرى بانها جليلة[٢٩٢].

٢٨٥- العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، احداث (٦٦٥-٦٨٨هـ) تحقيق محمد محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٣٨١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العيني، عقد الجمان. احداث (٦٦٥-٦٨٨هـ).

٢٨٦- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ٤٨.

٢٨٧- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٤.

٢٨٨- السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص٣٨٣. وسيشار إليه بعد هكذا: سالم، طرابلس.

٢٨٩- خسرو، سفرنامة، (رحلة ناصر خسرو الى لبنان، وفلسطين، ومصر، والجزيرة العربية، في القرن الخامس (الهجري) نقلها الى العربية يحيى الخشاب، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٤٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: خسرو، سفرنامة؛

٢٩٠- راوولف، رحلة المشرق، ص ٣٣.

٢٩١- ابن بطوطه، الرحلة، جـ١، ص ٨٥.

٢٩٢- القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤جزء، ط١، دار الفكر (د. م) ١٩٨٧م، جـ٤، ص ١٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الاعشى.

وكان من أهم أسواقها سوق الحراج، وموضعه كان إلى الجنوب الشرقي من شارع الصاغة، ويعتقد بان انشاءه تم في العصر المملوكي حيث اقيم مكان كنيسة استخدم بعض اعمدتها وعقودها في اقامة هذا السوق، بالاضافة إلى هذا السوق وجدت أسواق أخرى في طرابلس مثل سوق السلاح، وسوق الحلاويين، وسوق العطارين[٢٩٣]، وغيرها من الأسواق الأخرى.

٢. أسواق بيروت

بيروت مدينة ساحلية تقع في وسط ساحل بلاد الشام، نشطت تجارتها في العصر الايوبي والمملوكي، وبلغت ذروتها في القرن الثامن والتاسع الهجري/الرابع والخامس عشر الميلادي، بحيث تفوقت على سائر الموانىء الأخرى في بلاد الشام[٢٩٤]. فميناؤها كان يعد من أهم الموانىء الشامية إذ اتسم ماؤه بالهدوء مما دفع بكثير من السفن للجوء اليه في معظم الاوقات[٢٩٥]. وقد لاحظ ابن يحيى ذلك الميناء وما كان يجنيه من الاموال الطائلة التي تحصل من السلع التجارية الصادرة والواردة عن طريقه[٢٩٦].

ومن اسباب ازدهار بيروت ايضاً أن ميناءها كان يمثل الشريان الرئيسي لصادرات دمشق وواردتها، فهو لم يكن يبعد عنها سوى يومين[٢٩٧]، مما اسهم في زيادة دخلها، وتعدد أسواقها التي اصبحت توصف بالحسن والجمال[٢٩٨].

٢٩٣- E.T. Combe et al, Repertoire Chronologique Depigraphie Arabe Le Caire Imprimerie De L'institut Francais D'archeologie orientale, 1956, Vol. 15, p. 60.
وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Combe, Repertoire Chronologique ؛ سالم طرابلس، ص ٣٨٣.

٢٩٤- هنري لامنس، تجارة سواحل سورية في الاجيال المتوسطة، المشرق، م٩، ع٢، ١٩٠٦م، ص ٩٢١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: لا منس، تجارة سورية.

٢٩٥- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: فهمي، طرق التجارة.

٢٩٦- ابن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرسيس هورمس اليسوعي وآخرون، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص ٣٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن يحيى، بيروت.

٢٩٧- فهمي، طرق التجارة، ص ١٤٨.

٢٩٨- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٨٢.

٣. أسواق عكا

تعدّ مدينة عكا من أهم المدن التجارية الساحلية في بلاد الشام، حررها صلاح الدين الايوبي عقب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، إلاّ ان ذلك لم يدم طويلاً فسرعان ما احتلها الفرنج مرة ثانية في عام ٥٨٧هـ/١١٩١م[٢٩٩]، أي بعد مرور أربع سنوات على تحريرها، فاتخذها الصليبيون عاصمة سياسية وتجارية للمملكة الصليبية بعد سقوط القدس بيد المسلمين حيث ازدحمت باعداد كبيرة من التجار الاجانب لا سيما تجار الجاليات الايطالية الذين اتخذوا لهم منها احياء وكنائس ومحاكم خاصة بهم، علاوة على أسواق كانت تابعة لهم[٣٠٠].

كما اتخذها الحجاج المسيحيون محطة ثابتة لمرورهم إلى القدس، لذا كانت هي والحالة هذه "ركاب الفرنج، ومجمع تجارهم، وحجاجهم، وغرابهم"[٣٠١]. كما أمها اعداد كثيرة من التجار المسلمين من كافة الاقطار حتى اصبحت "سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الاقدام"[٣٠٢].

وظل هذا الوضع قائماً على ما هو عليه إلى أن حررها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٣٠٣] فاصبحت منذ تلك اللحظة خاضعة للدولة المملوكية، ومع ذلك لم يتوقف نشاطها التجاري بالرغم من دعوة البابوية وتحريضها للتجار الاجانب لكي يقطعوا علاقاتهم التجارية مع المسلمين[٣٠٤].

٢٩٩- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، جـ٩، ص ١٧٩، ٢١٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الاثير، الكامل.

٣٠٠- هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص ٣٢٤-٣٢٥.

٣٠١- ابن سعيد، كتاب بسط الارض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرانيط خنيبس، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨م، ص ٨٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن سعيد، بسط الارض.

٣٠٢- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦.

٣٠٣- الاسكندراني، كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية، ٥ أجزاء، تحقيق كومب وعزيز عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن الهند، ١٩٦٨-١٩٧٣م، جـ٤، ص ٩٣-٩٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاسكندراني، الالمام.

٣٠٤- زيادة، رواد الشرق، ص ٢٥.

أما أسواقها، فذكرها فون سوخم الفرنسي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أي قبل سيادة المماليك عليها، حيث جاء وصفها بشكل يثير الدهشة إذ كانت أسواقها مظللة بالحرير وغيره من ثمين القماش[٣٠٥].

جـ-أسواق في مدن شامية أخرى

خلاصة القول انه لم تخل مدينة من مدن الشام أو قرية من قراها من سوق أو أسواق تخدم سكان البلدة وخارجها في آن واحد[٣٠٦]. وقد جاء وصف تلك الأسواق بشكل جميل معبر عن صفتها، فمثلاً وجد في مدينة صيدا عدد من الأسواق، وزارها خسرو في اواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حيث شاهد فيها سوقاً جميلاً نظيفاً حتى فكر انه زين بهذا الشكل لسبب معين كقدوم السلطان اليها، أو لان بشرى سعيدة وقعت، فلما سأل عن ذلك قيل له: "هكذا عادة هذه المدينة دائماً"[٣٠٧].

وفي العصر المملوكي ازداد نشاط صيدا التجاري إذ أصبحت الميناء الثاني لدمشق بعد ميناء بيروت[٣٠٨].

كما وجد في مدينة صور أسواق لا تقل أهمية عن أسواق صيدا، فقد لاحظ خسرو أسواقها وكانت جميلة كثيرة الأصناف[٣٠٩]، وهي لا تقل عما ذكره الاصفهاني عن أسواق اللاذقية الفضية[٣١٠] والتي وجد ابن الجيعان أن كثيراً منها خراب وعامر في

٣٠٥- نقولا زيادة، الاسواق الاسلامية، نقلاً عن فون سوخم. مجلة المقتطف، م ١٠٣، جـ١، يونيو ١٩٤٣م، ص ١٣٩، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زياده، الأسواق.

٣٠٦- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٢١.

٣٠٧- خسرو، سفرنامه، ص ٤٩.

٣٠٨- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ٤٧-٤٨.

٣٠٩- خسرو، سفرنامه، ص ٥٠.

٣١٠- الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاصفهاني، الفتح القسي.

العصر المملوكي[٣١١]. وفي نفس الوقت لا تقل شأناً عما قاله الحميري[٣١٢] عن أسواق انطاكية وعسقلان، فالاولى كانت "متسعة الأسواق والطرقات". أما الثانية، فكانت "أسواقها مفروشة بالرخام".

كذلك ضمت غزة[٣١٣] وصفد[٣١٤] مجموعة أخرى من الأسواق التجارية التي لبت حاجة سكانهما من السلع التجارية، وفي نفس الوقت فتحت ابوابها لقدوم التجار اليها من المدن الشامية بشكل خاص، وتجار اوروبا وغيرهم بشكل عام.

ومن الملاحظ أن مدينة بعلبك قد احتضنت مجموعة من الأسواق الحسنة، وذلك بسبب قدمها وموقعها الهام، إذ تذكر بعض المصادر انها قديمة البناء[٣١٥]. أما موقعها فشمالي دمشق، وقد انعكس اثر هذين العاملين ايجابياً عليها فقد وصفها ابن فضل الله العمري بقوله: "واما المدينة فمختصرة من دمشق في كمال محاسنها في حسن الترتيب والبناء، وجهات الوقف العامرة .... والأسواق النظيفة المشتملة على انواع المبيعات...."[٣١٦]. كما أثنى عليها لابروكييه بقوله: "وبعلبك مدينة جميلة ..... ولها شهرة تجارية..."[٣١٧]. كل ذلك يؤكد مدى نشاطها التجاري.

٣١١- ابن الجيعان، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الاشرف او رحلة (قايتباي الى بلاد الشام) ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط١، منشورات جروس برس، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٥٨ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الجيعان، القول المستظرف.

٣١٢- الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨، ٤٢٠.

٣١٣- ابن العبدري، رحلة العبدري المسماه (الرحلة المغربية) تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكملة بالشؤون الثقافية والتعليم ، الرباط، ١٩٦٨م، ص ٢٣٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن العبدري، الرحلة.

٣١٤- طه ثلجي الطراونه، مملكة صفد في عهد المماليك، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: طراونه، صفد.

٣١٥- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٢٢؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ١١٣.

٣١٦- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٢٣.

٣١٧- لابروكييه، رحلته، ص ٣٢٨.

ملاحظات عامة حول أسواق بلاد الشام

يتضح مما تقدم ذكره أن الأسواق التجارية انتشرت في مختلف مدن وقرى بلاد الشام، وقد حظيت كل من دمشق وحلب بالنصيب الاكبر من هذه الأسواق، وهي أسواق رئيسة تقوم على تلبية احتياجات سكان المدينة بشكل خاص من السلع المختلفة.

كما وجدت في الاحياء أسواق صغيرة عرفت بالسويقات[٣١٨]، وكانت تسد حاجة الحي أو الحارة الواحدة من الخدمات، فهي إذاً مكملة للأسواق العامة أو الرئيسة من حيث مهامها. ولدينا في بلاد الشام امثلة عديدة على ذلك، فقد ذكر ابن عساكر ست سويقات من هذا النمط، وهي سويقة باب البريد، وسويقة باب توما، وسويقة الحجامين، وسويقة كنيسة مريم، وسويقة الباب الشرقي، وسويقة الباب الصغير[٣١٩].

وفي العصر المملوكي نشأ في دمشق ضاحيتان جديدتان اتخذ كل منهما سويقة، واحدة كانت في شمال المدينة على طريق الصالحية وبيروت وعرفت بسويقة صاروجا [٣٢٠]. أما السويقة الثانية، فنشأت في الجنوب الغربي لدمشق على الطريق القادمة من عكا وصور ومصر، وكانت تعرف "بالسويقة"[٣٢١] فقط. كما ذكر البدري أكثر من خمس سويقات من هذا النوع كانت في نفس دمشق، وقد جاء توزيع معظمها على حدائق ومتنزهات دمشق، مثل متنزه النيربين المسمى بالبهنسة، ومحلة الخلخال، ومحلة المنيبع، وموضع بين النهرين حيث وجد في كل واحدة من هذه الاماكن سويقة كان "بها حانوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاني وشوا وقلاجين وسكرداني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبية وحمام". كذلك

٣١٨- السويقات، مفرد سويقة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سوق.

٣١٩- ابن عساكر، دمشق، جـ٢، ص ٢٢٩-٢٣٠.

٣٢٠- ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٣١٠؛ صفوح خير، مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن، منشورات وزارة الثقافة والسياسة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩م، ص ١٧٦ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: صفوح، دمشق.

٣٢١- صفوح، دمشق، ص ١٧٦.

ضمت ربوة دمشق الواقعة في واجهة الجبل الغربي سويقتين اثنتين[٣٢٢]. كما وجد في صالحية دمشق سويقة أخرى من هذا الشكل عرفت بسويقة القاضي[٣٢٣].

ولم يقتصر وجود هذه السويقات على دمشق وحدها، بل وجد مثلها في كل من حلب والقدس، ففي حلب وجدت سويقة حاتم[٣٢٤]، وسويقة الحجارين، وسويقة علي[٣٢٥]، وسويقة اليهود[٣٢٦]. أما القدس، فورد ذكر لسويقة واحدة هي سويقة باب حطة[٣٢٧].

ومن الملفت للنظر أن هناك نوعاً من التخصص قد عرفته أسواق بلاد الشام كغيرها من أسواق المدن الاسلامية الأخرى، فمعظم أسواقها كانت مخصصة لحرفة ما، أو بيع سلعة معينة، وقد كان لهذا النظام حسناته وسيئاته، إلاّ ان ايجابياته كانت أكثر من سلبياته، فمن حسناته أن الدولة استطاعت أن تسيطر على الأسواق والوصول اليها بكل يسر وسهولة، وذلك من خلال موظفيها الذين خصصوا لهذا الغرض[٣٢٨].

كما أن هذا الترتيب قد قلل كثافة المرور في شوارع المدينة، إذ ساعد المستهلك في الوصول مباشرة إلى سوق محدد دون الحاجة إلى التفتيش والبحث عن سلعة معينة في مختلف شوارع المدينة[٣٢٩].

٣٢٢- البدري، نزهة الانام، ص ٣٧، ٤٤، ٤٨.

٣٢٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧. Combe, Repertoire Chronologique, Vol 15, p. 62.

٣٢٤- لا نعرف شيئاً عن حاتم. انظر الطباخ، اعلام النبلاء، جـ٤، ص ٤٧١؛ الاسدي، احياء حلب، ص ٢٤٤.

٣٢٥- لاندري من هو المقصود بعلي، انظر الاسدي، احياء حلب، ص ٢٤٤-٢٤٦.

٣٢٦- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ١٤٦.

٣٢٧- غوانمه، القدس، ص ٨٢.

٣٢٨- الدوري، الاصناف، ص١؛ عثمان، المدينة الاسلامية، عالم المعرفة، الكويت، ع ١٢٨، آب ١٩٨٨، ص ٣٣١. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: عثمان، المدينة الإسلامية.

٣٢٩- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط٢، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص ١١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الشيزري، الحسبة.

وفي الوقت نفسه خدم هذا الوضع المستهلك من الغلاء أو الاحتكار، فالتاجر لا يستطيع أن يرفع سعر بضاعته خوفاً من جيرانه المنافسين له في نفس البضاعة، وبالتالي يقل احتمال حدوث الاحتكار أو زيادة في سعر السلعة[٣٣٠]، كما أن المشتري الذي لا تعجبه السلعة أو سعرها؛ له الحرية في الانتقال إلى تاجر آخر بكل يسر وسهولة [٣٣١].

وحتى من ناحية التنظيم والترتيب فإن هذا الشكل أفضل من غيره، حيث يعطي منظراً جميلاً للمدينة، علاوة على أن هناك طاقة ابداع واتقان تظهر لا مثيل لها من خلال هذا التوزيع[٣٣٢]. فمثلاً كل صانع يحاول أن ينفق سلعته من خلال جودة عمله.

أما سيئات هذا الترتيب، فاهمها أن المستهلك إذا ما أراد شراء عدة أصناف من السلع فما عليه إلاّ أن يشق المدينة طولاً وعرضاً عدة مرات بحثاً عن تلك السلع المنتشرة في انحاء المدينة[٣٣٣].

ورغم هذه الظاهرة من التخصص في الأسواق إلاّ أن ذلك لم يمنع من وجود عدد من الأسواق الجامعة لبعض أصناف من البضائع في آن واحد. مثل السوق الكبير الذي ذكره ابن جبير في مدينة دمشق والذي امتد موضعه من باب الجابية إلى الباب الشرقي من المدينة[٣٣٤]، وكان يحوي على زهاء خمس عشر الف دكان[٣٣٥]. وقد استمر

٣٣٠- سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٨٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عاشور، المجتمع المصري، زريف المعايطه، الاسواق في بلاد الشام في العصر العباسي "المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام"، عمان، ١٩٩٠م، ص ٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: معايطه، الاسواق.

٣٣١- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٢.

٣٣٢- ابن عبدون وآخرون، ثلاث رسائل اندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عبدون، الحسبة.

٣٣٣- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر في مصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٢١٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عاشور، المماليك البحرية.

٣٣٤- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦٢.

٣٣٥- كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء، المطبعة المارونية، حلب، (د.ت)، جـ١، ص ٨٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الغزي، نهر الذهب.

هذا السوق في العصر المملوكي، وظل يقوم بنفس الدور الذي لعبه من قبل، وسماه ابن المبرد "سوق باب الجابية"[٣٣٦]. كما وجد سوق آخر في مدينة دمشق وعرف بسوق البزوريين[٣٣٧]، وموقعة كان جنوب الجامع الاموي قرب سوق السلاح، حيث اهتم ببيع العطور والابازير ونحو ذلك[٣٣٨]. وفي صالحية دمشق ذكر سوق كبير فيها سمي بسوق الصالحية الكبير. ويبدو انه اختص ببيع أكثر من صنف من السلع[٣٣٩].

وفي مدينة القدس ورد ذكر لسوق كانت مهمته تماثل مهمة أسواق دمشق الكبرى، إذ لم يقتصر بيعه على نوع واحد من البضائع، بل عرض فيه أنواع مختلفة من السلع. وقد دُعي بالسوق الكبير. وكان مركزه يمتد من باب السلسلة وحتى باب الخليل[٣٤٠].

كذلك ضمت مدينة حماة بدورها سوقاً آخر من هذا النمط اطلق عليه سوق المنصورية، وقد عدّ من أهم أسواق حماه على الإطلاق، حيث عرض فيه أصناف مختلفة من السلع[٣٤١].

وعندما نشطت الحركة التجارية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لم يعد هذا النظام من التخصص قائماً إلاّ ما ندر، إذ لم يتقيد به أصحاب الأسواق فأخذ السوق الواحد يحتوي على عدة أصناف من البضائع[٣٤٢].

ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها في اطار ملاحظاتنا عن الأسواق في بلاد الشام أن كثيراً منها كانت اسماؤها تتغير مع مرور الوقت، أما بسبب تغير نشاطها، أو بسبب سكنى بعض اصحاب الحرف الأخرى في السوق، ويكفينا هنا ثلاثة

٣٣٦- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧.

٣٣٧- البزوريين: يعنى الحبوب بكافة اشكالها مثل بزور البقول وما ماثلها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة بزر.

٣٣٨- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٥.

٣٣٩- ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٣٥١.

٣٤٠- العليمي، الانس، جـ٢، ص ٥٢؛ غوانمه، القدس، ص ٨١.

٣٤١- جبران، حماه، ص ٢٤٦.

٣٤٢- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٢.

امثلة على ذلك في دمشق،واثنان في حلب.

ففي دمشق مثلاً اصبح سوق السراجين قبيل العصر المملوكي سوقاً يباع فيه القماش بدلاً من لوازم الخيل، فعرف لذلك بسوق البز[٣٤٣]. وفي نفس الوقت حل سوق البزورية مكان سوق القمح[٣٤٤]. كما نقل سوق الشماعيين سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ليحل مكان سوق الاكفان في مدينة دمشق[٣٤٥].

أما حلب، فكان فيها سوق الكتانيين والذي اصله سوق للشراشين قبل العصر المملوكي[٣٤٦]. كما ذكر إبن شداد[٣٤٧] في حلب ايضاً سوقاً قد اختص ببيع السلاح، إلاّ انه تحول في عهد إبن الشحنة سوقاً لبيع الامتعة[٣٤٨].

ومما يلفت انتباهنا ايضاً في هذا الشأن أن بعض الأسواق كانت تنشأ لكي يسكن فيها بعض أصحاب الحرف، أو السلع المنقولين من أحد الأسواق، ونضرب مثالا على ذلك السوق الذي انشأه الامير نوروز[٣٤٩] شمالي الجامع الاموي سنة ٨١٤هـ/١٤١١م، أي في نفس العام الذي انتقل اليه تجار دهشة النساء والذين كانوا يسكنون بباب البريد[٣٥٠].

ومن الملاحظات الهامة أيضاً أن أسواق بلاد الشام لم تكن دائماً تحمل اسماً مشتقاً من نوع النشاط الذي كان يمارسه السوق، إذ وجد كثير منها قد اتخذ اسمه من اسم المكان الذي اقيم فيه. ففي دمشق وجد عدة أسواق من هذا النمط، مثل سوق

٣٤٣- ابن عساكر، دمشق، جـ٢، ص ٢٢٨.

٣٤٤- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٣٨.

٣٤٥- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ٨٠.

٣٤٦- ابن العديم، زبدة حلب، جـ٣، ص ٣٩.

٣٤٧- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ١٤٤.

٣٤٨- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ١٤٢.

٣٤٩- الامير نوروز المحافظي الظاهري برقوق تولى عدة مناصب في الدولة المملوكية، ثم اظهر عصيانه على السلطان الناصر فرج. انظر السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ١٠٤-٢٠٥.

٣٥٠- النعيمي، الدارس، جـ٢، ص ٤٠٠-٤٠١.

باب الصغير، وسوق باب السريجة، وسوق باب الجابية، وسوق العمارة، وسوق الجسر بالصالحية، وسوق التحتاني بالصالحية ايضاً، وغيرها من الأسواق[٣٥١].

كما عرفت بعض الأسواق باسماء بانيها مثل سوق المنصورية في حماة[٣٥٢]، وسوق جقمق، وسوق صاروجا في دمشق[٣٥٣]، وسوق يشبك في حلب[٣٥٤] وغيرها. وهناك بعض الأسواق اشتق اسمها من اسماء بعض الجماعات التي سكنت المدينة، مثل سوق بني شداد، وسوق التركمان بحلب[٣٥٥].

ولا ننسى أن هذه الأسواق قد ضمت تجاراً مسلمين ويهود ونصارى[٣٥٦]، وكان يجري على هؤلاء الآخرين ما كان يطبق على التجار المسلمين فلهم حقوقهم وعليهم واجبات يؤدونها للدولة بالدرجة الأولى.

كذلك لم يقتصر دور هذه الأسواق على الناحية الاقتصادية بل كان لها نشاطات أخرى، فقد شاركت السلطة بافراحها واحزانها، وذلك باقامة الزينة تعبيراً عن الفرح، أو باغلاق الأسواق تعبيراً عن الحزن.

فمن الاسباب التي دفعت اصحاب الأسواق إلى إقامة الزينة ما يلي: اولها اعتلاء الدولة سلطان جديد[٣٥٧]، أو تولية احدى النيابات الشامية حاكم جديد، حيث تقام الزينة في النيابة المعين بها[٣٥٨]. كما كانت الزينة تنصب في الأسواق عند

٣٥١- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٣-٢٧.

٣٥٢- جبران، حماه، ص ٢٤٦.

٣٥٣- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧؛ عبدالقادر بدران، منادمة الاطلال ومسايرة الخيال، منشورات المكتب الاسلامي، دمشق، (د.ت)، ص ٣٢٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: بدران، منادمة الاطلال.

٣٥٤- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٣٤.

٣٥٥- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ٧٩؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٢.

٣٥٦- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ١٤٦؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٣٥.

٣٥٧- الكتبي، عيون التواريخ، (جـ٢١) تحقيق نبيله عبدالمنعم داود وفيصل السامر، دائرة الشؤون الثقافية، الجمهورية العراقية، ١٩٨٤م، ص ٤١٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الكتبي، عيون التواريخ.

٣٥٨- أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ١٢٨، ١٤٩؛ العليمي، الانس، جـ٢، ص ٣٣١.

السماع بقدوم السلطان المملوكي إلى بلاد الشام[٣٥٩]، أو عافيته من مرض ألمّ به[٣٦٠]، أو بعودته سالماً من الحج، أو حتى قدوم مولود جديد للسلطان أو بزواج ابنه[٣٦١].

كذلك كانت الزينة تعلق عندما كان المماليك يحققون انتصارات على اعدائهم[٣٦٢]، أو بالخلاص من فتنة ما[٣٦٣]، كما نصبت الزينة بالأسواق عند دخول حاكم النيابة اليها سالماً بعد اداء مهمة ما[٣٦٤]، أو حتى أداؤه لصلاة الجمعة في جامع المدينة، إذ تشهد أسواق المدينة سيما القريبة من الجامع احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة[٣٦٥].

وكانت الزينة تتم بتنظيف الأسواق وفتحها طوال الليل، وباشعال الشموع والقناديل أو المصابيح الزجاجية وتعليقها على أبواب الحوانيت وواجهاتها، وكانت فترة الزينة تختلف بحسب المناسبة واهميتها، فهي قد تمتد إلى اسبوع أو اكثر، أو تقتصر على ليلة واحدة فقط[٣٦٦].

وخلال شهر رمضان كانت الأسواق الشامية تشهد نشاطاً تجارياً لا مثيل له، حيث تعلق الفوانيس المصنوعة من الشمع على واجهات الدكاكين واطرافها، واكبر

٣٥٩- ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك (م٩، جـ٢)، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الاميركانية، بيروت، ١٩٣٨م، ص ٢٦٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الفرات، تاريخ الدول.

٣٦٠- الذهبي، دول الاسلام، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ص ٤٢٦، ٤٢٩ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الذهبي، دول الاسلام.

٣٦١- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٧-٩، ٢٦٢.

٣٦٢- ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه (جـ٣)، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٣٢٩، ٤٦٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن قاضي شهبه، تاريخه.

٣٦٣- المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، (جـ٣-٤)، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ٤، ق١، ص ١١٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي، السلوك.

٣٦٤- أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ٧٩.

٣٦٥- ابن طولون، اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد احمد دهمان، مطبوعات مديرية احياء التراث، دمشق، ١٩٦٤م، ص ١٢٦، ١٢٨، ١٩٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، اعلام الورى.

٣٦٦- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق١، ص ٤٢؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٣٠.

دور كان لأسواق الشماعين إذ تصدر لها المراسيم التي تحدد شكل ووزن الشموع الخاصة بكل مناسبة رسمية، فهناك بعض الشموع قد بلغ وزنها عشرة ارطال، وربما وصل قسم منها إلى قنطار حيث استخدمت هذه الاخيرة عند الذهاب لصلاة التراويح والخروج ليلاً، وكانت الحوانيت في هذا الشهر تستمر مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما كان يرد اليها الناس من أجل الشراء[٣٦٧].

وجرت العادة في هذا الشهر ان يشارك بعض الأشخاص غيرهم في الإفطار معهم، وبخاصة أصحابهم الذين يكونون غالباً زملاءهم في نفس المهنة، فكثيراً ما دعى تجار دمشق وكبار سوقتها اصحابهم وفقراء المدينة للافطار معهم[٣٦٨].

ومن ناحية ثانية كثيراً ما اغلقت الأسواق الشامية تعبيراً عن الحزن، وذلك بعد السماع بوفاة بعض السلاطين أو النواب العظام، فكانت تقفل أبواب الحوانيت، وربما فرشت أرض الأسواق بالرماد[٣٦٩].

ومن السمات الهامة ايضاً لأسواق الشام انها كانت تمثل مراكز اخبارية واجتماعية تناقش فيها الاوضاع السياسية والاجتماعية وحتى العلمية، فكثيراً ما ورد في بعض المصادر التاريخية اخبار يكون ناقلها قد استقاها عند جلوسه في الأسواق، فمثلاً يرد في قول بعض المؤرخين وحدثني امام حانوته[٣٧٠].

كما جرت في بعض الأسواق مناقشات فكرية، وخير دليل على ذلك ما حدث لياقوت الحموي اثناء زيارته لدمشق سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ومناقشته لمسألة الفتنة التي حدثت بين علي ومعاوية سنة٣٧هـ/٦٥٧م، مما دفع إلى اثارة اصحاب الأسواق عليه بعد ان وجدوه قد تحامل على علي بن ابي طالب، فاضطر بالنهاية إلى الفرار من دمشق إلى الموصل خوفاً على نفسه من القتل[٣٧١].

٣٦٧- احمد رمضان احمد، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، (د.ن)، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٤٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: رمضان، المجتمع الاسلامي.

٣٦٨- ابن بطوطه، الرحلة، جـ١، ص ١٢٣.

٣٦٩- النعيمي، الدارس، جـ٢، ص ١٨٥.

٣٧٠- السخاوي، كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الازهرية القاهرة، (د.ت)، ص ١٧٤.

٣٧١- القفطي، انباه الرواة على ابناء النحاة، ٤ أجزاء، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م، جـ٤، ص ٧٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القفطي، ابناء الرواة.

لذا لم يكن هناك امر هام يشغل بال الناس إلاّ وكان للأسواق باع فيه، مما خلق جواً من تبادل الاراء يمكن أن نطلق عليه الراي العام الذي يواجه الاحداث. ولما كان ذلك يسبب خطراً على آمن الدولة فقد اصدرت السلطة الأوامر بعدم السماح بمناقشة شؤون الدولة في الأسواق[٣٧٢].

ومن الأمور الملفتة للنظر أن كثيراً من الأسواق الشامية خصصت للانفاق على المساجد، والمدارس، والخوانق،والمقامات، والمشاهد، والترب، والبيمارستانات، وعامة وجوه البر، مثل الوقف "على العاجز عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها اوقاف على تجهيز البنات إلى ازواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلن على تجهيزهن، ومنها اوقاف لفكاك الاسرى، ومنها اوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون، ويتزودون لبلادهم، ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير" [٣٧٣].

ولدينا في بلاد الشام عدة أمثلة على ذلك، مثل سوق الهوى في حلب، والذي اوقف نور الدين زنكي قسماً منه لبناء بيمارستانه في حلب، أما قسمه الباقي، فصرف ريعه على عامة مصالح الجامع الكبير[٣٧٤].

وفي القدس أوقف صلاح الدين الايوبي سوق العطارين على مدرسته الصلاحية، في حين أن سوق الخضراوات وسوق القماش قد خصص ريعهما على ما كان يحتاجه المسجد الاقصى الشريف من خدمات[٣٧٥].

ولم يتوقف نظام الوقف بحلول العصر المملوكي بل ظل قائماً وزاد عما كان عليه من قبل، حيث انتشرت الاوقاف في عامة بلاد الشام، فمثلاً خصص تنكز نائب دمشق سوقاً بالقدس ينفق أمواله على المسجد الاقصى[٣٧٦]، كما جعل جقمق سوقه

٣٧٢- قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، في "موسوعة الحضارة العربية الاسلامية"، ط١، المؤسسة العربية، بيروت،جـ٣، ١٩٨٧، ص ١٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: قاسم عبده، الحياة اليومية في عصر المماليك.

٣٧٣- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٢٢.

٣٧٤- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٣٠-٢٣١.

٣٧٥- العليمي، الانس، جـ٢، ص ٥٠-٥١.

٣٧٦- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٣٨؛ دهمان، ولاة دمشق، ص ١٦٦.

الذي عمره في دمشق دخلاً يصرف ريعه على عياله وتربته وعامة انواع الخير[٣٧٧]. أما الجامع الاموي، فخصص له الصاغة الجديدة[٣٧٨]، علاوة على غيرها من الاوقاف الأخرى حتى وصل دخله اليومي الفاً ومائتي دينار كان ينفق منها عليه مائتا دينار، والباقي كان ينقل إلى خزانة السلطان[٣٧٩].

وفي حلب ذكر أن تغرى بردى الكمشبغاوي[٣٨٠] (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م) والد جمال يوسف المؤرخ المشهور[٣٨١] قد خصص نصف سوقه الذي له بحلب على جامعه في حلب [٣٨٢]. كما جعل الامير يشبك اليوسفي من سوقه في حلب، وقفاً على مدرسته التي شيدت قبله. وفي حلب ايضاً اوقف الجانب الغربي من سوق الامتعة على المدرسة الحلاوية، في حين أن جانبه الشرقي قد خصص للانفاق على الجامع القريب منه [٣٨٣].

وهكذا نلاحظ أن الوقف قد لعب دوراً بارزاً في بناء المدن الإسلامية، حيث ساعدت من ناحية في عمران المنشآت الدينية الموقوفة التي أنشئت لاهداف مختلفة بعضها لغرض سياسي وآخر لغرض ديني، كما انها ساعدت على الاهتمام بانشاء وترميم المباني الموقفة على هذه المنشآت كالوكالات، والقياسر، والخانات، والحمامات، والدور، والحوانيت، وغيرها من العمائر التجارية التي اسست لتزيد الريع الموقوف لصالح المنشآت الدينية، وامتد أثر الاوقاف أيضاً إلى النواحي

٣٧٧- النعيمي، الدارس، جـ١، ص ٤٩٠؛ بدران، منادمه الاطلال، ص ١٦١.

٣٧٨- ابن طولون، مفاكهة الخلاق، جـ١، ص ٥٥.

٣٧٩- القزويني، اثار البلاد، ص ١٩٠.

٣٨٠- تغرى بردى الكمشبغاوي رومي الاصل، كان محظوظاً عند الظاهر برقوق تولى نيابة حلب في ذي الحجة سنة ٧٩٦هـ/أيلول (سبتمبر) ١٣٩٤م. ثم عزل عنها، فنفي الى القدس وبعد ذلك تولى نيابة الشام فترة ثم عزل عنها، توفي سنة ٨١٥هـ١٤١٢م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٩.

٣٨١- الجمال يوسف هو المؤرخ المشهور والمعروف بابي المحاسن توفي عام ٨٧٤هـ/١٣٦٩م.

٣٨٢- أبو المحاسن، المنهل الصافي والمتوفي بعد الوافي، الأجزاء (١ - ٢، ٤)، تحقيق محمد محمد امين وآخرون. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤-١٩٨٦م، جـ٤، ص ٣١-٣٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو المحاسن، المنهل؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٩.

٣٨٣- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ١٤٢، ٢٣٤.

الاجتماعية والتعليمية والدينية، فساهمت مساهمة واضحة في حياة مجتمع المدنية مثلما شاركت في قيامها العمراني ممثلاً ذلك في كثرة المباني الموقوفة وحمايتها.

ومن الناحية المعمارية راعى المماليك بناء هذه الأسواق في أماكن سهلة مكنت روادها من القدوم اليها بكل يسر وسهولة، وفي نفس الوقت روعى أن يكون للسوق أكثر من منفذ ليسهل الدخول اليه والخروج منه بدون مشقة[٣٨٤].

ومن صفات أسواق بلاد الشام كذلك أنها ذات ارتفاع عال، وأن شوارعها ضيقة نسبياً، لأن وسيلة النقل في ذلك العصر لم تكن تزيد عن الحيوانات، لذلك لم تكن تحتاج مساحة كبيرة لمرورها[٣٨٥].

أما أرض السوق، ففرشت معظمها بالحجارة، ليسهل التنقل عليها سيما في فصل الشتاء، وإذا لم يكن السوق مبلطاً كان له رصيفان على الجانبين يسير عليهما الناس [٣٨٦]، وفي حالة عدم وجود الرصيف كان على أصحاب السوق الخروج منه في كل عام خلال فصل الشتاء ليتم إزالة ما حل به من الأتربة والوحل أو الطين[٣٨٧].

وبالنسبة للسقف فخضع كغيره من العمائر الأخرى لمتطلبات المناخ[٣٨٨]، حيث ضلل بالسقائف والتي يرجح أن العرب قد اخذوها عن الروم إذ كانت منتشرة في أسواق القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة البيزنطية [٣٨٩].

٣٨٤- قاسم عبده قاسم، الاسواق بمصر في عصر سلاطين المماليك، مجلة كلية الاداب القاهرة، م ٣٦-٣٧، جـ١-٢، ١٩٨١م، ص ١٦٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: قاسم عبده، الاسواق.

٣٨٥- الشيزري، الحسبة، ص ١١؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، ٣ أجزاء، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٣م، جـ٢، ص ٤٥٦-٤٥٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الصيرفي، نزهة النفوس.

٣٨٦- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٢٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٣٨، ٤٢٠.

٣٨٧- ابن عبدون، الحسبة، ص ٣٨.

٣٨٨- Abdullah Mansy Omari, the market society of Greater Syrian Cities in the Later Middle ages (1250-1517), the University of Wisconsin-Milwaukee, 1986, p. 19, (Unpublished Doctoral Thesis)

وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Omari, the market Society.

٣٨٩- الشيزري، الحسبة، ص ١١، حاشية رقم (٣).

وعلى أي حال فأسواق بلاد الشام سقفت بالحصائر الخشبية والاقبية الحجرية والمعدنية وغيرها، وقد لاحظ المقدسي ذلك حينما وصف أسواق دمشق في اواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فذكر أنأغلب أسواقها كانت مغطاة، كما وجد فيها سوقاً مكشوفاً كان يمتد على طول المدينة[٣٩٠]. وفي العصر المملوكي اصبحت جميع أسواق دمشق مسقوفة على شاكلة سقوف الجامع الاموي[٣٩١].

كذلك كانت معظم أسواق حلب مسقوفة بالحصر المنسوجة من البردى والقصب سريعة الإشتعال، مما تطلب تغيرها في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بسقوف أخرى عرفت بالجملون أو الاخشاب [٣٩٢].

كما غطيت أسواق القدس بالقباب والتي لم يكن فيها سوى ثقوب صغيرة، إذ لم تكن تسمح إلاّ بدخول الضوء من خلالها دون أن تضايق الناس من الشمس أو المطر [٣٩٣]. وفي الليل كانت تشعل داخل الأسواق القناديل والمصابيح الزجاجية، وكان لها اناس يشرفون عليها عرفوا "بالضوضئية"[٣٩٤].

وكانت مساحة السوق تختلف بحسب أهميته، فقد يصل طول السوق الواحد إلى خمسة عشر متراً فما أقل، أو إلى مائة متر أو اكثر[٣٩٥]. ولم يختلف تنظيم السوق في مدن الشام عن غيره من أسواق المدن الاسلامية الأخرى، فهو يتكون من صفين من الدكاكين على جانبي الشارع، وكان عرض الدكان الواحد بين المترين وثلاثة امتار[٣٩٦]،

٣٩٠- المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مكتبة الخياط، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص١٥٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقدسي، احسن التقاسيم.

٣٩١- الحميري، الروض المعطار، ص ٢٣٨.

٣٩٢- الغزي، نهر الذهب، جـ٣، ص ٣٩٩.

٣٩٣- زياده، رواد الشرق، ص ١٩٨.

٣٩٤- العلبي: دمشق، ص ٢٥٤.

٣٩٥- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٩٥؛ العارف، المفصل، جـ١، ص ٢٠٤.

٣٩٦- غوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، ط٣، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٣٦٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: لوبون، حضارة.

ولا تزيد عن هذا طولا ومعظمها كان له ابواب خشبية تقفل بواسطة الحبال أو غيرها من الوسائل التقليدية الأخرى[٣٩٧].

ولحماية هذه الأسواق من السرقة فقد عينت الدولة المملوكية لها حراساً وخفراء في الليل يسهرون على أمنها ورعاياتها، ولضمان يقظة الحراس والخفراء اثناء الليل كانت تقرع الطبول في القلعة على فترات منتظمة[٣٩٨]. ومع ذلك لم يلاحظ سوخم ذلك اثناء زيارته لدمشق في أواسط العصر المملوكي حيث قال: "ومع ان المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن احداً قتل في دمشق، وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع"[٣٩٩] إلاّ أن ذلك لم يدم طويلاً فسرعان ما تعرضت الأسواق للنهب أو السرقة وخاصة في اواخر عصر سلاطين المماليك[٤٠٠]، نظراً لما كانت تعانيه الدولة من اوضاع صعبة[٤٠١] مما تطلب رقابة اشد على الأسواق.

وفي النهار كان لتلك الأسواق موظفون خاصون لذلك مثل المحتسب وغيره، وكانت مهامهم تنحصر في مراقبة النشاط التجاري للأسواق خدمة للمستهلك والتاجر والدولة في آن واحد، فيمنع التجار أو الباعة من الغش أو التلاعب في الاوزان أو المكاييل أو الأسعار، ويتخذ في ذلك عقوبات صارمة بحق المخالفين[٤٠٢].

٣٩٧- أمين أبو دمعه، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الايوبي، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة دمشق، ١٩٨٨م، ص ١٨٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو دمعة، الحياة الاقتصادية.

٣٩٨- البدري، نزهة الانام، ص ٣٦-٣٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص ٢٣١؛ مدثر عبد الرحيم، المؤسسات القضائية في كتاب "المدينة الاسلامية" ترجمة احمد محمد تغلب، السيكوموفجر، اليونسكو، ١٩٨٣، ص ٤٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عبدالرحيم، المؤسسات القضائية.

٣٩٩- زياده، رواد الشرق، ص ١٨٤.

٤٠٠- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٤٩، ٦٨، ١٢٦-١٢٧، ١٦٤، ١٧٧.

٤٠١- انظر الفصل الرابع العوامل المؤثرة في الأسواق.

٤٠٢- انظر الفصل السادس المعاملات.

كذلك حافظت الدولة المملوكية على الأسواق من حيث إصلاحها وتوسيعها فمثلاً أمر نائب دمشق جمال الدين بن يغمور[٤٠٣] (٥٦٩/١١٧٣-٦٦٣هـ/١٢٦٤م) بازالة ما في وسط باب البريد من الدكاكين باستثناء الحوانيت التي كانت ملاصقة لباب البريد، وبعد ازالة تلك الحوانيت امر برصف باب البريد[٤٠٤].

وفي دمشق ايضاً حدث في أواخر عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩ وبداية سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م أن وسعت الطرقات والأسواق بدمشق وخارجها، مثل سوق السلاح، والرصيف، والسوق الكبير، وباب البريد، وخارج باب الجابية، كما ازيلت الاماكن التي بنيت في المنطقة الممتدة من باب جسر الحديد وحتى باب الفراديس. وخلال شهر رمضان ٧٣١هـ/ حزيران (يونيو) ١٣٣١م أصلحت أرضية سوق الخيل وبلطت بالحجارة، وقد استخدم لهذا الغرض حوالي اربعمائة شخص واستمر العمل في ذلك مدة اربعة ايام حتى اصبح السوق صالحة للاستعمال، إذ كان قبل ذلك تتجمع فيه مياه كثيرة مما سبب اعاقة لروادة. كما تم إصلاح سوق الدقيق الواقع داخل باب الجابية حيث ظلل السوق بالسقوف[٤٠٥]. وحدث في حلب ما حدث في دمشق حيث اقدم نائبها علاء الدين ألطنبغا[٤٠٦] في شوال ٧٣٨هـ/نيسان (ابريل) ١٣٣٨م بتوسيع الطرق التي في الأسواق، وذلك اقتداء بما فعله تنكز نائب دمشق في أسواق دمشق[٤٠٧].

٤٠٣- جمال الدين بن يغمور الياروقي موسى ولد بالصعيد سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م تولى نيابة مصر ونيابة الشام توفي سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م). انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٤، ص٢١٣.

٤٠٤- ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص ٢٥٩؛ بدران، منادمة الاطلال، ص ٢٢٣.

٤٠٥- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٥٠، ١٦٠.

٤٠٦- علاء الدين الطنبغا الحاجب الناصري، تولى نيابة حلب عام ٧١٤هـ/١٣١٤م، ثم نقل منها الى مصر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، بعدها اعيد إلى نيابة حلب عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م، ثم عزل عنها سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، بسبب نزاعه مع تنكز نائب دمشق، حيث عين بعدها نائباً لغزة، ثم تولى نيابة الشام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، واخيراً قتل في الاسكندرية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م. انظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦، جـ١، ص ٤٣٦-٤٣٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حجر، الدرر الكامنة.

٤٠٧- أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ١٢٣؛ ابن الوردي، تتمة لمختصر، جـ٢، ص ٤٥٢.

يتضح من كل ما ورد ذكره عن الأسواق الشامية الدائمة في العصر المملوكي أن نشاطاً تجارياً ملحوظاً قد بلغ اوجه في هذا العصر إذا ما قورن بالعصور الاسلامية السابقة، وقد دلّ على ذلك تعدد الأسواق في مدن بلاد الشام بشكل عام، وأسواق دمشق وحلب والقدس وعجلون بشكل خاص.

ولعل ذلك راجع لاسباب عدة وهي ما سوف نتحدث عنها في الفصل الرابع من هذا البحث عند الحديث عن العوامل المؤثرة في الأسواق الشامية إيجاباً، مثل الموقع المتوسط لبلاد الشام بين الشرق والغرب، واهمية بلاد الشام الدينية، والاقتصادية، علاوة على ما لعبته الطرق التجارية العالمية من زيادة النشاط التجاري لبلاد الشام، ولا ننسى ايضاً ما قام به بعض السلاطين والنواب المماليك في اصلاح وتعمير كثير من الأسواق التي كانت بحاجة إلى ذلك، بالاضافة إلى عوامل أخرى اشتركت معاً في خدمة الحركة التجارية في بلاد الشام.

الفصل الثاني

الأسواق غير الدائمة

أولاً: الأسواق الموسمية

ثانياً: الأسواق السنوية

أ- الأسواق الإعتيادية

ب- أسواق على طرق الحاج الإسلامي

١- أسواق على طريق الحاج الشامي

٢- أسواق على طريق الحاج المصري

جـ- الحاج المسيحي

د- الأعياد

هـ- المشاهد

و- تجار الغرب

ثالثاً: الأسواق الأسبوعية

أ- داخل المدن

ب- خارج المدن

رابعاً: الأسواق المرافقة للجيش

خامساً: الأسواق الطارئة

أولاً: الأسواق الموسمية

عرفت بلاد الشام منذ ما قبل الإسلام -كغيرها من البلدان الأخرى[١]- قيام أسواق تعقد في وقت معلوم، ومكان معين، فكان في بلاد الشام ثلاثة أسواق هي: سوق دير أيوب[٢]، وسوق بصرى[٣]، وأخيراً سوق أذرعات[٤]. ولعل السبب في إختيار

١- كان للعرب قبل الاسلام اسواق موسمية تعقد في شهور من السنة، ينتقلون من بعضها الى البعض الاخر، ويفد اليها سائر العرب للبيع أو الشراء، وتقع هذه الاسواق في مواضع مختلفة ومتناثرة داخل جزيرة العرب، واختلف بعض المؤرخين في عددها، وتاريخ انعقادها. لمزيد من التفاصيل انظر ابن حبيب، كتاب المحبر، اعتنى بتصحيح هذا الكتاب إليزه ليختن شتير، دار الافاق الجديدة، بيروت، (د. ت)، ص ٦٣-٢٦٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حبيب، المحبر؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ جزء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، جـ١، ص ٢٧٠-٢٧١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ؛ الهمذاني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، دار اليمامة، الرياض، السعودية، ١٩٧٤م، ص ٢٤٧-٢٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الهمذاني، جزيرة العرب؛ المرزوقي، كتاب الازمنة والامكنة، ٢ جزء، دائرة المعارف، حيدر آباد الهند، ١٩١٣م، جـ٢، ص١٦١-١٦٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: المرزوقي، الأزمنة؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص٤٦٨؛ محمد أمين السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ت) ص ١١٩ - ١٢٠. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: السويدي، سبائك الذهب؛ محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الاثري، ط٣، دار الكتاب العربي بمصر، (د.ت)، جـ١، ص ٢٦٤-٢٧٠، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الالوسي، بلوغ الارب؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠ أجزاء، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٠م، جـ٧، ص ٣٦٩-٣٨٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: جواد علي، المفصل؛ عمر ملا حوش، اسواق العرب واثرها في اللغة والأدب، مجلة كلية الاداب، بغداد، ع ٢١، ١٩٧٧م، ص ٣٩٩-٤١٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ملا حويش، اسواق العرب.

٢- دير ايوب: قرية من قرى حوران التابعة لدمشق. كان هذا السوق يقام في ٢٣ نيسان (ابريل) من كل عام. ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٩٩؛ القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص١١٨. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: القزويني، عجائب المخلوقات.

٣- بُصرى: كان يقام هذا السوق في ١٠ تموز (يولية) من كل عام. انظر القزويني، عجائب المخلوقات، ص١١٩.

٤- أذرعات: قرية في طرف الشام، بجوار ارض البلقاء وعمان، وعرفت فيما بعد باسم درعا. كان ينصب هذا السوق في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) من كل عام. انظر ياقوت معجم البلدان، جـ١، ص ١٣٠؛ القزويني، عجائب المخلوقات، ص١١٥.

هذه المواقع بالذات أنها كانت تمثل مناطق مكشوفة يمكن للمرء رؤيتها عن بعد، علاوة على أنها كانت ملتقى للطرق التجارية الرئيسة والثانوية الواردة والصادرة عنها [٥]. فهي إذاً بحق مواضع متعددة المنافذ والمسالك يسهل الدخول اليها، والخروج منها بكل يسر وبدون مشقة.

كما عرفت بلاد الشام نوعاً آخر من الأسواق الموسمية اعتمدت قيامها على ورود التوابل الشرقية من الهند والصين وقد ارتبطت هذه الأخيرة بمواعيد هبوب الرياح الموسمية [٦]، حيث لعبت هذه الرياح دوراً حيوياً في ازدهار التجارة من عصر إلى آخر في وقت لم تكن قد عرفت فيه الآلة بعد [٧].

وفي الغالب كانت تصل السلع الشرقية إلى الموانيء الشامية في اوقات الحج، حيث يرافق وصولها وصول السفن الاوروبية لتحمل هذه السلع إلى الغرب في فصل الخريف وقبل دخول فصل الشتاء [٨].

وفي الفترة الواقعة بين وصول السلع الشرقية إلى الموانيء الشامية وشحن هذه السلع إلى الغرب كانت تنصب الأسواق التجارية في بيروت، وطرابلس، وعكا، وصور، وغزة، واللاذقية [٩].

وكانت تتم المعاملة في هذه الأسواق بطريقة المزايدة، والمقايضة، وكان السبب في ذلك قلة الذهب في دور الضرب، ورفض الشام التعامل بالفضة وغير ذلك من الأسباب التي كانت دافعاً في اللجوء لنظام المقايضة[١٠].

٥- دائرة المعارف الاسلامية، م١٢، ص ٣٨٢.

٦- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٣.

٧- محمد يوسف، علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور الى القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الاداب، جامعة فؤاد الأول، بالجيزة، م١٥، ج١، مايو ١٩٥٣م، ص ١٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: محمد يوسف، علاقات العرب التجارية.

٨- فهمي، طرق التجارة، ص ١٧٩.

٩- المرجع نفسه، ص ١٧٨، ٢٨٣؛ لامنس، تجارة سورية، ص ٩٢١.

١٠- توفيق اسكندر، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط، المجلة التاريخية المصرية م٦، ١٩٥٧م، ص ٤٠-٤٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اسكندر، نظام المقايضة، ولمزيد من التفاصيل انظر الفصل السادس المعاملات.

أما السلع المستخدمة في المقايضة فكانت التوابل من جهة، والفواكة الجافة وزيت الزيتون والعسل والصابون والبندق واللوز والمعادن غير النفيسة من جهة أخرى[١١]. وعند عودة السفن الاوروبية إلى الغرب تكون الأسواق التجارية المخصصة لتلك السلع قد حان وقت انعقادها[١٢].

ثانياً: الأسواق السنوية

أ. الأسواق الإعتيادية

حفلت بلاد الشام بنوع آخر من الأسواق عرفت بالأسواق السنوية كانت تعقد مرة واحدة كل عام. فمنها ما خضع للتقويم الهجري أو إلى التقويم الميلادي. ويتميز الأول عن الثاني في أن الأسواق التي اعتمدت على التقويم الهجري لم تكن ثابتة على مدار العصور، فهي تتغير مع الزمن من سنة إلى أخرى فمثلا السوق الذي كان يعقد في فصل الصيف لا يبقى موعده ثابتاً في الصيف فمع مرور الوقت سوف يعقد في الفصول الثلاثة الاخرى. أما الميلادي فكانت ثابتة فما كان يعقد في فصل الصيف يبقى ينصب كما هوفي زمنه دون تغير وإن طال الزمن، وذلك بسبب اعتمادها على التقويم الميلادي أو الشمسي.

وتواجه الدارس لهذا النوع من الأسواق عقبة واضحة ليس بسبب قلة المعلومات المتوفرة عنها فحسب، ولكن بسبب اضطرابها وعدم وضوحها. فمثلا القزويني اورد لنا ثمانية أسواق من هذا الصنف[١٣]، ذكرنا ثلاثة منها عند حديثنا عن الأسواق الموسمية (سوق دير أيوب، سوق بُصرى، سوق اذرعات). وبقي لدينا خمسة أسواق فقط. إذ ينقصنا شرح وافٍ عنها من حيث:الدقة في تحديد مكانها ! والى أي عصر تعود؟ ومن الذي كان يقيمها، ويشارك بها؟ وعليه فسوف نبذل قصارى جهدنا للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها.

١١- اسكندر، نظام المقايضة، ص ٤٢.

١٢- عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط١، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٠، ص ٤٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زيتون، العلاقات الاقتصادية.

١٣- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١١٥-١٢٠.

اعتاد الروم أن يتخذوا لهم من العام موعداً ثابتاً لإقامة سوق أو أكثر في العام الواحد. وقد كان لبلاد الشام نصيب جيد في هذه الأسواق، حيث اقيم بها ثلاثة أسواق هي: دير أيوب، وبصرى، وأذرعات. استمر اثنان منها حتى العصور الوسطى وهما الاخيران. أما الأول فيبدو أنه توقف قبل هذا التاريخ.

وفي الإسلام نهج المسلمون في اقامة التحريات لاقامة مثل هذا النوع من الأسواق، إذ اختير لها مواضع تكون عادة خارج أسوار المدينة، أو عند اطرافها، ليتمكن التجار من ارتيادها، والنزول بها، ثم الرحيل عنها بكل يسر وسهولة. كما أن مساحة المدينة لم تكن تسمح باقامة مثل هذا الصنف من تلك الأسواق التجارية الضخمة [١٤]. علاوة على أن قيام الأسواق خارج المدينة لا يؤذي ساكنها بقدوم التجار ورحيلهم، وما يحدثونه من ازعاج بالمناداة والمساومة على بضائعهم من أجل بيعها.

ففي دمشق مثلا يذكر ان سوقاً تجارياً كان يقام بها في كانون الأول (ديسمبر) من كل عام. وقد عرف بإسم "سوق قضيب البان"[١٥]، وربما يعود تاريخه إلى العصر العباسي الأول (١٣٢/٧٤٩-٢٣٢هـ/٨٤٦م) إذ كان لبلاد الشام نشاط اقتصادي في هذا العصر، وفي الوقت نفسه اهتم بعض الخلفاء العباسيين بإقامة هذا النمط من الاسوق[١٦]. ويبدو ان هذا السوق ظل يعقد في موعده حتى العهد المملوكي، إلاّ ان موضعه ربما تغير، فأصبح ينصب في توما ولذا عرف "بسوق توما"[١٧].

وهناك في مدينة القدس وتحديداً منذ زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠/٧٨٦-١٩٣هـ/٨٠٩م) اتخذ من يوم الخامس عشر من ايار (مايو) من كل عام موعد لإجتماع الناس في سوق عام للتجارة[١٨]. ويبدو أن هذا السوق لم يستمر نشاطه

١٤- عثمان، المدينة الاسلامية، ص ١٧٥؛ علي السيد، القدس، ص ٢١٠.

١٥- محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ أجزاء، (د.ن)، بيروت، ١٩٧١م، جـ٤، ص ٢٣٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: كرد علي، خطط الشام.

١٦ محمد حسن، التجارة الاسلامية في عصور مختلفة من الاسلام، مجلة المقتطف، م١٠٣، جـ٥، ١٩٤٣م، ص ٤٧٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: حسن، التجارة الاسلامية.

١٧- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١١٦.

١٨- عبدالرحمن سعيد حموده، بيت المقدس في عهد المماليك، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة الأزهر، ١٩٧٩م، ص ١٥٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: حموده، القدس.

التجاري حتى العصر المملوكي إذ لم يرد ذكر لمثل هذا السوق اللهم إلاّ ذكر لسوقين آخرين، احدهما مجهول المكان، واكتفى ذاكره بالقول انه في الحادي والعشرين من نيسان (ابريل) من كل عام كان يقوم سوق بفلسطين[١٩].

أما السوق الآخر فقد بدأ عقده في القدس منذ اواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إذ خصص له يوم الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل عام [٢٠]. فكان يقصده اعداد كبيرة من التجار من مختلف الأقطار، مثل تجار بيزا، والبندقية، وجنوه، ومرسيليا، فيقومون بشراء ما توفر من سلع تجارية مثل القرنفل وجوز الطيب والتوابل المستوردة من الهند، والفلفل والبهار المصدر اليه من اليمن، والكتان المجلوب اليه من مصر، والزئبق والمرجان والمعادن والزجاج القادم من صور، واللوز والزعفران علاوة على الملابس الثمينة والأسلحة التي كانت تفد اليه من دمشق[٢١]. كما شارك في هذا السوق قسم من حجاج الديار الشامية، وذلك بعد تأديتهم لفريضة الحج في مكة[٢٢] سيما وان درب الحج عند عودتهم إلى الشام كان قريباً إلى فلسطين[٢٣].

كما شهدت مدينة عمان هي الأخرى نشاطاً تجارياً ملحوظاً في العصر المملوكي، إذ لم تكتف بتقديم السلع التجارية للحاج الذاهب إلى مكة فحسب[٢٤]، بل أن سوقاً

١٩- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١١٨.

٢٠- هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص ٥٩.

٢١- علي السيد، القدس، ص ٢١٠.

٢٢- التميمي، النظم والطرق التجارية بين الشرق والغرب قبيل الحروب الصليبية، مجلة المقتطف، م٩٨، جـ٣، ابريل، ١٩٤١م، ص ٢٧٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: التميمي، الطرق التجارية.

٢٣- ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار (السفر الثاني) مخطوط نشره معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، جامعة فرانكفورت، المانيا الاتحادية، ١٩٨٨م، وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالسليمانية، استنبول تحت رقم (٢٢٢٧). ورقة ٣٣٧ - ٣٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، السفر الثاني.

٢٤- غوانمه، عمان، ص ١٦٠.

تجارياً كبيراً كان يقام فيها في العاشر من آب (أغسطس) من كل عام[٢٥]. ولا نعتقد ان ما ذكره القزويني كان يقصد به عُمان[٢٦] الواقعة جنوب شرق الجزيرة العربية إذ ان جميع الأسواق التي اوردها لا تخرج عن نطاق بلاد الشام.

هذه الأسواق السنوية التي ذكرناها أنفاً لم تكن مواضعها تتجاوز اطراف المدن، أو بالقرب منها. وهناك طائفة أخرى من هذه الأسواق السنوية كانت تعقد في اماكن بعيدة نوعا ما عن المدن، فمثلا اتخذ في سهل حوران سوق سنوي اقيم في صيف كل عام، حدد موضعه بمزيريب[٢٧] التي كانت هي احدى منازل الحاج الشامي في أواخر الدولة المملوكية، فكان يشارك فيه الحجاج القادمين من مكة، والتجار الوافدين من العراق، والقدس، واوروبا بعامة[٢٨].

كما اقيم على جبل الطور المشرف على طبرية في الاردن سوق أخر كان يجتمع اليه الناس في كل عام، وذلك لوجود بيعة كانت في ذلك المكان، ولم يحدد ياقوت تاريخ انعقاد ذلك السوق وانما اكتفى بالقول:" الطور جبل بعينه مطل على طبرية الاردن، بينهما اربعة فراسخ[٢٩]، على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء، موثقة الارجاء، يجتمع في كل عام بحضرتها سوق"[٣٠]. فلا شك إذاً أن من شارك في ذلك السوق لم يقتصر على التجار النصارى فحسب، بل أن تجاراً من المسلمين ولا سيما من المناطق القريبة لهذا السوق قد قدّموا ما لديهم من سلع تجارية لعرضها للبيع. وربما أن هذا السوق هو الذي عناه القزويني في العصر المملوكي حينما ذكر ان سوقا في الاردن كان ينصب في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) في كل عام[٣١]. أي بعد قيام سوق توما في دمشق بعشرة ايام.

٢٥- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١١٩.

٢٦- عُمان، مدينة تقع على ساحل بحر اليمن والهند. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ١٥٠.

٢٧- انظر هذا الفصل، ص ٨٣.

٢٨- هايد، تاريخ التجارة جـ١، ص ١٨٣.

٢٩- الفرسخ: يساوي ٦كلم. انظر فالترهنتس، المكاييل والاوزان الاسلامية، ترجمه عن الالمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ٩٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: هنتس، المكاييل.

٣٠- ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٧.

٣١- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١١٦.

وفي منبج[٣٢] ذكر أن سوقاً سنوياً كان يعقد بها في أول ايلول (سبتمبر) من كل عام [٣٣]، أي بنفس الشهر الذي كان يقام فيه سوق القدس، وهو الخامس عشر من ايلول (سبتمبر).

وخلاصة القول أن بلاد الشام قد انتعشت اقتصادياً بإقامة مثل هذا النوع من الأسواق السنوية، حيث استغل التجار بمختلف مستوياتهم هذه الفرصة الثمينة في عرض بضائعهم، وفي الوقت نفسه شراء ما يلزمهم من السلع. ولا غرابة أيضاً أن شارك البدو هم الأخرون في هذه المناسبات، وذلك بمقايضة ما لديهم من منتوجات حيوانية.

ب. أسواق على طريق الحاج الإسلامي

١- أسواق على طريق الحاج الشامي

كان لموسم الحج ومرور قوافله عبر بلاد الشام إلى مكة أثره الهام في قيام العديد من الأسواق[٣٤]، حيث تنصب الأسواق في درب الحاج اثناء استراحة الحاج في كل منزل[٣٥] من المنازل التي يرتاح فيها. وكان يشارك في تلك الأسواق اهالي البلاد

٣٢- منبج: مدينة قديمة بينها وبين الفرات ١٨كم وبينها وبين حلب ٦٠كم. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٢٠٦.

٣٣- القزويني، عجائب المخلوقات، ص ١٢٠.

٣٤- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٥.

٣٥- يختلف المنزل عن محطة الاستراحة بعدة امور هي: ان من شروط المنزل ان يتوفر فيه الكلا والماء والسوق، ثم السكان. اما الاستراحة، فليس شرطاً ان تتوفر فيها هذه الشروط جميعاً، وربما يكفي وجود الكلا او الماء فقط. كذلك فان اقامة الحاج في المنزل قد يستغرق بضعة ايام، في حين ان مكوث الحاج في محطة الاستراحة قد لا تتجاوز تناول العشاء، ثم يستانف المسير، وهناك اختلاف اخر في طول المسافة، فالمسافة بين المنزل والاخر تراوحت ما بين ٤٥-٦٥ كيلاً، بينما المسافة بين محطة الاستراحة والتي تليها قد لا تتجاوز عشرين كيلاً فقط. انظر صالح درادكه، طريق الحج الشامي في العهد الاموي، "المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام"، عمان، م١، ١٩٨٧م، ص ٤٤١ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: درادكه، طريق الحج.

المجاورة والقريبة من تلك المنازل، إذ يقدمون ما لديهم من السلع التي يحتاجها الحاج، كما يحضرها البدو فيبادلون بضائعهم بما يلزمهم من السلع[٣٦].

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد أن طريق الحاج عبر بلاد الشام قد تغير عدة مرات خلال العصور الإسلامية المختلفة، كما تبدّلت منازله واماكن استراحاته لارتباطه بالاوضاع السائدة في كل عصر، فقد غير الحاج مساره حرصاً على سلامته من اعتداء البدو أو قطاع الطرق، أو بسبب انعدام الأمن بشكل عام، وربما غير دربه كذلك من أجل اختصار مسافة الطريق. ومع ذلك لم يثبت طريق الحاج إلاّ في القرن الساس عشر عندما شيّد العثمانيون القلاع على طول الطريق الشامي واقاموا الصهاريج المملوءة بالماء العذب، حينها استقر الطريق منذ ذلك التاريخ[٣٧].

ولذا ففي اواسط الدولة المملوكية تغير درب الحاج ومنازله عما كان عليه في أواخر الدولة المملوكية. ففي منتصف الدولة المملوكية[٣٨] كان الحاج الشامي يجتمع في دمشق، فيضم بين صفوفه حاج فارس وشمال العراق وحلب وديار بكر[٣٩]، ثم يخرج إلى الكسوة[٤٠] فينزل بها يوماً أو يومين، ليواصل بعدها رحلته إلى الصنمين[٤١] ثم إلى ازرع، فيقيم بها يومين، ثم يرحل عنها إلى بصرى فينزل الحاج بها ثلاثة أو اربعة ايام [٤٢] ليلحق به من تخلف من الحاج بدمشق فيتزود الحاج منها[٤٣]، ثم يرحل إلى الزرقاء، فيقيم فيها الركب يوماً أو يومين، ثم يتجه إلى زيزا[٤٤]، حيث ينزل فيها

٣٦- يوسف غوانمه، التاريخ الاسلامي بحث في الموسوعة الاردنية، ط١، عمان،جـ١، ١٩٨٩م، ص ٢٧٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، التاريخ الاسلامي.

٣٧- درادكه، طريق الحج، ص ٤٤١.

٣٨- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٤-٣٣٥.

٣٩- غوانمه، التاريخ الاسلامي، ص ٢٧٤.

٤٠- الكسوة: قرية من قرى دمشق. أنظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٦١.

٤١- الصنمين: قرية في اول حوران تبعد عن دمشق مسافة يومين. أنظر المصدر نفسه، جـ٣، ص ٤٣١.

٤٢- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٤.

٤٣- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٢٨.

٤٤- زيزا: قرية من قرى البلقاء. ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١٦٣.

ثلاثة أو أربعة ايام[٤٥]، فينصب للحاج بها سوق تجارية كبيرة[٤٦]، يشترك في اقامته تجار المناطق المجاورة، وبخاصة تجار مدينة عمان بسبب قربهم من هذا المنزل[٤٧]. كما كان يفد إلى هذا السوق البدو للمشاركة في عملية البيع والشراء، وكانت تتم تلك الطريقة بواسطة المقايضة، فيبيعون ما لديهم من الغلال والاجبان والبسط والماشية، ويشترون ما يلزمهم من السلع المختلفة[٤٨].

بعد ذلك كان الحاج يكمل رحلته إلى اللجون[٤٩]، فالكرك، حيث يستقرون في مكان يعرف بالثنية خارج الكرك، فيقيمون به عدة ايام[٥٠]، فينضم اليهم الحاج الكركي [٥١]، ويسيرون جميعا إلى الحسا[٥٢] فيتزودون منها[٥٣]، ثم ينتقلون بعدها إلى مدينة معان[٥٤] آخر بلاد الشام[٥٥]، فينزل الحاج بها مقدار ثلاثة ايام، تعقد لهم سوق تجارية تلبي حاجة الركب[٥٦]. ثم يتجهز الحاج منها لدخول البرية باتجاه عقبة

٤٥- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٤-٣٣٥.

٤٦- ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ١٦٣.

٤٧- ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٧؛ يوسف غوانمه، عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء، عمان، ١٩٧٩م، ص ١٦٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، عمان.

٤٨- غوانمه، عمان، ص ١٦٠.

٤٩- اللجون: بلدة بالاردن تبعد عن طبرية ٤٠ كلم، وعن مدينة الرملة بفلسطين ٨٠ كلمً، انظر ياقوت معجم البلدان، جـ٥، ص ١٣.

٥٠- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٥.

٥١- غوانمه، التاريخ الاسلامي، ص ٢٧٤.

٥٢- الحسا: اسم مكان في طريق مؤتة. انظر الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠٥.

٥٣- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٥.

٥٤- معان: مدينة في طرف الشام وأول الحجاز تابعة للبلقاء. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص١٥٣.

٥٥- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٢٩.

٥٦- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١٣.

الصوان، ثم إلى ذات الحج، ومنها إلى تبوك[٥٧]، وهكذا إلى المدينة المنورة، فمكة المكرمة[٥٨].

هذا عن طريق الحاج الشامي حتى اواسط الدولة المملوكية، أما في اواخر عهد المماليك، فكان طريق الحاج الشامي عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م[٥٩] على النحو الآتي:-

كان الحاج الشامي ينزل عند قبة يلبغا جنوب دمشق، حيث تعدّ أول مراحله، فيقيم بها يوماً أو يومين ليلحق به من تخلف من الركب، ليتجه الحاج بعدها إلى خان ذي النون[٦٠]، فالشيخ مسكين، فطفس، فالمزيريب، وهذه الاخيرة كان الحاج يقيم بها عدة ايام، وهناك يتبعهم من تأخر من الحاج، كما ينضم اليهم حجاج تلك المناطق، فيعقد لهم سوق كبيرة في هذا المكان إذ يخرج اليهم التجار ومعهم أصناف البضائع فيشتري منهم الحاج ما يلزمهم من الأقوات والسلع[٦١].

وبعد المزيريب كان الحاج يتجه إلى درعا، حيث يقام لهم سوق تجارية كبيرة يشارك فيه البدو، وسكان المناطق المجاورة، حتى أن بعض سكان دمشق كانوا هم الاخرون يشتركون في ذلك بالشراء أو البيع[٦٢]. ثم يتابع الركب بعد ذلك مجتازاً الاردن من الشمال ماراً بالرمثا، فينزل فيها اياماً ينصب خلالها سوقاً تجارية[٦٣]. وقد

٥٧- تبوك: موضع بين وادي القرى والشام. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ١٤.

٥٨- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٥.

٥٩- العلبي، دمشق، ص ١٥١. نقلاً عن ابن طولون، البرق السامي في منازل الحج الشامي (مجامع تيمور، ٧٩) القاهرة، ورقة ٢١٥-٢١٦.

٦٠- خان ذي النون: نسبة الى علاء الدين علي بن ذي النون الاسعردي احد كبار التجار توفي بدمشق في ذي القعدة ٧٧٨هـ/ آذار (مارس) ١٣٧٧م. انظر المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٢٩٨.

٦١- ابن كنان، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت اسماعيل، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤١٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المواكب الاسلامية؛ العلبي، دمشق، ص ١٥١. نقلاً عن ابن طولون، البرق السامي، مخطوط، ورقة ٢١٦.

٦٢- البصروي، تاريخ البصروي، (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة ٨٧١هـ ولغاية سنة ٩٠٤هـ) تحقيق اكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٥٦-١٥٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: البصروي، تاريخه.

٦٣- غوانمه، التاريخ الاسلامي، ص ٢٧٤.

دلّ على ذلك تلك التحريات الاثرية التي اجرتها جامعة اليرموك، واكدت على وجود اعداد كبيرة من القطع الفخارية في هذه المدينة والتي يرجع تاريخها إلى العصر المملوكي [٦٤].

وكان الركب يواصل سفره بعد ذلك إلى أرض المفرق، فالزرقاء، فاللجون التي ينزل بها الحاج يومين. فيعقد لهم في هذا المكان سوق تجارية يتزود منه الحاج بما يلزمهم من السلع، وبخاصة من بضائع القدس التي كانت ترد اليهم منها. بعد ذلك كان على الركب أن يجتاز محطات ثانوية ليصل بعدها إلى حالة عمار، فتبوك، وهكذا دواليك إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة[٦٥].

يتضح مما تقدم أن درب الحاج الشامي اختلف مساره كما تغيرت منازله في نهاية الدولة المملوكية عما كان عليه الحال في اواسطها. فمثلا اصبحت المزيريب في اواخر عهد المماليك منزلا يقيم فيها الحاج ويعقد لهم فيها سوق تجارية عظيمة[٦٦] بدلا من بصرى التي كان ينزل بها الركب في منتصف الدولة المملوكية.

كما لاحظنا ايضاً أن الأسواق التي كانت تنصب للحاج لم تكن تقام إلاّ في المواضع التي كان يقيم فيها الركب يوماً أو أكثر، حيث يفد اليها القاصي والداني، وتعمها البضائع بمختلف الاشكال والالوان. ولم يكن نزول الحاج بهذه المنازل عشوائيا بل كان يقوم على التخطيط المدروس والمعد له مسبقاً.

فمثلا أن هذه المنازل أو (المناهل) كما يسميها البعض[٦٧] كانت تفي بحاجة الحاج أكثر من غيرها فهي قريبة من القرى أو المدن التي كانت تزود الحاج بما يلزمه من الزاد والماء أو الدواء. مثل الكسوة، والصنمين، وبصرى، وأذرعات، والرمثا،

٦٤- انظر ملفات مديرية الاثار العامة، اربد.

٦٥- العلبي، دمشق، ص ١٥١ نقلاً عن ابن طولون، البرق السامي، مخطوط ورقة ٢١٦.

٦٦- N. A. Ziadeh, Urban Life in Syria under the early Mamluks, Greenwood press, Westport, connecticut, 1970, p. 134.

وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Ziadeh, Urban Life.

٦٧- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٤.

والمفرق، وعمان، والكرك، ومعان، وغيرها من القرى أو المدن الشامية القريبة من تلك المنازل. علاوة على ذلك فإن هذه المناهل كانت خصبة فيها الكلأ والماء مما دفعت بالحاج إلى النزول فيها ومثال هذا محطة زيزا التي كانت تحوي بركة ماء، ونهر عرف بالزرقاء يجري إلى جانبها[٦٨]. لذا كان نزول الحاج في هذه المنازل امراً ضروريا بعد قطع تلك المسافات الطويلة التي تراوحت بين ٤٥-٦٥ كيلا[٦٩]. سيما وان المسافة بين دمشق ومكة قد قدرت باربعين يوما[٧٠].

أما موضع السوق، فاختير له مكان مناسب فسيح وسهل، يسهل على الحاج النزول به والرحيل عنه. علاوة على ذلك فقد مكن هذا الموضع التجار من عرض بضائعهم أو سلعهم فيه دون ضيق أو مانع.

وعند عودة الحاج الشامي من الديار المقدسة كانت تنصب لهم ايضاً الأسواق التجارية في منازلهم، وقد عبر عن ذلك شيخ الربوة حينما وصف معان بقوله:" مدينة صغيرة على سيف البرية... وهي اليوم منزلة للحجاج، يقام بها سوق في غدوهم ورواحهم"[٧١].

وهذا دليل واضح على أن الأسواق التجارية لم يكتف بنصبها عند ذهاب الركب إلى الحج فحسب، بل أنها كانت تقام عند رجوعهم كذلك. وبعد ذلك كان الحاج يتجه من معان إلى الحسا فزيزا فالزرقاء ثم إلى دمشق مروراً باذرعات أو بالقرب منها دون الدخول إلى بصرى أو ازرع[٧٢].

٦٨- ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١٦٣؛ ابو الفداء، كتاب تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص ٢٤٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: أبو الفداء، تقويم البلدان.

٦٩- درادكه، طريق الحاج، م١، ص ٤٤١.

٧٠- لابروكييه، رحلته ص ٣٢٢.

٧١- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١٣.

٧٢- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٧-٣٣٨.

٢- أسواق على طريق الحاج المصري

ومثلما كان للحاج الشامي أسواق تقام على الطرقات، كان للحاج المصري أيضاً أسواق تنصب عند منازله، ابتدأ من بركة الحاج أول منازل الحاج المصري، ومروراً بأيلة [٧٣] (العقبة) إلى الحجاز.

وما يهمنا من هذا المقام منزلة الحاج بأيلة (العقبة) التي كانت من ضمن بلاد الشام، [٧٤] إذ كان يفد إليها حاج الأندلس، وشمال إفريقيا، ومصر، والمغرب، وحاج فلسطين، وبعض حاج جنوب الأردن[٧٥]. حيث يعقد لهم سوق تجارية عدّ من أكبر الأسواق التي تنصب للحاج على الإطلاق[٧٦]. إذ كانت أعداد الركب النازلة في هذه المدينة قد وصلت في العصر المملوكي إلى ثمانين ألف راحلة من الجمال عدا عن الحيوانات الأخرى [٧٧]. مما يدل دلالة واضحة على ضخامة تلك الأسواق التي كانت تقام في هذه المدينة، إذ يقصدها التجار من غزة والكرك والشوبك والقدس والطور وغيرها من الأنحاء [٧٨].

فكان يصلها من غزة الدبس والدقيق والشعير والزيت وغيرها من السلع، ومن الكرك والشوبك والقدس مختلف أنواع الثمار مثل الزبيب واللوز العربي والرمان

٧٣- أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الاحمر) تقع في اخر الحجاز، وأول الشام. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٢٩٢.

٧٤- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، وورقة ٣٣٢.

٧٥- ابن العبدري، الرحلة، ص ١٥٩.

٧٦- يوسف غوانمه، أيلة (العقبة) والبحر الاحمر، واهميتها التاريخية والاستراتيجية، دار هشام، اربد، ١٩٨٤م، ص ٧٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، أيلة.

٧٧- ابن العبدري، الرحلة، ص ١٥٦.

٧٨- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٢؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطرق مكة المعظمة، ٣ أجزاء، دار اليمامة، الرياض، السعودية (د.ت) جـ٢، ص ١٣٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الجزيري، الدرر الفرائد.الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٣٣٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الورثيلاني، نزهة الانظار.

والعنب والتفاح والجوز وغيرها من البضائع[٧٩]، علاوة على الجبن الخليلي الكركي [٨٠]. كما كان يفد إليها البدو حاملين معهم الأبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدواب كل ذلك من أجل البيع والشراء[٨١]. وقد مدح ابن فضل الله العمري تلك الأسواق التي كانت تقام للحاج بأيلة بقوله: وتنصب بها "الأسواق العظيمة الممتدة المتشبعة التي لا توجد في أمهات الأقاليم، وكبار المدن" حتى "أنه لا يعدم فيها موجود من الخيل، والابل، والغنم، والدقيق، والشعير، والعلف، والأمتعة، وغير ذلك" [٨٢]. كما كان يباع فيها "المحكمات المأخوذة من البحر الملح"[٨٣].

ووجد الجزيري ملحاً أبيض نقياً على شكل قوالب السكر معروضاً للبيع في سوقها المقام للحاج "لا يشك من رآه أنه سكر طبرزد" ويقول الجزيري:"فسألت عن صناعته، فأخبرت أنه ظل ينزل ليلاً. فتوضع القوالب الفخار في سوق الخان[٨٤] ليلاً، وتصبح مملوءة وجامدة، وتباع وهو غريب ما يمكن"[٨٥].

وفي الغالب كانت تستمر تلك الأسواق ما بين يومين إلى خمسة ايام[٨٦] أي بحسب إقامة الحاج في أيلة. وقبيل رحيل الركب عنها إلى حقل[٨٧]، كان الحاج يودعون اثقالهم وبضائعهم في أيلة إلى حين رجوعهم من اداء فريضة الحج، لذا" ترى الحاج كأن جدد السفر بحصول الاستراحة"[٨٨].

٧٩- الجزيري، الدرر الفرائد، جـ٢، ص ١٣٤٨الورثيلاني، نزهة الانظار، ص ٣٣٢، ٣٦٧.

٨٠- ابن الصيرفي، انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق وتقديم حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٤٢٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الصيرفي، انباء الهصر.

٨١- الورثيلاني، نزهة الانظار، ص ٣٣٤.

٨٢- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٢.

٨٣- الجزيري، الدرر الفرائد، جـ٢، ص ١٣٤٨.

٨٤- خان العقبة: اسس في العصر المملوكي، ومن المرجح انه يعود الى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨/١٢٦٠-٦٧٦هـ/١٢٧٧م). انظر غوانمه، الاردن الحضاري، ص ١٨٩-١٩٤.

٨٥- الجزيري، الدرر الفرائد، جـ٢، ص ١٣٤٧-١٣٤٩.

٨٦- ابن فضل الله العمري، السفر الثاني، ورقة ٣٣٢؛ الورثيلاني، نزهة الانظار، ص ١٥٩-١٦٠.

٨٧- حقل: قرية تقع على البحر الاحمر بالقرب من ايلة. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٧٨.

٨٨- الورثيلاني، نزهة الانظار، ص ٣٦٧.

وهكذا يتضح أن موسم الحاج الشامي والمصري لم يكن دينياً فحسب، بل كان تجارياً ايضاً، حيث اعتاد التجار مرافقة الركب عند خروجه للحج، فمثلا عند خروج الحاج الشامي من دمشق كان يصحب معه التجار[٨٩] ولاسيما تجار البهار والعبي[٩٠] وغيرهم، حتى التجار النصارى كانوا يرافقون الحاج الشامي في سفره إلى الحجاز، إلاّ انه لم يسمح لهم باجتياز مدينة العلا[٩١] إذ يرجعون منها[٩٢].

وقد استفاد هؤلاء التجار وغيرهم من تجار وباعة القرى والمدن القريبة من اقامة تلك الأسواق التجارية، كما استغل البدو هذه الفرصة الثمينة لمقايضة منتجاتهم سيما إذا علمنا ان اعداد الحاج الشامي القادمة من دمشق قد قدرت وحدها في العصر المملوكي بين ستة عشر وعشرين الف حاج[٩٣]، كانوا يتجهون في كل عام لاداء هذه الفريضة. مما يدل بصراحة على الربح الهائل الذي كان يجنيه اولئك التجار والباعة والبدو وعامة من شارك في تلك الأسواق.

وعند عودة قوافل الحاج الشامي من الديار المقدسة بعد اداء فريضة الحج، كانوا يصطحبون معهم سلعاً تجارية متنوعة كالجواهر مثل الآزورد بالإضافة إلى العسجد والورق والنحاس[٩٤]، علاوة على التوابل والبهار. وكانت هذه السلع تجلب من الهند والصين إلى جده، ثم إلى مكة والمدينة، ومن هناك كانت تنقل بواسطة قوافل الحاج إلى الشام[٩٥].

٨٩- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٢٥-٢٦؛ البصروي، تاريخه، ص ٤٥-٤٦.النعيمي، الدارس، جـ١، ص ١٥٧.

٩٠- البصروي، تاريخه، ص ٢١٨.

٩١- العلا: تقع بين الشام ووادي القرى. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ١٤٤.

٩٢- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٣١.

٩٣- زياده، دمشق، ص ١٠٥.

٩٤- ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٤٣٤؛ Ziadeh, urban life, p. 89

٩٥- علي الحسني، تاريخ سوريا الاقتصادي، مطبعة بدائع الفنون، دمشق، ١٣٤٢هـ، ص ١٣٣ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الحسني، تاريخ سوريا؛ ايرا لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة سهيل زكار، ط١، دار حسان، دمشق، ١٩٨٥، ص ١٩٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: لابيدوس، مدن الشام؛ محمد امين صالح، تجارة البحر الاحمر في عصر المماليك الجراكسة، مجلة الدارة، ع٢، يناير ١٩٨١م، ص ١٢٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: صالح، تجارة البحر الاحمر.

وهناك اشاراتان تدلان بوضوح على ارتباط التجارة بالحج، ومدى ضخامة ذلك النشاط التجاري، الاشارة الاولى وردت عند إبن الصيرفي فذكر في احداث ٨٤٢هـ/١٤٣٨م أن الركب الشامي قد تعرض للإعتداء اثناء رجوعه من مكة، وفقد لحاج غزة وحدهم "ثلاثة الآف جمل باحمالها ما بين عسجد، وورق، ونحاس، وبضائع، وجواهر، حتى اللازورد، والمياه، والعبيد، والجواري، وشيء كثير لا يحصره الانسان"[٩٦].

أما الاشارة الثانية، فقد وردت عند لا بروكيية حيث صادف دخول قافلة للحاج الشامي قادمة من الحجاز إذ استمر دخولها إلى الشام يومين كاملين[٩٧].

وخلاصة القول أن اقامة الأسواق التجارية على درب الحاج الشامي والمصري قد ارتبطت بذهاب الناس للحج، وتوقفت بانقطاع الحج. وحدث ذلك في أكثر من مرة إذ انقطع فيها الحج لأسباب سياسية وربما اقتصادية كانت تمر بها البلاد، مثلما حدث ذلك في عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م إلى عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م حيث لم يذهب الحاج الشامي إلى الحجاز مقدار اثني عشر عاماً بسبب التتار[٩٨]. وكذلك الحال انقطع الحج الشامي في الاعوام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، و٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٩٩]، و٧٧٢هـ/١٣٧٠م، و٧٧٩هـ/١٣٧٧م، و٧٩٢هـ/١٣٨٩م[١٠٠]، وانقطع الحاج ثلاث سنوات من عام ٨٠٣/١٤٠٠-٨٠٦هـ/١٤٠٣م كذلك بسبب التتار[١٠١].

٩٦- ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٤٣٤.

٩٧- لابروكييه، رحلته، ٣٢٠-٣٢١.

٩٨- عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والأخبار، ٣ أجزاء، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨م، جـ١، ص ٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الجبرتي، عجائب الاثار.

٩٩- الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ٦١٤، ٦١٩.

١٠٠- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٦٩-٧٠.

١٠١- ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، جـ١، ق٢، ص ٦٥٧، ٦٧٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن اياس، بدائع الزهور.

كما توقف الركب الشامي عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[١٠٢]، وكذلك انقطع مدة اربع سنوات من عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م إلى عام ٩١٦هـ/١٥١٠م[١٠٣].

وقد انعكس ذلك سلبيا على الناحية التجارية والصناعية، فتعطلت صنائع كثيرة كانت قد اعتمدت في نشاطها على ذهاب الناس إلى الحج[١٠٤]، ولم يعوض هذا النقص تلك الاعداد القليلة من التجار التي كانت تخرج من الشام برفقة الركب الغزاوي إلى أيلة، إذ كان يشارك هؤلاء في اقامة تلك الأسواق التي كانت تنصب للحاج في أيلة، كما حدث ذلك في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وعام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[١٠٥]، وعام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م حيث خرجت اعداد من التجار بصحبة الحاج الغزاوي من دمشق إلى غزة، ثم إلى أيلة (العقبة)[١٠٦].

ومن جهة ثانية فإن انقطاع الناس عن الحج قد انعكس ايجابياً على اقتصاد القدس بالذات، والمناطق المجاورة لها بعامة، بالرغم من شح المعلومات، والتي تؤيد ذلك في العصر المملوكي، إلاّ ان ما اورده ناصر خسرو في اواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي لهو اكبر دليل على ذلك، فقد ذكر ان من لم يستطع الذهاب إلى مكة لاداء فريضة الحج، كان يتجه في اوائل ذي الحجة إلى القدس لاداء تلك الفريضة فيذهب إلى الموقف، ويضحي ضحية العيد كما هي العادة[١٠٧].

فهذا دليل واضح على ما كان يجنيه سكان القدس، والمناطق القريبة من دخل كبير في هذا الموسم، سيما إذا علمنا أن اعداد من كان يحضر إلى ذلك المكان قد قدرت بعشرين الف شخص تقريبا[١٠٨].

١٠٢- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق١، ص ٢٢.

١٠٣- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٣٤١.

١٠٤- المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤١؛ الحسني، تاريخ سوريا، ص ١٣٣.

١٠٥- الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ٦١٤، ٦١٩.

١٠٦- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق١،ص ٢٢؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ٦٨٨.

١٠٧- خسرو، سفرنامه، ص ٥٥.

١٠٨- المصدر نفسه، ص ٥٥.

جـ. الحاج المسيحي

ومثلما كان للمسلمين أسواق تجارية تعقد على طول درب الحاج الشامي أو المصري، كان للحاج المسيحي ايضا أسواق تجارية تنصب عند قدومهم إلى الديار المقدسة في فلسطين، إلاّ ان الأسواق التي اقيمت لهم كانت ثابتة في موعدها لاعتمادها على التقويم الميلادي بعكس الأسواق التي نصبت للحاج الإسلامي، والتي اعتمدت على التقويم الهجري أو القمري. ولذا كان يتغير موعد انعقادها من عام إلى آخر، ومع الزمن كانت تقام على مدار فصول السنة الاربعة.

فمنذ وصول الحاج إلى يافا كانت تعقد لهم الأسواق التجارية، وقد شارك في اقامتها تجار من الرملة، والقدس، وغيرها من المناطق المجاورة والبعيدة ايضاً. ولدينا صورة واضحة عن ذلك، نقلها الينا فابري في اواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حينما نزل في يافا إذ يقول:" وجاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشا، وعساليج رطبة، فابتعناها منهم، وجعلناها فراشا تقام عليه، ثم جاءنا تجار من الرملة، والقدس، ومعهم بضائع معطرة، واقاموا هناك سوقاً، وكانوا يحملون ماء ورد في قوارير ثمينة جاؤا به من دمشق، وكان ثمن القارورة بنسيا واحدا بندقيا، وكان البعض يحملون السلم، والمسك، والصابون، والحجارة الكريمة، وقماشا الموصلين الابيض" ثم يواصل حديثه " وكان التجار ومرافقوهم معطرين، بحيث انتشرت الروائح الزكية حولهم، ثم احرقوا البخور والصمغ العربي حول المكان الذي كنا نقيم فيه. ثم جاء آخرون كانوا يقلون البيض بالزيت، كما كان غيرهم يحملون ارغفة الخبز، والماء البارد، والفواكة، والكعك الطازج، وعند المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوموا بحراستنا"[١٠٩].

ومن هنا يتضح أن سكان المناطق المجاورة لنزول الحاج المسيحي قد استفادت اقتصادياً من اقامة مثل هذه الأسواق، حيث عادت عليهم بالربح الوفير، والخير العميم. وكان بعض الباعة يرافقون الحاج طوال تنقلاتهم داخل الاراضي المقدسة في فلسطين، فيقدمون للحاج الاطعمة المتنوعة والفاكهة والمشروبات المكونة من التمر واللوز والسكر، طوال سفر الرحلة من يافا إلى الرملة، ثم إلى القدس[١١٠]. وحتى عند

١٠٩- زياده، فابري، ص ١٩٥-١٩٦.

١١٠- علي السيد، القدس، ص ٢١٠.

زيارة الحاج إلى بعض المعالم الدينية المقدسة كان الباعة يفدون الى الحاج حاملين الخبز والماء والطعام والفواكة من أجل بيعها للحاج[١١١].

وامام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة كان يقام للحاج المسيحي سوق تجارية كبيرة في كل عام، حيث خصص له موضع مستقل في فناء الكنيسة، وعرف ذلك باسم سوق موسى[١١٢]. فكان يحضره الحاج من مختلف الاقطار من الشام، ومصر، وبلاد الروم، والافرنج، وبلاد الارمن، وغيرها من البلدان[١١٣]. فيشترون منه الحليّ، والمسابح والصور الدينية، والتحف الشرقية. وعند انتهاء القداس الديني كان يسمح للمسلمين والمسيحين بدخول الكنيسة وبيع ما لديهم من البضائع المختلفة[١١٤].

وكان فابري من قبل قد وصف لنا تلك الأسواق بصورة أكثر ايضاحاً بقوله: «وحيث كان الحجاج يتجمع حولهم التجار، فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى الشرقيين، ودخلوا معنا، فلما اقفلت الابواب عمد بعضنا إلى المساومة، وقضوا في ذلك شطراً من الليل أن لم يكن الليل كله، ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة، لكنها تعدتها إلى القماش الدمشقي والحرير، واعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في أسواق بلادهم، لان ذلك دون مكانتهم الاجتماعية، لم يتحرجوا من الشراء في مثل هذا المكان المقدس، ولم تكن غاية الجميع ان يبتاعوا اشياءً لانفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها الى بلادهم للاتجار بها والربح، وقد اشترك بعض رجال الدين في اعمال البيع والشراء هذه»[١١٥].

وهكذا نلاحظ أن زيارة الحاج المسيحي إلى الاراضي المقدسة في فلسطين، كان لها أثر ايجابي في ازدهار النشاط الاقتصادي لبلاد الشام بعامة، ولفلسطين بخاصة، ممثلاً ذلك باقامة الأسواق التجارية خدمة لهؤلاء الزوار.

١١١- زيادة، فابري، ص ١٩٧.

١١٢- علي السيد، القدس، ص ٢٠٨.

١١٣- العليمي، الأنس، جـ٢، ص ٥١.

١١٤- علي السيد، القدس، ص ٢٠٨-٢٠٩.

١١٥- زيادة، رواد الشرق، ص ١٩٩-٢٠٠.

د. الأعياد

اعتاد الناس في بلاد الشام الخروج إلى أماكن خاصة بحلول الاعياد[١١٦]، ولا سيما الاعياد الاسلامية منها، وذلك من أجل الترفيه عن النفس، واخذ قسط من الراحة. وكانت هذه الاماكن تختار في الغالب خارج اسوار المدينة، أو في ضواحيها، واقتضى الامر بطبيعة الحال اقامة الأسواق في هذه المواضع خدمة لهؤلاء الزوار.

فمثلاً في دمشق جرى التقليد أن يخرج سكانها جميعاً بمختلف اعمارهم إلى القابون [١١٧] التحتاني في أول خميس من جمادى الاولى من كل عام[١١٨]. وقد عرف ذلك اليوم بأسم "خميس البيض"[١١٩].

وكذا الحال يقال عن عيد «قبر الست» والذي كان يصادف في أول احد من السنة الهجرية، وآخر احد منها، حيث خصصت قرية السيدة زينب بنت علي الواقعة إلى الجنوب من دمشق لاستقبال الناس في هذا العيد[١٢٠].

١١٦- عرفت بلاد الشام في العصر المملوكي العديد من الاعياد غير الاسلامية مثل الاعياد الزراعية كعيد الزبيب وكان يصادف مع نهاية قطاف العنب، وعيد الجوز وموعده كان بانتهاء قطاف الجوز. كما كان لاهل الذمة هم الاخرون اعيادهم الخاصة بهم، فمثلاً المسيحيون كان لهم عدة اعياد وهي على التوالي: العيد الكبير، ويأتي بعد صومهم الكبير، وعيد الغطاس، وعيد لهم في اول نيسان، وعيد البربارة، وعيد الدبر، وخميس النصارى، وعيد لهم يلي خميس البيض. اما اليهود، فكان لهم في الشام عيدان هما: عيد النور، وعيد الفطير. انظر عبد الودود يوسف، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر من مخطوطة تلميذ عبدالقادر النعيمي -يوميات دمشقية- مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، م٢٣، ١٩٧٣م، ص ١٩٥-١٩٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عبدالودود، جوانب اجتماعية.

١١٧- القابون: بلدة كبيرة تقع شمالي دمشق على بعد ٢كلم. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٩٠؛ القلقشندي صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٠٢.

١١٨- ابن طولون، ضرب الحوطة على جميع الغوطة، نشرها وعلق عليها محمد اسعد طلس، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م٢١، كانون الثاني ١٩٤٦م، ص ١٥٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، ضرب الحوطة؛ عبدالودود، جوانب اجتماعية، ص ١٩٥-١٩٦.

١١٩- ابن طولون، ضرب الحوطة، ص ١٥٩؛ عبدالودود، جوانب اجتماعية، ص ١٩٦.

١٢٠- عبدالودود، جوانب اجتماعية، ص ١٩٦.

كما شارك مسلمو دمشق هم الاخرون ايضاً اليهود والنصارى فرحتهم في هذه الاعياد، فمثلاً كانوا يخرجون إلى القابون في خميس النصارى، والذي كان موعده يصادف مع عيد الفطر عند اليهود[١٢١].

أما في الاعياد الاسلامية، فلدينا عيدان هامان عند المسلمين هما: الفطر، والاضحى، فعيد الفطر يأتي بعد شهر الصيام الذي هو موسم للتقوى. اما عيد الاضحى، فيرافق اداء فريضة الحج بعد مكة. والمبدأ العام من هذين العيدين انهما مكافأة للمؤمن. وكان من السنة تأدية صلاتهما خارج المدينة أو القرية[١٢٢]، فمثلاً اعتاد المسلمون في مدينة دمشق صلاة هذين العيدين خارج دمشق في مكان عرف بالمصلى[١٢٣].

ومما يلفت الانتباه هنا أن سوقين تجاريين قد ذكرا عند مصلى دمشق[١٢٤] ولا نستبعد ان واحداً منهما على الاقل قد خصص عقده في هذين العيدين، وذلك تلبية لحاجة المسلمين من السلع التجارية في هاتين المناسبتين.

وبعد اداء صلاة هذين العيدين كان الناس يخرجون إلى المتنزهات، أو الحدائق الخضراء الجميلة التي حفلت بهما بلاد الشام، ففي حلب مثلاً كان الناس يقصدون إلى اطراف المدينة كباب المقام[١٢٥]، وخارج باب النيرب[١٢٦]، وباب الفرج[١٢٧]، وباب

١٢١- المرجع نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.

١٢٢- البخاري، صحيح البخاري، ٩ اجزاء، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، جـ١، ص١٣٣. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: البخاري، صحيح.

١٢٣- ابو المحاسن، النجوم، جـ٨، ص ١٢.

١٢٤- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٣٥؛ ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٨.

١٢٥- باب المقام: سمي بذلك لانه كان يخرج منه إلى جهة مقام الخليل عليه السلام. انظر ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٤٣.

١٢٦- باب النيرب: عرف بذلك لانه كان يقصد منه الى قرية سميت بهذا الاسم. انظر ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ٢١؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٤٣.

١٢٧- باب الفرج: كان يعرف بباب العبارة، كما اطلق باب الفرج على احد ابواب القلعة. انظر ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٤٥.

النصر [١٢٨]، حيث كانت تقام لهم الأسواق "وتصنع انواع الفنون، وتعقد به الحلق لارباب الصنائع، ويباع فيه أنواع المأكل" وكان يشهد ذلك العرض التجاري الناس بمختلف مستوياتهم [١٢٩].

هـ. المشاهد

شهدت زيارة المقابر نشاطاً تجارياً ملحوظاً استغله الباعة والتجار لبيع ما لديهم من بضائع أو سلع تجارية، حيث اتخذت بعض المقابر كما في قرية روحين التابعة لمدينة حلب موسماً لخروج الناس اليها كل العام، إذ احتوت على مشهد يعتقد بانه لقس بن ساعده الإيادي [١٣٠].

فبعد امتلاك الفرنج للبلاد بعد عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م اتخذته النصارى معلماً دينياً مقدساً حتى جعلوه "مساوياً في التعظيم لبيت المقدس" فكانوا يقصدونه في اخر صومهم من كل عام حيث يقضون عيدهم عنده [١٣١].

وعندما حررت البلاد اهتم المسلمون هم به، واولوه عناية خاصة، فانفقوا الاموال واوقفوا الاملاك عليه. واتخذوا منه موسماً لخروجهم اليه في كل سنة. ولم يحدد إبن شداد اسم ذلك الشهر، وفي أي يوم من العام يكون اجتماعهم عنده، وانما اكتفى بالقول أن اجتماعهم كان يبدأ من يوم السبت إلى يوم الجمعة من كل عام أي بحدود سبعة ايام. وقد عرف ذلك الموسم "خميس الرز" وهو الموسم الذي سمي بمصر "بخميس العدس" فكان يفد اليه في تلك الايام الناس من كل صوب من حلب، وحماه، وحران، وبالس [١٣٢]، حتى تكاد أن تخلو هذه المدن من ساكينها، فكانوا يحتفلون ويقيمون عنده احتفالاً يضاهي احتفال مكة بموسم الحج [١٣٣].

١٢٨- باب النصر: كان يعرف قبل المماليك بباب اليهود، لان منازل اليهود كانت من داخله، ومقابرهم من خارجه، ثم غلب عليه فيما بعد اسم النصر فعرف باب النصر. انظر ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ٢٢؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٤٤.

١٢٩- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٥٥.

١٣٠- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ٥٦.

١٣١- المصدر نفسه، جـ١، ق١، ص ٥٦.

١٣٢- بالس: بلدة بالشام تقع بين حلب والرقة انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٣٢٨.

١٣٣- ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ٥٦.

يتضح مما تقدم ان هناك موعداً ثابتاً كان يجتمع فيه الناس لزيارة ذلك المكان، مما تطلب اقامة الأسواق الضخمة المشتملة على جميع الاصناف، لتفي بحاجة ذلك الازدحام البشري الهائل الذي كان يؤم المكان. وقد ترفع تلك الأسواق بانتهاء ذلك الموعد، أي عند رحيل الناس عن ذلك الموضع.

وكذلك الحال يقال عن مشهد آخر قرب حلب كان يجتمع عنده الارمن في خميس نيسان (ابريل) من كل عام[١٣٤]، فلا غرابة ايضاً ان تنصب عنده هو الاخر، وبنفس الموعد أسواق تجارية تلبي حاجة رواده، وتنفض بانتهائه.

و. تجار الغرب

هناك نوع آخر من الأسواق السنوية عرفتها بلاد الشام، بحيث ارتبط قيامها بقدوم تجار الغرب اليها، وفي البداية نظم هؤلاء التجار قدومهم إلى الشام بمواعيد انعقاد الأسواق في الاعياد الاسلامية، إلاّ ان ذلك الاجراء لم يناسبهم مع مرور الوقت، سيما بعد ازدياد الطلب على السلع الشرقية في اوروبا من ناحية، ولأن مواعيد تلك الاعياد الاسلامية غير ثابتة بسبب خضوعها للتقويم الهجري من ناحية اخرى[١٣٥]. ويبدو ان الاوروبيين كذلك لم يلائمهم توقيت هذه الاعياد لعدم قيام الأسواق عندهم في اوروبا[١٣٦]، وقد يكون لرداءة الطقس، وعدم صلاحيته للملاحة دور في هذا المجال، لذلك تطورت هذه الأسواق ابتداء من القرن الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس عشر الميلاديين لتصبح أسواقاً نصف سنوية، وربع سنوية[١٣٧].

فكانت البندقية ترسل سفنها إلى الشام مرتين أو أكثر في العام الواحد، فالرحلة الاولى كانت تصل في الفترة الواقعة بين الثامن والخامس والعشرين من آب (أغسطس) إلى كل من صور، وصيدا، وعكا، وحيفا، وطرابلس، والسويدية التي كانت

١٣٤- المصدر نفسه، جـ١، ق١، ص ٥٧.

١٣٥- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٤.

١٣٦- زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص ٤٢.

١٣٧- انطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية، ط٢، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢١٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ضومط، الدولة المملوكية؛ اسكندر، نظام المقايضة، ص ٤٠.

تعرف بيمارسمعان، ثم اخيراً بيروت[١٣٨] والتي تغلبت في نهاية المطاف على سائر المدن الاخرى منذ القرن الخامس عشر[١٣٩].

اما الرحلة الثانية، فكانت تصل إلى بيروت في الخامس عشر من ايار (مايو) في كل عام [١٤٠]. ولم يقتصر ذلك النشاط التجاري على البندقية وحدها فحسب، بل ان بيزا هي الاخرى قد شاركتها في السفر إلى بلاد الشرق الاوسط مرتين في كل عام [١٤١]. في حين ان جنوه قد قصر سفرها إلى بلاد الشام مرة واحدة فقط في كل عام [١٤٢].

وعموماً فقد كان لكل طائفة من هؤلاء التجار موضع خاص في تلك الأسواق، حيث كان يبدأ عملهم بها الى ما بعد الظهر، ولا يعودون إلى منازلهم إلاّ في المساء[١٤٣]. وفي اواخر تشرين الاول كانوا يرجعون إلى بلادهم دفعة واحدة فيقلعون في عدة سفن كانت تصل احياناً إلى اثنتين وعشرين سفينة تكون سارية في وسط الماء[١٤٤].

١٣٨- فهمي، طرق التجارة، ص ٤٥-٤٦؛ لامنس، تجارة سورية، ص ٩٢١.

١٣٩- لامنس، تجارة سورية، ص ٩٢١؛ Ziadeh, Urban Life, p. 134.

١٤٠- فهمي، طرق التجارة، ص ١٤٩.

١٤١- المرجع نفسه، ص ٤٨.

١٤٢- الحسني، تاريخ سوريا، ص ١١٠-١١٢.

١٤٣- فايد حماد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الاسلامي في العصر الايوبي، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٢٥٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عاشور البندقية.

١٤٤- لا منس، تجارة سورية، ص ٩٢٢.

ثالثاً، الأسواق الاسبوعية

شهدت بلاد الشام نمطاً اخر من الأسواق اطلق عليها الأسواق الاسبوعية، لانعقادها في اغلب الاحوال في يوم أو يومين من الاسبوع، وعلى مدار العام، وهي على نوعين: أسواق داخل المدن وأسواق خارج المدن.

أ- داخل المدن

وكانت تقام عادة في الساحات العامة للمدينة، وفي الاماكن الخالية من العمران [١٤٥]. ففي دمشق مثلاً ذكر ان سوقاً تجارياً عرف اسمه بذلك اليوم الذي كان يعقد فيه وهو الاحد، حيث يعود تاريخه إلى عصور قديمة، وقد خصصت الساحة العامة في المدينة للانعقاده، إلاّ ان نشاطه التجاري لم يستمر حتى العصر المملوكي إذ تلاشى وانعدم[١٤٦] بالرغم من ورود ذكره في بعض المصادر المملوكية[١٤٧].

كما خصص في دمشق ايضاً يوما الاثنين والخميس من كل اسبوع لبيع الجواري والرقيق [١٤٨]، واللذين كانا يتم جلبهما من المناطق الجنوبية للبحر الاسود[١٤٩]. وقد حدد مكان لبيعهم عرف بالتكة شرقي سوق جقمق[١٥٠]، كما بيع الجواري والرقيق أيضاً في سوق الشيخي وسوق المارستان القريب من القلعة [١٥١]. وقد بيع في هذه الأسواق اعظم السلاطين المماليك مثل السلطان قطز[١٥٢] (٦٥٨هـ/١٢٥٩-٦٥٩هـ/١٢٦٠م) والسلطان الظاهر

١٤٥- الغزي، نهر الذهب، جـ١، ص ٨٧-٨٨.

١٤٦- سوفاجيه، دمشق، ص ٤١.

١٤٧- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١١٦؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، جـ٢٠، تحقيق شعيب الارنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٩٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الذهبي، سير النبلاء؛ ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٨٤.

١٤٨- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧.

١٤٩- سوفاجيه، دمشق، ص ٣٩-٤٠.

١٥٠- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٧٧.

١٥١- المصدر نفسه، المشرق، ص ٢٤، ٢٦؛ العلبي، خطط دمشق، ص ٤٥٢.

١٥٢- الكتبي، فوات الوفيات، جـ٣، ص ٢٠١.

بيبرس البندقداري [١٥٣] (٦٥٩هـ/١٢٦٠م-٦٧٦هـ/١٢٧٦م) وغيرهم من السلاطين والأمراء المماليك.

ولقد كان لهذا السوق اهمية خاصة من جانب المماليك لا لكونه مرتبطاً بالشؤون العسكرية، وامور الأمن فحسب، بل لانه كان يزود الخزينة بالكثير من الموارد المالية، لذا فقد شدد المماليك الرقابة عليه لسببين اثنيين:

الأول: خوفاً من ان يقوم الجواسيس بالدخول إلى هذا السوق، وكشف مناطق الضعف في البلاد، وارسالها إلى اعداء المماليك، مما كان يشكل بالتالي خطراً على أمن الدولة[١٥٤].

والثاني: ان المماليك كانوا بحاجة إلى الخدم الأمين، والحرس الخاص المخلص، فكانوا يبحثون عن ذلك من خلال هذا السوق، ليجدوا فيه ضالتهم[١٥٥].

كذلك شارك اهل دمشق وحلب في هذين اليوميين ببيع ما يلزم الجيش من الاطعمة والاسلحة والسروج والخيل وغير ذلك من السلع التي اعتادوا عرضها ايام المواكب [١٥٦]. حيث اعتاد النائب في كل من دمشق وحلب الخروج في يومي الاثنين والخميس ومعهما العسكر المكون من الأمراء، ومقدمي الحلقة، واجنادهما إلى مكان فسيح وواسع، لاقامة العروض العسكرية[١٥٧]، فيراقب الحاكم الخيل والسلاح، ويصدر القرارات ثم يعلن الترقيات[١٥٨]، بعد ذلك كان يعود النائب ومعه العسكر من حيث اتى [١٥٩].

١٥٣- أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جـ٣، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ٤٤٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو المحاسن الوافي؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٣٠٨-٣٠٩.

١٥٤- زياده، دمشق، ص ١٦٠.

١٥٥- المرجع نفسه، ص ١٦٠.

١٥٦- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١١٤؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٠٢، ٢٢٩.

١٥٧- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٠٢، ٢٢٩.

١٥٨- سوشاجيه، دمشق، ص ٤٠؛ Ziadeh, Urban Life, p. 88.

١٥٩- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٠٢، ٢٢٩.

ففي زمن إبن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) كان نائب دمشق يخرج ومعه العسكر إلى سوق الخيل الكائن تحت القلعة[١٦٠]. إلاّ أن ذلك المكان قد تغير في جمادى الاولى عام ٧٦٠هـ/أذار (مارس) ١٣٥٩م[١٦١] ويبدو أن السبب في ذلك هو ضيق المكان الذي كانت ترتب فيه النيابة، ولذا اصبح نائب دمشق في عهد القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) يختار لخروج الجند معه واحداً من المواضع التالية، فإما إلى ميدان إبن اتابك، أو إلى قبة يلبغا جنوب دمشق، أو إلى المزة[١٦٢] غرب دمشق، وإما إلى القابون شمالي دمشق. في حين أن سوق الخيل قد اقتصر أمره على خروج العساكر اليه في يوم هام مثل حضور رسل من بعض ملوك الدول الاجنبية، أو نحو ذلك[١٦٣].

أما حلب، فقد اعتاد حاكمها الخروج في هذين اليومين أبتداء من دار النيابة، ومروراً بوسط المدينة قريباً من القلعة، عبر سوق الخيل، ثم الخروج منه، ومن باب النيرب إلى مكان عرف بالميدان أو القبة جنوب حلب، ثم العودة بنفس الطريق الذي قدم منه بعد الانتهاء من مراسم النيابة[١٦٤].

وعموماً نلاحظ أن أصحاب المتاجر وذوي الحرف في كل من دمشق وحلب بشكل خاص والمناطق القريبة بشكل عام، قد استغلوا هذه الفرصة بخروج العساكر في هذين اليوميين إلى هذه الاماكن، ليعرضوا سلعهم وصناعاتهم المختلفة حيث عادت عليهم بالربح الوفير والخير العميم.

وفي يوم الجمعة من كل اسبوع كانت معظم مدن بلاد الشام تشهد أقامة الأسواق، نظراً لما يمثله هذا اليوم من اجتماع المسلمين معاً،وترك اعمالهم لتأدية صلاة الجمعة، حيث استغل التجار هذا الاجتماع بإقامة الأسواق في مختلف المدن الشامية.

١٦٠- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١١٤.

١٦١- الذهبي، ذيول العبر في خبر من غبر، جـ٤، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، جـ٤، ص ١٨٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا. الذهبي، ذيول العبر.

١٦٢- المزة، قرية كبيرة غرب دمشق، على مسافة ٣كم تقريباً. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ١٢٢؛ ابن طولون، ضرب الحوطة، ص ١٦٠-١٦١.

١٦٣- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٠٢.

١٦٤- المصدر نفسه، جـ٤، ص ٢٢٩.

فمثلاً في مدينة دمشق كان يباع في هذا اليوم الجمال، والبقر[١٦٥]، والفواكه[١٦٦]، واتخذ كل واحد من هذه الاصناف سوقاً خاصة به نصب تحت القلعة[١٦٧]. كما استغل البنادقة بدورهم هذا اليوم بإقامة سوق لهم في دمشق فعرف باسمهم، وكان موقعه بالقرب من سوق السلاح جنوب الجامع الاموي[١٦٨]. ولا نعرف شيئاً عن نوع البضاعة التي كانت تعرض في هذا السوق. كذلك وفي نفس هذا اليوم نصبت الأسواق في كل من حلب[١٦٩]، والقدس، ويافا، والخليل[١٧٠].

أما يوم الخميس، فقد خصص لعقد الأسواق في كل من حماه[١٧١]، وحلب، ويعلق الاسدي على ذلك التخصص بإيام الاسبوع بقوله: "سوق الخميس كان يعقد يوم الخميس، كأنما سوق الجمعة في الاصل للمسلمين، وسوق الاحد للنصارى، وهذا اليوم لليهود، يتزودون منه لما يطبخ في يوم الجمعة للسبت وهو ما يسمونه البيوت"[١٧٢].

وخلاصة الحديث أن تلك الأسواق لم تقتصر على مشاركة أهل المدينة فحسب، بل كان يرتادها الفلاحون والبدو من المناطق القريبة، وربما البعيدة ايضاً، فكانوا يقيمون في المدينة يوماً أو يومين على الاكثر[١٧٣]، لشراء ما يلزمهم من السلع، مقابل

١٦٥- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١.

١٦٦- سوفاجية، دمشق، ص ٤٠.

١٦٧- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص ٨١؛ سوفاجية، دمشق، ص ٤٠.

١٦٨- ابن المبرد، نزهة الرفاق، المشرق، ص ٢٧.

١٦٩- الطباخ، اعلام النبلاء، جـ٢، ص ٤١٥؛ الاسدي، احياء حلب، ص ٢٢٥.

١٧٠- علي السيد، القدس، ص ٢١٠.

١٧١- جبران، حماه، ص ٢٤٧.

١٧٢- الاسدي، احياء حلب، ص ٢٢٩.

١٧٣- يحيى بن عمر، النظر والاحكام في جميع احوال السوق، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٥م، ص ١١٤-١١٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: يحيى بن عمر، احكام السوق.

مقايضة بما لديهم من الحبوب والفواكه والبسط والسجاد والتين والزيت، وغير ذلك من البضائع المختلفة[١٧٤].

ب. خارج المدن:

ولما كانت مساحة المدينة لا تسمح بعقد بعض الأسواق الاسبوعية داخلها، فلا غبار إذاً من ان تقام خارج اسوارها أي في مناطق متوسطة السكان[١٧٥]. فكان من خصائص ذلك الموضع المراد إقامة السوق فيه ما يلي:

أ. انه مكان خلاء وواسع ليتسع لمن يقصده من الريف والمدينة[١٧٦].

ب. انه يسهل الوصول اليه، والنزول به، والرحيل عنه في اوقات الازدحام[١٧٧].

جـ. انه موقع لا يشعر فيه المرء انه تحت رحمة أي انسان آخر[١٧٨].

د. واخيراً انه موضع يتوفر فيه الكلأ والماء لتلبية رواده من الناس، ووسائل النقل التي هي من الحيوانات.

ولدينا في بلاد الشام العديد من تلك الأسواق، كالسوق الذي كان يعقد يوم الثلاثاء[١٧٩] وموقعه كان بالقرب من حلب جنوب انطاكية، ليس بعيداً عن قلعتي

١٧٤- يوسف غوانمه، نيابة بيت المقدس، بحث في كتاب دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م، ص ٢٣٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، بيت المقدس.

١٧٥- بدور شالمتيا، الاسواق، بحث في كتاب "المدينة الاسلامية" ترجمة احمد محمد تغلب، السيكوموفجر، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص ١١٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: بدور، الاسواق.

S, Labib, Eygptian Commercial policy in the middle ages. in. M.K. cook, (ed) studies in economic history of the middle east, new work, 1970, p.72.

وسيشار اليه فيما بعد هكذا: Labib, Eygptian Commercial

١٧٦- بدور، الأسواق، ص ١١٢؛ عثمان، المدينة الاسلامية، ص ١٧٥.

١٧٧- بدور، الاسواق، ص ١١٢.

١٧٨- المرجع نفسه، ص ١١٢.

١٧٩- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٥٩-٦٠.

الشغر وبكاس الواقعتين شرقيه[١٨٠].

كان يقام ذلك السوق على "جسر كشفهان" المقام على نهر العاصي على مفرق طرق يؤدي احداها إلى حلب، والاخرى إلى انطاكية، وإلى غيرها من المناطق الاخرى، بحيث يسهل على الناس القدوم اليه من جميع الانحاء[١٨١]، وفي نفس الوقت فقد كان يسهل النزول به، والرحيل عنه، بكل يسر وسهولة، فهو إلى جانب كونه منطقة مكشوفة، وسهلة الوصول، كان يحوي أيضاً مياهاً وفيرة وفاكهة كثيرة كانت تورد اليه من البساتين القريبة منه، علاوة على وجود مسجد جامع تقام فيه صلاة الجمعة [١٨٢]، فهو والحالة هذه مكان كامل متكامل فيه جميع الضروريات الهامة لإقامة هذا الصنف من الأسواق.

وفي بلدة الدركوش[١٨٣] القريبة من قصير الاكراد عقد فيها هي الاخرى سوق اسبوعي، كان موعده يوم السبت من كل اسبوع[١٨٤]. وقد مدته الدركوش بمختلف أصناف الثمار سيما كبيرة الحجم، وذكر لنا ذلك إبن الجيعان بقوله: "واحضر لنا منه (أي السوق) رمان، وزن كل واحدة ما يزيد على رطلين مصريين[١٨٥]، وباذنجان كل واحدة منها وزنها يزيد عن رطلين مصري، ويبالغ بعضهم ويقول بان فيه ما يقرب من خمسة أرطال، ولكنني ما رأيت ذلك"[١٨٦].

كل ذلك يؤكد أهمية ذلك السوق حيث حضره اعداداً غفيرة من الناس للشراء أو البيع. وربما أن هذا السوق هو الذي قصده اليونيني في احداث ٦٧٥هـ/١٢٧٦م عند

١٨٠- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٦١.

١٨١- المصدر نفسه، ص ٢٦١؛ ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٦٠.

١٨٢- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٦١.

١٨٣- الدركوش: حصن بالقرب من انطاكية، انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٥٢.

١٨٤- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٦٠.

١٨٥- الرطل المصري: كان يساوي في العصر المملوكي حوالي (٤٥٠غم). انظر: هنتس، المكاييل، ص٣٢.

١٨٦- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٦٠.

الحديث عن نزول السلطان بيبرس البند قداري في يوم السبت عند قرا حصار حيث ذكر ذلك بقوله: "...حتى نزل اليه ليلة السبت السادس والعشرين منه عند قرا حصار قريبا من بازار، وهو السوق الذي يجتمع اليه الناس من سائر الاقطار"[١٨٧]. ولذا كان يتناسب موعد هذا السوق مع الذي ذكره إبن الجيعان من حيث زمن انعقاده وهو يوم السبت.

وبالقرب من مدينة دمشق كان يعقد سوق بنفس الموعد الذي كان يعقد فيه السوق في بلدة الدركوش، حيث اعتادت اعداد كثيرة من الناس الخروج يوم السبت إلى الميدان الاخضر غربي دمشق، فيقضون هناك يوم راحة "باللعب واللهو". وقد استغل ذلك الموعد أصحاب المتاجر حيث قاموا بنقل حوانيتهم إلى ذلك المكان، فاذا ما قرب مغيب الشمس اتجه الناس إلى الجامع، وأدوا صلاة المغرب، ثم "رجعوا إلى أماكنهم"[١٨٨].

وهناك سوق آخر كان ينصب خارج مدينة جبلة[١٨٩] ذكره إبن بطوطة، إلاّ أنه لم يحدد موعده، ويبدو أنه كان يعقد اسبوعياً، واكتفى إبن بطوطة عند حديثه عن جبلة بقوله: "ويقوم خارج المدينة سوق عظيم، فيه من كل شيء"[١٩٠].

وهو بنفس الوصف تقريباً الذي ذكره إبن جبير من قبل عن سوق بزاغة[١٩١]، حيث ذكرها بقوله: "بها سوق تجمع بين المرافق السفرية، والمتاجر الحضرية"[١٩٢]. ويبدو أنه هو الآخر كان ينصب اسبوعياً.

١٨٧- اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، ط ١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ - ١٩٦٠م، جـ ٣، ص ١٨٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اليونيني، ذيل الزمان.

١٨٨- القزويني، آثار البلاد، ص ١٩١.

١٨٩- جبلة: قرب اللاذقية على الساحل تابعة لحلب، انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٠٥.

١٩٠- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٩٦.

١٩١- بزاغة: قرية تابعة لحلب، تقع بين حلب ومنبج وبينهما مسافة يوم. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٠٩.

١٩٢- ابن جبير، الرحلة، ص ٣٤٩.

رابعاً، الأسواق المرافقة للجيش،

ذكر أن هناك صنفاً آخر من الأسواق كان يرافق الجيش في اسفاره، وتنقلاته، ومواضع إقامته، حيث وضعها بعض المؤرخين[١٩٣] في طائفة الانواع الرئيسة للاسواق. وليس ذلك بغريب، فقد جرت العادة أن يصاحب سير الجيوش، وأماكن استراحاته عدد غير قليل من الباعة، وتجار الجملة لشراء الغنائم التي كان يحصل عليها المسلمون[١٩٤].

وفي العصرين الايوبي والمملوكي أخذت الصورة تتضح اكثر فأكثر، فكانت تلك الأسواق عبارة عن خيام تبنى في أماكن آمنة، وتوضع في داخلها البضائع المختلفة التي يحتاجها الجيش[١٩٥]. وكانت تزود تلك الأسواق في البداية بالتموين من مراكز انطلاق الجند، ثم من المناطق القريبة. اثناء تنقلات الجيش وإقامته.

ولدينا في بلاد الشام أكثر من أشارة على ذلك التلازم ما بين الجيش والأسواق ممثلا ذلك بما قدمه الأصفهاني من صورة حية عن ذلك الازدواج في العصر الايوبي، فمثلاً أثناء خروج عسكر المسلمين إلى الساحل بعد فتح القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م قال الأصفهاني: "ونزلنا بها، ومبارك مبارنا موحى رسوم تلك النواحي المواصل، ومعنا احمال واوساق، واثقال وأسواق، وازاود واعداد، وعدد واعداد ..." وفي موضع آخر يخبرنا الأصفهاني في احداث ٥٨٥هـ/١١٨٩م أن أرناط أحد أمراء الفرنج كان يشتري الميرة من سوق المسلمين[١٩٦]. كل ذلك يدل دلالة واضحة على استمرارية تلك الأسواق وملازمتها للجند.

١٩٣- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب خلال السادس الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٩٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: موسى، النشاط الاقتصادي.

١٩٤- محمد حسين محاسنة، الاحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: محاسنة، الاحوال الاقتصادية.

١٩٥- ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين الايوبي، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٧٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شداد، النوادر السلطانية.

١٩٦- الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٢٢٨-٢٢٩، ٢٨٦.

ومما تجدر ملاحظته أن تلك الأسواق قد اتصفت بالضخامة، والعظمة لانها كانت تلبي حاجات تلك الجيوش الجرارة، فهناك وصف دقيق لتلك الأسواق يرويه لنا المقريزي نقلا عن البغدادي في احداث ربيع الآخر ٥٨٣هـ/تموز (يوليو) ١١٨٧م حينما نزل السلطان صلاح الدين الايوبي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) على عكا فهو يقول: "كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكا ذا مساحة فسيحة، فيه مائة واربعون دكان بيطار ... وكنت احفظ عدد الدكاكين لانها كانت محفوظة عند سحنة السوق، واظنها سبعة آلاف دكان، وليس مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان، لأن الحوائج في الاعدال، والجوالقات، ويقال أن العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد، وزن سمان أجرة نقل متاعه سبعين ديناراً، وأما سوق البز العتيق والجديد فشيءٌ يبهر العقل"[١٩٧].

هذا الوصف يغني عن الشرح الطويل، فهو يبين بوضوح ضخامة تلك الأسواق المرافقة للجيش الاسلامي، وما اشتملت عليه من تنوع في السلع.

وفي العصر المملوكي استمر الوضع على ما هو عليه، حيث اصطحبت الجيوش الأسواق معها اثناء الحملات مثل باعة الطعام، وصناع الأحذية، والخياطين، والنجارين وغيرهم من ذوي المهن والأصناف الاخرى[١٩٨]. ويكفينا في هذا المقام مثال واحد للتدليل على ذلك. فقد ذكر بعض المؤرخين أن جراداً عظيما قد ظهر في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م بين منبج والباب[١٩٩] القريبتين من حلب "فخرج عسكر من حلب، وخلق من فلاحي النواحي الحلبية نحو أربعة آلاف نفس لقتله، ودفنه، وقامت عندهم أسواق، وصرفت عليهم من الرعية اموال"[٢٠٠].

١٩٧- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (جـ ١-٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط ٢، مطبعة لجنة التاليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٦، جـ ١، ق١، ص ٩٣-٩٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي،السلوك.

١٩٨- لابيدوس، مدن الشام، ص ١١٦.

١٩٩- الباب: بلدة صغيرة تابعة لحلب، وتبعد عنها ٢٠ كلم تقريباً وعن منبج حوالي ٤كم. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٠٣.

٢٠٠- ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ ٢، ص ٤٩٠، الطباخ، اعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٣٤١.

وهكذا نلاحظ أن الأسواق ظلت مرافقة للجيش حتى حينما دخل السلطان سليم العثماني (١٥١٢-١٥٢٠م) إلى الشام، عقب انتصاره على المماليك في ٢٣ آب (اغسطس) ١٥١٦م في مرج دابق قرب حلب، حيث اذهلت تلك الأسواق المصاحبة للجيش العثماني عقل ابن طولون، وقد عبر عن ذلك بكل صراحة بقوله: "والعجب من الأسواق التي فيه، ولم ترم شيئا إلاّ تجده، وهي سايرة معه من بلاده، فمن صنف اللحامين خمسة عشر، ومن الطباخين مثلها، ومن الخياطين مثلها، ومن الحلوانية مثلها، ومن العلافة مثلها، ومن البياطرة مثلها، ومن الاسكافية مثلها، وبقية الحرف بتمامها" [٢٠١].

٢٠١- ابن طولون، اعلام الورى، ص ٢٨٢.

خامساً: الأسواق الطارئة:

هناك نوع أخير من الأسواق غير الدائمة وهذه كانت تنصب لظروف خاصة طرأت داخل بعض اجزاء من الدولة، كالناحية السياسية مثلاً أو غيرها من الاسباب الاخرى. ومن صفات تلك الأسواق أنها لم تكن تخضع لزمن معين، ولا لمكان محدد، ولا لصنف من السلع أعدّ له مسبقا لعرضه فيها. وغالباً ما كانت تعقد مرة واحدة وفقاً لذلك الظرف. ولدينا في بلاد الشام ثلاثة أمثلة على هذا النوع من الأسواق طرأت في العصر المملوكي.

المثال الاول سياسي: ظهر اثناء دخول قسم كبير من التتار أو المغول[٢٠٢] إلى بلاد الشام عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م حيث ورد مرسوم عاجل إلى والي دمشق بأن يأخذ التتر وينزلهم في أرض عثليث[٢٠٣] على الساحل، خوفاً من دخولهم إلى دمشق، وقد استجاب هذا الوالي للنداء، فمر بهم من خارج دمشق على المرج[٢٠٤]، ثم طلب من السوقية الخروج اليهم، فخرجوا ومعهم جميع أصناف السلع، فنصبت لهم الأسواق في المرج، والكسوة، والصنمين، وغيرها من المنازل التي أقاموا بها حتى وصلوا إلى أرض عثليث[٢٠٥].

٢٠٢- التتار أو (التتر) والمغول او (المغل) اسماء اطلقها المؤرخون العرب في العصر المملوكي على غزاة المشرق الذين اجتاحوا العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري بدءاً من جنكيزخان وانتهاء بتيمورلنك. واسم التتار كان يطلق على جميع الشعوب التركية باستثناء العثمانيين. انظر اكرم حسن العلبي، معارك المغول الكبرى، دار المأمون للتراث، (د. م) ١٩٨٨م، ص ٢٩-٣٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العلبي، معارك المغول؛ فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م، ص ٢٧-٢٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عاشور، العلاقات بين المماليك والمغول.

٢٠٣- عثليث: اسم حصن بساحل الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٨٥.

٢٠٤- المرج: وهي ارض مفتوحة وشاسعة تنزل بها الدواب، وتقع بالقرب من دمشق. انظر المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٠٠-١٠١.

٢٠٥- الجزيري، حوادث الزمان من عام (٦٨٩-٦٩٨هـ) مخطوط لدى د. نعمان جبران وهو صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة باريس تحت رقم (٢٤٣٣)، ورقة ٣٤٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الجزيري، حوادث الزمان؛ المقريزي، السلوك، جـ ١، ق٣، ص ٨١٣.

أما المثال الثاني، فكان بسبب حريق شب في مدينة انطاكية بكاملها عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م مما اجبر أهلها على إقامة الاسواق خارجها، فوفد اليها التجار من كل ناحية[٢٠٦].

وهناك مثال أخير اسبابه تكررت في المثال الاول وهم التتر، فعقب دخولهم إلى دمشق مرة أخرى عام ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م، وما احدثوه من دمار وخراب في البلاد حتى اصبحت مدينة دمشق جحيم لا يطاق[٢٠٧]، فاضطر سكانها إلى أن يشيدوا ويقيموا خارجها "وصاروا ينقلون ما عساه يوجد بالمدينة من الاحجار ونحوها، وبنى بذلك في ظاهر المدينة، حتى زالوا ما بقى من آثار الحريق، وصارت مدينة دمشق كيماناً[٢٠٨].

يتضح من خلال هذه المشاهد الثلاثة أن هذا النوع من الأسواق ظهر لظروف قاهرة ألمت بالبلاد، ولذلك اطلقنا عليها "الأسواق الطارئة"، اعتقاداً منا أن هذا الاسم مناسب لها أكثر من غيره.

وهكذا يتبين من خلال حديثنا السابق عن الأسواق غير الدائمة انها اشتملت على عدة أنواع منها الموسمية، والتي تعدّ من أقدم الأسواق على الاطلاق. ممثلة بأسواق الشام قبل الاسلام، ثم أسواق ارتبط أنعقادها بورود التوابل من الشرق.

أما النوع الثاني من الأسواق غير الدائمة، فهي الأسواق السنوية، والتي كان لها موعد في كل عام، وهي تقسم بدورها إلى عدة فروع منها ما عقد خارج المدن وفي ميقاتها المحدّد، وارتبط بعضها الآخر بحجّ الناس إلى مكة أو إلى القدس، وقد بينا دور الحج في إقامة مثل هذه الأسواق، وانه لم يكن دينياً فحسب بل كان تجارياً ايضاً حيث رافق التجار الحجاج في سفرهم إلى الحجاز وإلى القدس. ومنها ما نصب في الاعياد بانواعها المختلفة، حيث اعتاد الناس الخروج إلى أماكن خاصة في مثل هذه المناسبات للترفيه عن النفس، واخذ مزيد من الراحة، فكان من الطبيعي أن تقام

٢٠٦- المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٦٨.

٢٠٧- القلقشندي، مآثر الانافة، جـ٣، ص ١٩٢-١٩٣.

٢٠٨- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص ١٠٨٢.

الأسواق في تلك المواضع. ولم تقتصر تلك الرحلات التي قام بها الناس في العصر المملوكي إلى المتنزهات أو الحدائق فحسب، بل خصصت بعض المشاهد ايضاً لزيارتها في زمن محدد من العام، كما كان الحال في حلب مثلاً. إذ كان من الضروري إقامة الأسواق المشتملة على مختلف الأصناف لتلبية زوار تلك الاماكن. وفي الوقت نفسه نظم تجار الغرب رحلاتهم إلى بلاد الشام بحلول الاعياد سيما الاسلامية منها. إلاّ أن ذلك لم يستمر طويلاً لعدة اسباب من بينها حاجة اوروبا إلى السلع الشرقية باستمرار، كما كان ميقات تلك الأعياد وخاصة الاسلامية منها غير ثابت لخضوعها للتقويم الهجري، لذا فقد تحولت هذه الأسواق إلى نصف سنوية، وربع سنوية، تعقد أكثر من مرة في العام الواحد.

ومثلما كانت هناك أسواق موسمية، وسنوية، فقد عرفت بلاد الشام كذلك أسواقاً أسبوعية أيضاً، كان معظمها يعقد في يوم أو يومين من الاسبوع، حيث خصص لها مواضع خاصة داخل المدن وخارجها، وقد عرفت تلك الأسواق باسم اليوم الذي كانت تنصب فيه، أو بنوع البضاعة التي تعرض فيها.

وعند خروج الجيش لاداء مهمة ما كقمع ثورة أو التصدي لعدو كانت الأسواق التجارية ترافق ذلك الجيش وتمده بالمؤن والاقوات، وقد اتصفت تلك الأسواق بتعدد اصنافها، وعظم حجمها من أجل تلبية حاجة تلك الاعداد الجرارة.

أما النوع الاخير من الأسواق غير الدائمة، فكانت الأسواق الطارئة. وقد اتضح لنا انها قامت لظروف قاهرة كانت تمر بها البلاد، كالامثلة التي ذكرناها مثل دخول التتر إلى بلاد الشام عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م مما اضطر أولي الأمر إلى اصدار مرسوم يأمر باخراج الأسواق لهم، خوفاً من دخولهم إلى المدن. وهذا المشهد تكرر عام ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م ولكن بصورة أخرى حينما دخل التتار مرة أخرى إلى بلاد الشام، وما احدثوه من خراب ودمار في البلاد، مما دفع ذلك بسكان دمشق إلى العيش خارجها، حيث شيدوا المساكن والبيوت. وقبل هذه الحادثة شب حريق في مدينة انطاكية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م كان سبباً مباشراً أدى إلى إقامة الأسواق خارجها، حيث وفد اليها التجار من كل ناحية.

الفصل الثالث

العمائر المكملة للأسواق

أولا: القياسر

ثانياً: الفنادق

ثالثاً: الخانات

أ- الخانات داخل المدن

ب-الخانات على الطرق

رابعاً: الوكالات

خامساً:منشآت تجارية أخرى

أولاً: القياسر:

القياسر أو القياصر مفرد قيسارية أو قيصارية، وهي كلمة لاتينية يبدو أنها محرفة عن كلمة قيصرة cesarie أو caesarea [١] لتعني البناء الملكي أو الامبراطوري، وذلك لان السوق كان من الاملاك العامة التابعة للدولة أي انها ذات صفة ملكية [٢]، وهي مشابهة تماماً من حيث عمارتها للخانات والوكالات والفنادق [٣] حيث وصفها ابن جبير مرة بقوله: "وكأنها الفنادق مسقفة كلها بابواب حديد كانها ابواب القصور" [٤] فهي إذا عبارة عن ابنية كبيرة مكونة في الغالب من طابقين تضم أسواقاً خاصة أو دكاكين قد تزيد عن عشرين دكاناً [٥]، وقد يكون في وسطها بركة ومسجد، وفي اعلاها بيوت للسكن واقامة التجار [٦]. ومن المحتمل انها كانت تزود برواق حول الصحن مرفوع بواسطة دعامات، ورواق الطابق العلوي مسقوف بقباب صغيرة [٧]، ولها باب ثقيل وسميك كان يصنع في العادة من الحديد، ويقفل بواسطة آلة حديدية [٨].

١- S. D. Goitein A mediterranean Society, 3 Vols, University of California press, Berkeley, and Los Angeles, California, 1967, Vol. I, p 193.

وسيشار له فيما بعد هكذا: Goitein A mediterranean Society.

٢- Encyclopaedia of Islam, Leiden, E.J. Brill, 1978, Vol. 3 , p 841

وسيشار إليه فيما بعد هكذا: Encyclopaedia of Islam.

٣- فريد محمود الشافعي، العمارة العربية الاسلامية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٢م، ص ١٢٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الشافعي، العمارة.

٤- ابن جبير، الرحلة ، ص ٢٦١.

٥- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٤.

٦- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٢٩.

٧- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٤.

٨- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦١.

ظهرت هذه القياسر في بلاد الشام قبل مصر، وكانت لا تختلف في وظائفها عن الفنادق أو الخانات [٩]، ففيها حوانيت تؤجر للتجار، وتقوم إلى جانب ذلك بمهمة البيع والشراء ومهمة نزول وإقامة التجار وخزن سلعهم وحفظ اموالهم [١٠]، وأما البيع فكان يتم في الغالب بطريق الجملة [١١].

هذا وقد عرفت تلك القياسر باسم بانيها، أو باسم ما يباع فيها، حيث اختص بعضها بسلعة أو حرفة واحدة. ولما كانت هذه القياسر ذات مورد جيد ودخل كبير فقد حرص الكثير من السلاطين والامراء وكبار التجار على تشييدها والعناية بها [١٢].

لقد جاء توزيع هذه القياسر في معظم مدن بلاد الشام وبخاصة في مدينتي دمشق وحلب. ففي مدينة دمشق ذكر إبن عساكر [١٣] سبعاً منها كانت قائمة في زمنه، وهي القيسارية الفخرية وموقعها كان بالقرب من حمام القلانسيين شرقي كنيسة بولس، ومن المرجح أن هذه القيسارية يعود تاريخها إلى العصر الفاطمي، فقد ذكرها أبو المحاسن في احداث ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م بقوله: "توفي حمزة بن الحسن بن العباس الشريف العلوي أبو يعلي فخر الدولة ولي قضاء دمشق عن الظاهر العبيدي (الخليفة الفاطمي)، وهو الذي بنى قيسارية الاشرف وتعرف بالفخرية" [١٤].

كذلك ذكر إبن عساكر قيسارية السلطان، وقيسارية الجعفري، وقيسارية الفراء، وقيسارية الوزير، وقيسارية الفرش، كما تحدث عن قيسارية أخرى كانت في دمشق

٩- المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف «بالخطط المقريزية»، ٣ أجزاء دار صادر، بيروت، (د.ت) جـ ٢، ص ٨٦ - ٩٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي، الخطط.

١٠- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٢٩، ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٧٣.

١١- حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٠٦، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: سعيد، البحرية.

١٢- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٩٥.

١٣- ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٥٤.

١٤- ابو المحاسن، النجوم، جـ ٥، ص ٣٥.

دون ان يذكر اسمها، وانما حدد مكانها وكانت تقع في أول درب اللبان شمالي دمشق في سفح قاسيون [١٥].

ووجد في دمشق ايضاً ثلاث قياسر أخرى قبل العصر المملوكي، وهي قيسارية العقيقي، وكان موضعها بجوار سوق الاحد [١٦]. اما الاخرى، فشيدت زمن الملك المعظم عيسى بن العادل، وعرفت بقيسارية القطن [١٧]، وسميت الثالثة بقيسارية الصياغ، ويرجع تاريخ بنائها إلى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، حيث ذكرها ابو شامة بقوله: "احدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين بفتح بابها إلى الزيادة [١٨] ، ونقل اليها سوق الصاغة" [١٩].

وخلال العصر المملوكي ارتفع عدد القياسر في معظم مدن بلاد الشام نظراً لما شهده هذا العصر من ازدهار تجاري، ففي دمشق عمرت قيسارية الدهشة عام ٧١٥هـ/١٣١٥م بالقرب من باب البريد الكائن إلى الغرب من الجامع الاموي. وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م فرغ العمل من بناء قيسارية أخرى حملت نفس الاسم، وكان موضعها جنوب سوق الدهشة، وقد انفق على بنائها اكثر من ثلاثين الف درهم من مال الوقف، ثم أجرت لقماش النساء [٢٠].

كذلك وجد في دمشق قيسارية الشرب [٢١]، وقيسارية المرحليين [٢٢] وهذه الاخيرة كانت من املاك تنكز الحسامي نائب دمشق. كما حول هذا النائب القيسارية التي

١٥- ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٥٤، الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥١.

١٦- ابو شامة، الروضتين في اخبار الدولتين، ٢جزء في مجلد، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، جـ ١، ص ١٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابو شامة، الروضتين.

١٧- ابن كثير، البداية، جـ ١٣، ص ٣٥٠.

١٨- باب الزيادة: وهو باب الجامع الاموي من جهة الجنوب. انظر النعيمي، الدارس، جـ ٢، ٣٨٦.

١٩- ابو شامة، الروضتين، جـ ٢، ص ١٦٢.

٢٠- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٧٦، ٣٢٨.

٢١- الصفاعي، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م، ص ١٨٠، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الصفاعي، تالي الاعيان؛
Combe, Repertoire chronologique, Vol 12, p 230.

٢٢- قيسارية المرحليين: اختصت هذه القيسارية بصنع او بيع الرّحالة وهي عبارة عن سرج مصنوع من الجلد ليس فيه خشب يوضع فوق الخيل والابل، واكثر استعماله يكون عند الجري السريع. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة رحل.

فتحت عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م بالقرب من الباب الصغير والتي كانت معدة لسبك الفولاذ إلى قيسارية ببركة. وفي الوقت نفسه امتلكت ابنته قيسارية عرفت باسمها فاطلق عليها قيسارية الطواشي، ومركزها كان خارج باب الفرج [٢٣].

وبالقرب من باب الفرج ايضاً بنى يلبغا [٢٤] قيسارية عرفت باسمه عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، وضمنت بمبالغ طائلة حيث بلغ ضمانها حوالي سبعة آلاف كل شهر [٢٥] مما يدل على اهميتها.

ومن القياسر الأخرى التي ضمتها دمشق قيسارية البهنسي، وكانت من اوقاف الجامع الاموي، وقد أشرف على بنائها ناظر الجامع الاموي الصاحب شمس الدين البهنسي فنسبت اليه حيث انتهى من عمارتها سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٥م [٢٦].

وفي احداث ٧٨٣هـ/١٣٨٦م ذكر إبن قاضي شهبه قيسارية أخرى بدمشق عند حديثه عن وفاة التاجر عثمان بن مسافر، حيث عمر بدمشق قيسارية من الحجارة جاء شكلها في غاية الحسن [٢٧].

قيسارية إبن الباني: وكانت تقع في الجنوب الشمالي للجامع الاموي قرب سوق البزوريين، وقد خصصت لسكن تجار الفرنج [٢٨]، والى الغرب منها كانت تقع قيسارية إبن المزلق [٢٩].

٢٣- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ١٦٤، ٢٦٧.

٢٤- يلبغا: هو الامير سيف الدين يلبغا تركي الجنس كان احد من شغف بهم الملك الناصر محمد، تولى عدة مناصب كان آخرها نيابة دمشق بين عامي (٧٤٦ /١٣٤٥ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م) انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٤٥.

٢٥- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٢٩.

٢٦- ابن قاضي شهبه، تاريخه، جـ ٣، ص ٢٨.

٢٧- المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٧٣.

٢٨- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٧٣، بدران، منادمة الاطلال، ص ١٣١.

٢٩- ابن المزلق: هو محمد بن علي بن ابي بكر بن محمد الخواجا الكبير الشمس الحلبي ثم الدمشقي ويعرف بابن المزلق، وهو من كبار تجار دمشق، توفي في ١٩ جمادى الاولى ٨٤٨هـ / آب (اغسطس) ١٤٤٤م ودفن بدمشق له مآثر واصلاحات كثيرة. انظر، السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٨، ص ١٧٣ - ١٧٤

قيسارية القواسين: ومركزها كان جنوب باب الزيادة بالقرب من سوق السلاح، وربما كانت هي القيسارية التي قصدها الصفدي إذ توافق في تحديده مع ما ذكره النعيمي عند حديثه عن المدرسة الامينية، فعين الأول موقعها بالقرب من المدرسة الامينية [٣٠]، وقد تكون قيسارية اخرى.

قيسارية السلاح: وموضعها ينطبق على قيسارية القواسين، وقد تكون هي نفسها أو بجوارها [٣١].

قيسارية الصرف: شرع في عمارتها الملك المؤيَّد سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، فجعلها طوابق ومخازن، وخصص قسماً منها وقفاً للجهة الموقفة عليها [٣٢].

قيسارية القجماسي: وكانت تعنى بنسج الحرير، ثم حل مكانها سوق الاروام [٣٣].

قيسارية البهار: ومحلها كان مقابل قيسارية مسبك الفولاذ الكائنة بالقرب من الباب الصغير [٣٤].

وبجوار سوق البزوريين وجدت قيسارية تنم [٣٥] وقيسارية الصوف، وقيسارية الاقباعيين، وقيسارية العبي [٣٦].

٣٠- الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، الأجزاء (٢، ٤ - ٦) تحقيق س ديدرينج، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٩٧٠ - ١٩٧٤م، جـ ٥، ص ٨٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الصفدي، الوافي؛ النعيمي، الدارس، جـ ١ ، ص ١٧٧ ;

Combe, repertoire chronologique, Vol. 13, p. 164 .

٣١- ابن قاضي شهبه، تاريخه، جـ ٣، ص ٦٦١.

٣٢- النعيمي، الدارس، جـ ٢، ص ١٧٨، بدران، منادمة الاطلال، ص ٢٨٩.

٣٣- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٥.

٣٤- ابن طولون، اعلام الورى، ص ٢١١.

٣٥- تنم: ويعرف ايضاً بتنبك تولى نيابة السلطنة بدمشق بين عامي (٧٩٥هـ / ١٣٩٢ - ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٥٦.

٣٦- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٧٣.

كما تحدث إبن كثير عن بناء قيساريتين أثنتين في عصره، ولكنه لم يحدد سنة تأسيسهما، وقد جاء وصفه على النحو الآتي: "قلت وقد جددت شرقي هذه الصاغة الجديدة قيساريتان في زماننا، وسكنها الصياغ وتجار الذهب، وهما حسنتان وجميعهما وقف الجامع المعمور" [٣٧]. فضلا عن ذلك فقد ضمت كل من صالحية دمشق [٣٨] والعقيبة قيسارية واحدة [٣٩].

ولم يقتصر وجود هذه القياسر على دمشق وحدها بل حفلت حلب هي الأخرى بعدد مماثل من القياسر لا تقل شأناً عن قياسر دمشق، حيث وصفت بحسنها، وضخامتها، فكانت كأنها "حديقة بستان نظافة وجمالاً" [٤٠] وقد احيطت بالمسجد الجامع، فكل سماط منها كان مجاوراً لكل باب من أبواب المسجد [٤١].

وقد شهدت هذه القياسر نشاطاً تجارياً ملحوظاً دلّ على ذلك ما ذكره لنا ياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) عند حديثه عن قيسارية البز بقوله: "ومن عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن" [٤٢]. فهذا الوصف يؤكد مدى أهمية هذه القياسر في النشاط التجاري.

وفي القدس بنى تنكز نائب الشام قيسارية وصفت بانها "مليحة إلى الغاية" [٤٣]، وقد أوقفها على مصالح المسجد الاقصى، والمدرسة والخانقاة التي أمر بانشائهما [٤٤].

٣٧- اسمه مسجد جراح وموقعه كان بالقرب من باب الصغير، شيد سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣، انظر ابن كثير، البداية، جـ ١٣، ص ١٥١.

٣٨- ابن كنان،المروج السندسية، ص ٣٢.

٣٩- العلبي، دمشق، ص ١٣٦.

٤٠- الحميري، الروض المعطار، ص ١٩٧.

٤١- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨٨.

٤٢- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٤.

٤٣- الصفدي، الوافي، جـ ١٠، ص ٤٢٣، الكتبي ، فوات الوفيات، جـ ١، ص ٢٥٢ .

٤٤- Golvin, Suq AL- Qattanin, p2.

ويبدو أن هذه القيسارية هي نفسها التي ورد ذكرها في وثائق مقدسية باسم قيسارية القدس [٤٥]، كما وجد في القدس قيسارية أخرى عرفت بقيسارية النصارى [٤٦].

كذلك فإن مدينة عجلون قد ضمت هي الأخرى مجموعة من القياسر لم نتوصل إلى اسمائها جميعاً باستثناء ثلاث منها ورد ذكرها من خلال بعض المصادر حينما تحدثت عن السيل الجارف الذي اجتاح عجلون سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م وهي القيسارية القديمة، وقيسارية الامير سيف الدين بكتمر [٤٧] وقيسارية الامير تنكز بن عبدالله [٤٨]. أما الباقي، فلا نعرف شيئاً عنها.

وهكذا نلاحظ أن القياسر انتشرت في مختلف مدن بلاد الشام، وقد ازداد عددها في العصر المملوكي، وكانت تلك القياسر يباع بها عامة أصناف السلع لكن كل قيسارية اختصت بسلعة واحدة فقط، علاوة على أن بعضها قد استخدم للسكن ومبيت التجار ومثال ذلك قيسارية إبن الباني الوارد ذكرها في قياسر دمشق حيث خصصت لاقامة تجار الفرنج بها.

٤٥- كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ٢ جزء مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٣ - ١٩٨٥م، جـ ١، ص ٢٧٦، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العسلي، وثائق مقدسية.

٤٦- غوانمة، القدس، ص ٨٢ .

٤٧- سيف الدين بكتمر: تولى الاوقاف في بلدان شتى، توفي بالاسكندرية، وهو نائب لها في ٥ رمضان ٧٢٤ هـ / آب (اغسطس) ١٣٢٤م انظر ابن كثير، البداية، جـ ١٤ ، ص ١٢٠.

٤٨- غوانمه، التجارة الدولية، ص ٩٤ نقلاً عن النويري، نهاية الأرب ، جـ ٣١ لوحه ٩٠ - ٩٢.

ثانياً، الفنادق

الفندق كلمة لاتينية اصلها باندوخيو Pandokoion، وتعني تكدس البضائع [٤٩]، وتقابل في الايطالية Fondachi، لتدل على مبنى ضخم مكون من عدة طوابق فيه غرف مختلفة ومخازن وبه صحن داخلي كان يستخدم لخزن السلع ونزول الدواب، كما كان يشتمل على كنيسة وحمام ومحكمة ومخبز ومقبرة وتحيط به حديقة وله حرس [٥٠]، ولم يكن للفندق في الغالب أكثر من باب واحد يغلق بواسطة باب حديد واقفال خاصة اعدت لذلك [٥١].

استخدمت الطوابق العليا من الفندق لنزول التجار ولاسيما الاجانب منهم، وربما سمح للحجاج المارين ببلاد الشام إلى مكة أو إلى القدس بالنزول في هذه الفنادق بعض الليالي في مقابل أجر معلوم.

ويبدو أن أول اشارة وردت في المصادر العربية لذكر الفندق تعود إلى العصر الاموي فقد ذكر البلاذري أن هشام بن عبدالملك (١٠٥/ ٧٢٤ - ١٢٥هـ/ ٧٤٣م) "اتخذ بصور فندقاً ومستغلاً" [٥٢]. ولا ندري ما هو المقصود هنا بكلمة فندق هل هو فندق بمعنى التعريف السابق أم خان. والارجح أن المعنى بذلك هو الخان لأن ياقوت وإبن منظور ذكرا أن اهل الشام كانوا يقصدون بكلمة فندق خان [٥٣]، علاوة على ذلك فإن المدلول العام للفندق لم يتضح أمره إلاّ في خلال العصور الوسطى أي في العصر

٤٩- Goitein, Amediterranean Society, Vol 1 , p 27 .

٥٠- عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ٢ جزء ، مطبعة الانجلو المصرية، ١٩٦٤م، جـ ١، ص ١٢٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ماجد، نظم المماليك;

Encyclopaedia of Islam, Vol 2, p 945; Labib, Eygptian Commercial, 71.

٥١- راوولف، رحلة المشرق، ص ٣١ ; Goitein, Amediterranean Society, Vol 1, p.27

٥٢- البلاذري، فتوح، ص ١٦١.

٥٣- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤ ، ص ٢٧٧، ابن منظور، لسان العرب، مادة فندق.

الفاطمي [٥٤]. عند ذلك انتشرت الفنادق في مختلف المدن الشامية وبخاصة الساحلية مثل اللاذقية [٥٥]، وبيروت [٥٦]، وصيدا [٥٧] وطرابلس [٥٨] وهذه الاخيرة كان فيها عدد وافر من الفنادق، وتراوح عدد طبقاتها بين اربع وست طبقات، كما وجد في مدينة صور عدد مماثل، فكانت تتكون من خمس وست طبقات وكلها متلاصقة [٥٩].

أما دمشق، فوجد فيها قبل العصر المملوكي أكثر من تسعة فنادق كانت تقع داخل دمشق وخارجها، فداخل دمشق كانت فنادق الخشب، وفندق الزيت [٦٠]، وفندق البيع، وفندق إبن حية، وفندق إبن موسى، وفندق بني عبدالمطلب، وفندق في سوق البزوريين، وفندق غربي درب اللبان، وفندق في مكان دار جرير بن عبدالله البجلي [٦١].

وخارج دمشق كان فندق أبي طاهر الفارقي في شآم مقبرة الباب الصغير، وفندق إبن العنازة [٦٢]، كما عرف ايضاً بفندق إبن العبادة وموضعه كان بالقرب من

٥٤- غوانمه، القدس، ص٩٠.

٥٥- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٦.

٥٦- فيليب حتي، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد جرجس نصار، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ص ١٥٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: حتي، مختصر لبنان.

٥٧- ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢٠٨- ٢٠٩ .

٥٨- خسرو، سفرنامه، ص ٤٧.

٥٩- المصدر نفسه، ص ٥٠ .

٦٠- ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ص ٤٩، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن قاضي شهبه، السيرة النورية.

٦١- هذه الدار كانت تقع بالقرب من كنيسة المقسلاط، وهذه الاخيرة مكانها على الارجح كان بين باب الجابية والباب الشرقي، انظر ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٥٤، ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ٦٦، ٧٠، ١٠٦ .

٦٢- ابن عساكر، دمشق، جـ ٢، ص ٢٩٠ .

قبر أويس القرني أي بالقرب من مقبرة الباب الصغير [٦٣].

كذلك عثر على ثلاثة نصوص منقوشة في الجامع الاموي، وجامع التوبة في العقيبة، وكلها تدل على ذكر لثلاثة فنادق غير التي سبق ذكرها، ففي الرواق الشمالي للجامع الاموي نقش فيه ذكر لفندق بناه ناصح الدين العبدي خارج الباب الشرقي، وهو مؤرخ في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م أي في السنة التي توفي فيها السلطان صلاح الدين الايوبي. وعلى الباب الشمالي للجامع نفسه نقش مؤرخ في عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م يرد فيه ذكر لفندق الحلبيين، كما وجد على باب جامع التوبة في محلة العقيبة ذكر لفندق غربي دار البطيخ، وهذا النقش يرجع تاريخة لعام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م [٦٤].

وقبل هذا التاريخ تحدث أبو شامة [٦٥] عن فندقين آخرين كانا في مدينة دمشق، احدهما عرف بفندق تقي الدين، ومركزه كان بالقرب من باب الفراديس، اما الفندق الآخر، فسمي بالفندق الكبير، ويعود تاريخ انشائه إلى عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م، حيث بناه المعظم عيسى (ابن الملك العادل ابي بكر) بأرض عاتكة (وتعرف في الوقت الحاضر بقبر عاتكة) وموضعها جنوب القنوات، وهما محلتان مشهورتان في دمشق.

كذلك وصفت حلب بكثرة فنادقها مثل فنادق الحطب، وفنادق الطرابيش، وفندق العيش [٦٦]، علاوة على الفنادق التي خصصت للجاليات الاجنبية. ففي اواسط القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي زار راوولف حلب ونزل بفندقها الفرنسي وعلّ ذلك بقوله: "وهذا ما يفعله كل الالمان" [٦٧].

٦٣- ابن شداد، الاعلاق، دمشق، ص ١٣٥، ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص ١٢٧ .

٦٤- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٠ .

٦٥- ابو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع "المعروف بالذيل على الروضتين"، ط ٢، دار الجيل بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٠، ٨٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو شامة، الذيل.

٦٦- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق ١، ص ٦٩، ٩١ .

٦٧- راوولف، رحلة المشرق، ص ٥١ .

كما زار راوولف طرابلس في الفترة ذاتها فقال قبيل دخوله اليها: " وكان ينتظر قدومنا للترحيب بنا بعض الفرنسيين الذين كانوا ينزلون في نزل يسمونه فندقا بلغتهم" أي بلغة اهل الشام، وليس بلغة الفرنسيين. وكان موقع هذا الفندق قرب بوابة المدينة ويمتد إلى سورها، وكان إلى جواره فندق آخر أي بالقرب من بوابة المدينة [٦٨]، ولعل السبب في هذا الموقع بالذات دون غيره أن هذين الفندقين كانا يتصلان بالمرفأ وشاطئ البحر من خلال هذه البوابة، وبذلك يسهل على الحمّالين نقل التجار والملاحين وسلعهم إلى داخل المدينة أو بالعكس.

وفي القدس وجد عدد من الفنادق [٦٩] استخدمها التجار لخزن سلعهم واقاماتهم، كما سمح لحجاج بيت المقدس وسيناء بالنزول فيها [٧٠]. وعلى جبل نابلس وجد فندق الشيوخ حيث ورد خبره عند الصفدي اثناء حديثه عن وفاة احمد بن عبدالدايم . . . الفندقي الحنبلي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)[٧١]. وفي حمص وجد فندق كان يجاور املاك تنكز نائب دمشق [٧٢].

يتبين مما سبق أن تاريخ الفنادق يعود إلى ما قبل الاسلام. ومع الاسلام انتشرت الفنادق وتزايدت وبخاصة في المدن الواقعة على السواحل، نظراً لما كانت تستقبل من تجار ومسافرين بشكل كبير حيث يسهل عليهم النزول بها.

كما يتضح أن الدولة المملوكية قد حرصت على تجهيز الفنادق بكافة الاحتياجات الضرورية وحتى الكمالية، من أجل تنشيط التجارة وحث التجار على القدوم والبقاء في البلاد لفترات طويلة. ففي الفندق جميع ما يلزم التاجر من وسائل الراحة بحيث تجعلهم لا يشعرون بالغربة أو البعد عن وطنهم.

٦٨- المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٣١ .

٦٩- القزويني، آثار البلاد، ص ١٦١ .

٧٠- علي السيد، القدس، ص ٢٠٥ .

٧١- الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، جـ٧، تحقيق احسان عباس، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٩٦٩م، ص٣٤-٣٥. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الصفدي، الوافي.

٧٢- المصدر نفسه، جـ ١٠، ص ٤٢٣ .

ومن الملاحظ ايضاً أن سعة الفندق وضخامته تدل دلالة واضحة على كثرة رواده، مما كان ينعكس بالتالي على انتعاش البلاد وازدهارها حيث درّ عليها الاموال الطائلة.

كذلك يستشف مما ذكر أن اهمية المدينة التجارية تظهر من خلال فنادقها، فبقدر ما يوجد فيها فنادق يتضح دورها التجاري وعلى الاخص على الصعيد الخارجي.

وتجدر الاشارة إلى أن هذه الفنادق كانت هبة تقدمها السلطة المملوكية للتجار الاجانب تشجيعاً لهم للقدوم إلى البلاد، ويكتب ذلك في المعاهدات ويمكن للدولة أن تستردها وقتما تشاء [٧٣]. لكن ذلك على ما يبدو لم يدم طويلاً ففي أواخر عهد السلاطين المماليك وبداية قيام الدولة العثمانية اصبحت الدولة تحصل من التجار الاجانب على ايرادات سنوية مقابل نزولهم بالفنادق [٧٤]. ولعل السبب في ذلك أن الدولة المملوكية صارت تواجه عجزاً في اقتصادها نظراً للمصاعب الجمة التي اخذت تعاني منها في الداخل والخارج.

وكانت ترتبط هذه الفنادق بادارة الجمارك في الموانيء، وقد جرت العادة عند وصول التاجر الاجنبي إلى الثغر أن تفتش امتعته بعناية ويطلب منه دفع ٢٪ من قيمة ما معه من بضاعة [٧٥]، لكن هذه النسبة لم تكن دائماً ثابتة ففي الاحوال غير العادية وصلت هذه النسبة إلى ١٠٪ أو اكثر [٧٦]. بعد ذلك كان يسمح للتاجر بالذهاب إلى الفندق والعيش مع ابناء وطنه وفق النمط الذي اعتاد عليه في بلاده [٧٧].

وكان يشرف على الفندق الواحد موظف سمي "بالفنداقي"، علاوة على قنصل الدولة الاجنبية، وهذا الاخير كان مسؤولاً عن الفندق وعن دفع رسوم التجار للسلطان، وفي الوقت نفسه كان مسؤولاً امام السلطان عن أي خلل يحدثه ابناء

٧٣- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٨ .

٧٤- راوولف، رحلة المشرق، ص ٢٦ .

٧٥- عاشور، المماليك البحرية، ص ٢١١.

٧٦- فهمي، طرق التجارة، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

٧٧- عاشور، المماليك البحرية، ص ٢١١ .

وطنه [٧٨]، فعند حدوث أي اعتداء من جانب القراصنة على السفن المملوكية كان السلطان يستدعيه ويجبره على الاتصال ببلاده لاعادة الرجال والبضائع المنهوبة، ولأجل تحقيق هذه الغاية كان القنصل يحتجز مع التجار الاجانب وسفنهم حيث يصدر بحقهم قرار يمنعهم مغادرة البلاد حتى تتحقق شروط السلطات المملوكية [٧٩].

وقد حدث ذلك في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي عندما سلب احد القراصنة سفينة مملوكية محمّلة بالسلع الثمينة، علاوة على مئة وخمسين رجلا، بيعوا هم وبضائعهم إلى دولة تاكسون[٨٠]، فعندما علم السلطان بالخبر طلب القنصل البندقي واخبره بضرورة تدخل البندقية للإفراج عن المحتجزين المسلمين، فكان رد القنصل ان لا سلطة للبندقية على دولة تاكسون، وعندما وجد السلطان أن القنصل غير متعاون معه امر بمصادرة جميع سفن البندقية المعدة للسفر مما دفع ذلك بحكومة البندقية إلى ارسال مبعوثها إلى دولة تاكسون فاشترى الرجال المسلمين واعادهم إلى بلادهم [٨١].

وكان يوجد بالفندق محكمة يشترك في ادارتها القنصل وخمسة آخرون بينهم أجنبي واحد، اما الاربعة الباقون، فهم من الوطنيين، وكان من صلاحيات القنصل تمديد أقامة أو اجلاء أي شخص من جاليته من الفندق [٨٢].

هذا وقد تمتع التجار الاجانب بمزاولة مختلف نشاطاتهم داخل الفندق، بل ان السلطات المملوكية سمحت لهم بجلب الخمور من بلادهم وشربها داخل فنادقهم [٨٣]،

٧٨- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٨٩ .

٧٩- ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢٠٩ .

٨٠- دولة تاكسون: هكذا وردت في المرجع ولا ندري أين تقع.

٨١- ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢٠٩ - ٢١٠ نقلاً عن

Heyd, Histoire ducommerce, Vol. 11 , pp 430 - 434 .

٨٢- ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢١٠ .

٨٣- توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مؤسسة دار الكتب، العراق، ١٩٧٥م، ص ٦٦ ، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اليوزبكي، تجارة مصر.

كما صرح للبنادقة بشكل خاص احضار الخنازير إلى فنادقهم لذبحها واكل لحومها [٨٤]، لذا فالفندق كان بمثابة مقاطعة نصرانية منعزلة داخل بلاد الاسلام [٨٥].

ورغم هذا التساهل من جانب الدولة إلاّ انه لم يكن يسمح للقاطنين في الفندق الخروج منه ليلاً أو يوم الجمعة وقت الصلاة، وإذا دخل الليل اغلقت ابواب الفندق من الخارج فتنقطع الصلة بين سكان الفندق وبين المدينة، ويحذر الاجانب من التأخير أو الوصول بعد غلق بوابات الفندق [٨٦]، ولعل السبب في هذا الاجراء هو خشية أن يحدث أي تصرف من الاجانب قد يتنافى مع عادات وتقاليد سكان المدينة المسلمين مما قد يلحق بهم ضرراً من جانب المسلمين، ويؤدي بالتالي إلى حدوث فتنة ترتد سلبياً على أمن الدولة واقتصادها. كما أن حجزهم داخل الفندق يحفظ السلطة من الخطر، إذ ببقائهم في الفندق يقطع عليهم الطريق من الخروج عن الهدف الذي جاؤوا لأجله وهو التجارة إلى الحديث بالسياسة.

ولما ازداد نشاط التجارة بشرق البحر المتوسط في اواخر العصور الوسطى اعتبر الفندق جزءاً من الوطن الام، إذ أصبح يجتمع فيه سكان كل بلد على حده، ومارس فيه التجار وسكان الفندق حياتهم بكل حرية، فسمح لهم بإقامة يوم في الفنادق للصلاة، وإن لم يمنع ذلك من وجود كنائس لهم بالشام [٨٧].

يتبين مما سبق أن الفنادق قد لعبت دوراً كبيراً في تنشيط الحركة التجارية، وإن السلطات المملوكية لم تألُ جهداً في سبيل الحفاظ عليها وتقديم جميع التسهيلات الممكنة عند نزول التجار بها، في الوقت نفسه استخدمت السلطات المملوكية هذه الفنادق كأداة ضغط تستعين بها إذا ما أضرت بمصالحها بعض الدول الاجنبية، حيث تستدعي القنصل ويتم تنفيذ ما تريده.

٨٤- ابراهيم علي الطرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٨٣، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: طرخان، المماليك الجراكسة.

٨٥- نجاة باشا، التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٦م، ص ٧٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: باشا، التجارة في المغرب.

٨٦- المرجع نفسه، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

٨٧- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

ثالثاً، الخانات

الخان كلمة فارسية[٨٨] تعني البيت أو القصر أو المنزل، وذلك لان بانيه هو الخان أي الملك. وقد دخلت هذه الكلمة في معظم اللغات نقلاً عن التركية فعرفت بالفرنسية KHAN أو KAN، وفي الايطالية Kan أو CANE، واستخدمتها الرومانية فقيل HAN، وفي البلغاريةKhan، وفي اليونانية الحديثة HAN.[٨٩]

والخان عبارة عن مبنى على هيئة مربع طول ضلعه من عشرة إلى ستين متراً، وسمك جداره بين متر ومتر ونصف، وبداخله فناء مربع تشرف عليه اجنحة الخان من الداخل، وفي وسط الباحة يقام في الغالب مسجد، ويتكون الخان في العادة من طابقين على ارتفاع سبعة إلى ثماني امتار، استخدم الطابق الارضي لخزن البضائع، والطابق العلوي استعمل كفندق تنزل به القناصل في كثيرمن الاحيان بسبب حصانته، كما احتوى الخان ايضاً على حمام للاستحمام[٩٠].

والخانات على نوعين منها ما أقيم داخل المدن، ومنها ما شيد خارجها وبخاصة على الطرقات الخارجية، وعرف الأول «بخان التجار» وهو منزل التجار[٩١]، أما الثاني، فسمي «فُنُدق»[٩٢]، أو «خان المسافرين» ليعني محل نزولهم[٩٣]. وسوف نبحث كل نوع على حده.

أ. الخانات داخل المدن

وجد في بلاد الشام العديد من المنشآت والأبنية الحصينة التي ترجع في تاريخها إلى العصر الروماني، وقد اطلق عليها العرب اسم الخانات مثل خان الترك وخان الحلابات[٩٤].

٨٨- ابن منظور، لسان العرب، مادة فندق.

٨٩- الاسدي، الموسوعة، جـ٣، ص ٣٠٠.

٩٠- Encyclopaedia of Islam, Vol IV, p 1011.

٩١- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٤٦.

٩٢- ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٧٧.

٩٣- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٤٦.

٩٤- المرجع نفسه، ص ٤٧.

وفي مدينة دمشق ظهر الخان في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وحل مكان الفندق [٩٥]. وقد ترتب على ذلك ان ارتفع عدد خاناتها لا سيما في العصر المملوكي حيث زاد عددها عن الستين خانا[٩٦] مما يؤكد لنا اهمية هذه المدينة من الناحية التجارية.

وقد جاء توزيع خاناتها في كافة انحائها وبخاصة حول سوق القمح الذي كان يتلقى بضاعته من المناطق الواقعة خارج المدينة، وصارت تعقد فيه صفقات البيع والشراء بالجملة والمفرق، وكأن المكان لم يعد مخصص لايواء المسافرين، بل لاستقبالهم ريثما يفرغون من تجارتهم[٩٧].

كما وجد بالقرب من القلعة ستة خانات، اربعة منها كانت في الجهة الشمالية الشرقية، واثنان تحتها، ولا نعرف شيئاً عما كان يباع فيها[٩٨]. وحول الجامع الاموي وجد عدد مماثل من الخانات مثل خان جقمق، وخان التكة، وخان الخرفان[٩٩]، وغيرها. وعند سوق السروجين ورد ذكر لخمسة خانات أخرى كانت بالقرب منه[١٠٠].

والى جوار باب الجابية وجد خان العميان، وخان السلطان، وخان قصر حجاج، وخان الشبلي[١٠١]. وبسوق العمارة ذكر خمسة خانات عرف اثنان منهما بخان عبدالباسط، والآخر بخان ابن النحاس، وهذا الاخير تحول إلى مدرسة[١٠٢]. أما الاثنان

٩٥- اليسيف نيكتيا، التخطيط المادي، بحث في كتاب (المدينة الاسلامية)، ترجمة محمد احمد تغلب، السيكوموفجر، اليونسكو، ١٩٨٣، ص ١٠٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: نيكتيا، التخطيط المادي.

٩٦- ابن المبرد، الاعانات في معرفة الخانات، في كتاب «رسائل دمشقية»، ط١، تحقيق صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٦٢-٦٦. وسيشار له فيما بعد هكذا: ابن المبرد، الخانات.

٩٧- نيكتيا، التخطيط المادي، ص ١٠٧.

٩٨- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٣-٦٤.

٩٩- المصدر نفسه ص ٦٥، الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٦، ٥٨.

١٠٠- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٥.

١٠١- النعيمي، الدارس، جـ١، ض١٦، جـ٢، ص١٦٧؛ صلاح الدين المنجد، خطط دمشق، مجلة المشرق، ١٩٤٨م، ص٥٤. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: المنجد، خطط دمشق.

١٠٢- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٤.

الآخران، فلا نعرف اسميهما، أو ما عرض فيهما من سلع.

وعند سوق مسجد القصب[١٠٣] وجد أكثر من ستة خانات منها خان الشهابي الذي خصص لنزول الحلبيين[١٠٤]، وخان العقاد الذي عنى بنسج الحرير وغيره، وخان الملح [١٠٥]، وخان القسماط، وخان فارس[١٠٦]، وخان الخزندار[١٠٧] وغيرها.

وفي السبعة الواقعة إلى الشمال من دمشق، شرقي مسجد القصب بالقرب من باب توما وجد ستة خانات ايضاً عرفنا واحداً منها سمي خان الزيت. أما الباقية، فلا نعرف شيئاً عنها[١٠٨].

وبالعقيبة الكائنة شمال السور قرب باب الفراديس وجدت عدة خانات، مثل خان الزنجاري الذي هدمه الملك الاشرف موسى (٥٧٦/١١٨٠-٦٣٥هـ/١٢٣٧م) سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م لانه كان مجمعاً للفساد، وبنى مكانه جامع التوبة[١٠٩]. كما وجد في نفس المنطقة خان المقدم الذي اختص بضرب النحاس، وخان الحموي[١١٠]، وخان طولون[١١١] وغيرها.

١٠٣- مسجد القصب: يقع هذا المسجد شرقي حي العمارة بالقرب من باب توما، ورمم بنائه الاميرناصر الدين بن منجك عام ٧٢١هـ/١٣٢١م انظر ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ١٠٢.

١٠٤- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٤.

١٠٥- الريحاوي، الخانات، ص ٥٧ نقلاً عن ابن طولون مذكرات يومية (مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رقمها ٤٥٢٢) ورقة أ ١٨٢.

١٠٦- النعيمي، الدارس، ج١ ص ١٦، جـ٢، ص ٤٢٦.

١٠٧- الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٧ نقلا عن ابن قاضي شهبة (مخطوطة يقوم بتحقيقها د. عدنان درويش لم يذكر اسمها).

١٠٨- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٤-٦٥.

١٠٩- ابن كثير، البداية، جـ ١٣، ص ١٥٣.

١١٠- المنجد، خطط دمشق، ص٥٥، ٥٧.

١١١- النعيمي، الدارس، جـ١، ص ١٦.

وفي سوق باب السريجة الكائن غربي باب الجابية ورد ذكر لتسعة خانات اختص بعضها ببيع سلعة واحدة مثل العنب، أو شتل الباذنجان، ومنها ما عرض فيها أكثر من صنف واحد من البضائع مثل القمح وغيره، ومنها ما خصص لنزول تجار العبيد. أما الباقية، فلا نعرف ماذا بيع فيها، مثل خان إبن شريدة، وخان إبن العسال، وخان القسطل. بالاضافة إلى خانين آخرين لم تذكر اسمائهما وإنما ورد مكانهما، احدهما كان بجوار الخان الخاص ببيع شتل الباذنجان، والآخر كان بالقرب من خان إبن شريدة من جهة الشمال[١١٢].

وبالقرب من باب الفرج والباب الصغير والباب الشرقي وباب النصر ورد ذكر لمجموعة أخرى من الخانات كانت في هذه المواقع، وعلى الدرب الذي هو تحت سوق اللحامين كان يوجد ثلاثة خانات. وفي القصبة الواقعة بباب المصلى والممتدة إلى رأس القبيبات وجد أربعة خانات. كما كان في القابون خانان عرف احدها بخان السيد، أما الاخر، فكان خاناً للسبيل[١١٣].

كذلك وجد في صالحية دمشق عدد آخر من الخانات مثل خان العنب، وخان السبيل، وخان اللبن، وخان القلانسي، وخان القاضي علاء الدين المرداوي، وخان المدرسة، وخان إبن الديران، وخان دمرداش، وخان المليح، وخان بيرم، وخان سوق شعيب، وخان عبدالباسط، وخان المرستان[١١٤]، وخان الحنابلة[١١٥]، والخان الكبير، وهذا الاخير بناه صالح الدين يوسف (٦٢٧/١٢٢٩-٦٥٩هـ/١٢٦٠م) وحول اليه دار الأطعمة، وقد كانت قبل ذلك غربي القلعة في اسطبل السلطان[١١٦].

١١٢- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٥-٦٦.

١١٣- المصدر نفسه، ص ٦٤-٦٦.

١١٤- المرستان: هوالمارستان القيمري، بناه ضياء الدين أبي الفوارس القيمري زمن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد. وهناك رسم في ذلك، انظر:

Combe, repertoire chronologique, Vol 12, p 6-7.

١١٥- ابن المبرد، الخانات، ص ٦٢-٦٣؛ ابن كنان، المروج السندسية، ص ٣٢-٣٤.

١١٦- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٢٤٦.

مواقعها مثل خان الظاهر والذي نرجح انه منسوب للسلطان الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) إذ اشارت بعض المصادر إلى بناءخان في عهده، وقد تم تجديده من قبل الامير تنكز نائب دمشق عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م[١١٧].

ومنها ايضا خان البيض الذي انشأه النائب منجك[١١٨]في اوائل سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. كما ورد ذكر لخان برقوق (٧٨٤هـ/١٣٨٢-٨٠١هـ/١٣٨٩م) عند لابروكييه في اواسط القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حيث قال: «وفي المدينة (أي دمشق) خان يودع فيه كثير من التجار بضائعهم واسمه خان برقوق، وسبق تيمورلنك ان ابقى عليه بعد ان احرق ما فيه وذلك اكراما لبرقوق»[١١٩].

ومن الخانات نذكر ايضا خان الطحين[١٢٠]، وخان ابن حجي، والخان المعروف قديما بابن الحارة ويومئذ بخان المرأة[١٢١]، وخان الجورة، أو خان المقادسة[١٢٢]، وخان السليماني[١٢٣]، وخان الليمون[١٢٤].

يستشف مما ورد أن مدينة دمشق كان لها مركز تجاري هام دل على ذلك تعدد خاناتها التي قل أن توجد هذه الكثرة في مدينة من مدن بلاد الشام[١٢٥]، ولا غرابة في ذلك فدمشق تعدّ من اكبر المدن الشامية، علاوة على ريادتها السياسية حيث كانت تأتي بعد القاهرة في التنافس على السلطة.

١١٧- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ١٦٤.

١١٨- منجك: هو سيف الدين منجك تولى نيابة دمشق مرتين الاولى سنة واحدة عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م والثانية بين عامي (٧٧٠هـ/١٣٦٨م و ٧٧٥هـ/١٣٧٣م) انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٤٧-٥٠.

١١٩- لابروكييه، رحلته، ص ٣١٤.

١٢٠- النعيمي، الدراس، جـ٢، ص ٢٢٤.

١٢١- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٨٤؛ الريحاوي، خانات دمشق، ص ٥٧-٥٨.

١٢٢- المنجد، خطط دمشق، ص ٥٤.

١٢٣- السليماني، هو جانبك السليماني احد امراء دمشق توفي في شعبان سنة ٨٥٧هـ/آب (أغسطس) ١٤٥٣م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٥٦.

١٢٤- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٠٥.

١٢٥- Encyclopaedia of Islam, Vol IV p 1016.

ومن الملفت للنظر أن الخانات لم تختلف كثيراً في وظائفها عن الفنادق، إذ أن بعض الخانات كانت تخصص لايواء بعض الجهات مثل خان الشهابي الذي عدّ لنزول الحلبيين فيه، لكن القسم الاكبر منها كان مخصصاً لعرض السلع التجارية. كما يلاحظ أن معظم هذه الخانات كانت موزعة على أبواب المدينة وبالاخص حول سوق القمح لكي يسهل على التجار تنزيل وتصميل بضائعهم منها واليها بكل يسر وسهولة، وحتى لا يحدث اكتظاظ داخل المدينة.

كذلك فإن مدينة حلب قد شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً خلال العصر المملوكي، حيث زادت خاناتها على الاربعين خاناً[١٢٦]. حيث وصفها الغزي بقوله: «ومن محاسن مباني حلب خاناتها الشهيرة الكثيرة، التي ترى كل خان يضاهي محلة كبيرة بسعته وعدد مخادعه ومرافقه ومسجده وحوضه، وهو بحصانته كأنه دار مستقلة قد اشتمل داخله على مخازن معدة لاحتكار [البضايع] [١٢٧]، وخارجه على حجر معدة لوضع نموذج [البضايع] [١٢٨] وجلوس التاجر وكتابته ونومه وسكنى خادمه وطبخه، واستقبال [زبونه] [١٢٩] واحبابه، فهو فيه على غاية الراحة والامن والاطمئنان على ماله ونفسه ودوابه» [١٣٠].

وقد جاء توزيع هذه الخانات داخل حلب وخارجها، وكان القسم الاكبر منها داخلها، حيث عرفت باسماء السلع التي عرضت أو صنعت فيها، وربما سميت باسماء الاشخاص الذين بنوها، أو باسم المكان الذي تواجدت فيه، أو بالقرب منه.

ففي داخل حلب نذكر الخانات التي عرفت باسم البضاعة أو التي صنعت فيها مثل خان الحنة، وخان البراذعية، وخان الخراطين[١٣١]، وخان الحبالين، وخان البرغل،

١٢٦- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨-٢٥٠؛ Encyclopaedia of Islam, Vol. IV pp. 1015-1016.

١٢٧- هكذا ورد في النص والأصح البضائع.

١٢٨- هكذا ورد في النص والأصح البضائع.

١٢٩- هكذا ورد في النص والأصح زبائنه.

١٣٠- الغزي، نهر الذهب، جـ١، ص ٨٦.

١٣١- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٩.

وخان العلبية، وخان الفرايين، خان القصابية، وخان الكتان، وخان النحاسين، وخان الدق [١٣٢]، وخان الحرير الذي عرف قبل عهد ابن الشحنة بخان الخسف، ومركزه كان بالقرب من باب النصر. وخان الصابون، ومحله كان داخل باب الجنان. كما وجد في حلب خانان لبيع الزيت سمي الاول بخان الزيت، وكان موضعه قرب باب المقام. أما الاخر، فكان له اسمان هما: خان الزيت، وخان خايربك، نسبة لخاير بك الاشرفي نائب قانصوه الغوري (٩٠٦/١٥٠٠-٩٢٢هـ/١٥١٦م) على حلب، حيث شيده عام ٩١٦هـ/١٥١٠م [١٣٣].

أما الخانات التي عرفت باسماء الاشخاص، فمنها خان أزدمر[١٣٤] ومحله كان بسوق الصابون[١٣٥]، وقد شيده سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م[١٣٦]، وهو يعدّ من أهم وأكبر خانات حلب في العصر المملوكي، إذ زين باشكال هندسية ونقوس بلغت منتهى الدقة والاتقان، بحيث دلّت على أن الذوق الفني المملوكي قد وصل حد الكمال[١٣٧].

ومنها أيضاً خان الشيباني المعروف بخان الفرنج[١٣٨]، ويبدو أن هذا الخان كان مخصصاً لنزول تجار الفرنج مثلما كان خان البنادقة مخصصاً لايواء التجار البنادقة [١٣٩]، كما وجد خان أشق تمر وموضعه كان بالقرب من باب النيرب، وخان السيد، وخان ابن السفاح، وخان الاكنجي، وخان القاضي[١٤٠]، وخان الوزير، وخان

١٣٢- الاسدي، الموسوعة، جـ٣، ص ٣٠٠-٣٠١.

١٣٣- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨-٢٤٩.

١٣٤- ازدمر: هو الامير ازدمر الظاهري جقمق تولى عدة نيابات مثل نيابة صفد، ونيابة طرابلس، واخيراً نيابة حلب انظر السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٢٧٥.

١٣٥- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨.

١٣٦- السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٢٧٥.

١٣٧- عبدالله يوركي حلاق، حلبيات، هدية مجلة الضاد، بدلا من الاعداد (٨-١١) ١٩٨٣م، ص ٧٦. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: حلاق، حلبيات.

١٣٨- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨.

١٣٩- الاسدي، الموسوعة، جـ ٣، ص ٣٠٠.

١٤٠- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

العبسي [١٤١]. أما الخانات التي عرفت باسماء الاماكن فهي خان دار كورة[١٤٢]، وخان الجوزة [١٤٣].

وخارج مدينة حلب وجد عدد آخر من الخانات بعضها حددت أماكنها وبعضها الاخر لم تذكر مواضعها مثل خان الحنة، وخان الفاخورة، وخانا الفحم، وخان السمك [١٤٤]، وخان اللبن[١٤٥]، وخان سويد[١٤٦]، وخان الخندق، وخان العصيص، وخان بيت المرعش، وخان خاير بك، وخان بردبك[١٤٧].

يتضح مما سبق أن مدينة حلب لم تقل في دورها التجاري منزلة عن مدينة دمشق فقد تعددت بها الخانات، كما تنوعت وظائفها، وعرفت باسماء من بناها، أو باسم السلعة التي تباع فيها، أو عرفت باسم المكان الذي تواجدت فيه.

وفي طرابلس جاء توزيع الخانات فيها بجوار الحمامات والأسواق، وكان من أهم خاناتها خان المنزل، وخان الخياطين، وخان المصريين، وخان العسكر، وخان الصابون[١٤٨]، فخان المنزل عدّ من أفضل خاناتها، وهو من إنشاء الامير سيف أسندمر كرجي[١٤٩] فيما بين عامي (٧٠٠هـ/١٣٠٠م و ٧٠٩/١٣٠٩م) حيث تميزت واجهة هذا الخان بإنها

١٤١- الاسدي، الموسوعة، جـ٣، ص ٣٠١.

١٤٢- دار كورة: يبدو أنها عرفت أيضاً بدركاه، فقد ورد ذكر لخان كان في دركاه. أنظر ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٤٩.

١٤٣- المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

١٤٤- خان السمك: كان مكانه على النهر. انظر المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

١٤٥- خان اللبن: وموقعه كان خارج باب القناه. انظر المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

١٤٦- خان السويد: ومركزه كان بالقرب من الجسر خارج باب النصر. أنظر المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

١٤٧- المصدر نفسه، ص٢٥٠.

١٤٨- Encyclopaedia of Islam, Vol. IV, p 1016.

١٤٩- سيف الدين اسندمركرجي: تولى نيابه طرابلس مرتين الاولى في سلطنة الناصر محمد فيما بين عامي (٦٩٨/١٢٩٨م-٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، والثانية ايضا في سلطنة الناصر محمد بين عامي (٧٠٢/١٣٠٢-٧٠٩هـ/١٣٠٩). انظر ابو المحاسن، المنهل الصافي، جـ٣، ، ص ٤٤٣-٤٤٥ ؛ سالم، طرابلس، ص ٣١٨.

غريبة الشكل، ومعقودة مفصصه بفصوص من زهرة الزنبق تمثل تقدماً في تاريخ العمارة [١٥٠].

أما خان الخياطين، فبناه الامير بدر الدين[١٥١] قبل عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، وهو يتصل ببناء حمام عزالدين، وخان المصرين لتشكل معا جانباً هاماً من المدينة التجارية، وخان الخياطين عبارة عن درب مقفل طوله نحو خمسين متراً، وله صفين من العقود الجانبية ويقطع الدرب من الأعلى عشرة عقود عرضية اشبه بالقناطر وليس لهذه العقود سقف، وكان دور هذا الخان يتمثل بوظيفة المصنع والسوق معاً، ففيه كانت تصنع الثياب وتباع بالجملة على التجار لتوزيعها [١٥٢].

وخان المصريين لا يزال قائماً إلى الآن حيث يستخدم كمخزن، ويعود تاريخ بنائه إلى ما بين عامي (٧٠٩هـ/١٣٠٩م و ٧٥٦هـ/١٣٥٥م). وتدور غرفة حول فناء مركزي مستطيل الشكل، وفي اعلى هذه الغرف قبوات نصف اسطوانية عمودية ترتكز فوق الفناء [١٥٣].

أما خان العسكر، فيعود تاريخ عمارته إلى أواخر عصر دولة المماليك البحرية، حيث استخدمه المماليك كثكنة عسكرية لذا عرف بذلك الاسم، وهو يتكون من قسمين من البناء يحف بكل قسم صحن مستطيل بداخله حوض للسقاية، وله أبواب معقودة تنفتح على الصحن[١٥٤].

كذلك فإن مدينة بيروت قد ضمت مجموعة من الخانات[١٥٥] كان يستخدمها الحجاج المسيحيون عند نزولهم في بيروت، كما نزل بها التجار الاروبيون لا سيما القادمون منهم من الجمهوريات الايطالية[١٥٦].

١٥٠- سالم، طرابلس، ص ٤٥٣-٤٥٤.

١٥١- بدرالدين: لم اعثر له على ترجمة.

١٥٢- Encyclopaedia of Islam, Vol IV, p 1016؛ سالم، طرابلس، ص ٤٥٤-٤٥٥.

١٥٣- سالم، طرابلس، ص ٤٥٥.

١٥٤- Encyclopaedia of Islam Vol IV, p 1016؛ سالم، طرابلس، ص ٤٥٥.

١٥٥- الصفدي، الوافي، جـ١٠، ص ٤٣١؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ١، ص ٢٥٧؛ ابن يحيى، بيروت، ص ١٧٩-١٨٠.

١٥٦- حتي، مختصر لبنان، ص ١٥٤.

وفي مدينة القدس وجد عدد من الخانات مثل الخان الذي أمر ببنائه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، وفوض امر الاشراف عليه إلى جمال الدين محمد بن نهار، وكان موقع هذا الخان خارج أسواق القدس[١٥٧]، وبعد اكمال بنائه اوقف عليه عدة قرى ببلاد الشام والقدس مثل نصف قرية لفتا[١٥٨]، وقيراط ونصف في قرية الطرة[١٥٩]، وثلث وربع قرية المشيرفة في بلد بصرى، ونصف قرية كيفا التابعة للقدس، وكان يصرف ريع هذا الوقف في ثمن خبز وفلوس واصلاح نعال من يفد إلى القدس من المسافرين المشاة وغير ذلك مما يلزمهم. ثم اضيف للخان فرن وطاحون ومسجد له إمام، كما نقل اليه من القاهرة باب دهليز القصر المؤدي إلى البيمارستان المعروف بباب العيد[١٦٠].

كما وجد في القدس خان الفحم، وهذا الخان حسب ما يذكر العليمي كان يقع في الشارع الرئيسي من المدينة والذي عرف بخط داود وهو الشارع الاعظم، وابتداؤه من المسجد الاقصى قرب باب السلسلة إلى باب الخليل، وهو خان عظيم وقف على مصالح المسجد الاقصى، وكان يؤجر في العام بنحو أربعمائة دينار، ولم يختص هذا الخان بسلعة معينة من البضائع، بل عرض فيه عدة انواع من السلع[١٦١].

ووجد في نفس الشارع أيضا خان الصرف، وهذا الخان كان مهتما باستبدال العملات المختلفة التي تفد مع الحجاج المسيحيين من الغرب، وكذلك من الاقطار المحيطة ببلاد الشام، وموقع هذا الخان كان بالقرب من التقاء شارع داود بشارع باب المحراب[١٦٢].

١٥٧- اليونيني، ذيل الزمان، جـ١، ص ٥٥٤.

١٥٨- لفتا، قرية تقع على بعد ٣ كلم شمال غربي القدس. أنظر غوانمة، القدس، ص ٨٧.

١٥٩- الطرة: قرية اردنية تقع قرب اربد.

١٦٠- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزء (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م، ص ٢٣٧-٢٣٨. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن شداد، الاعلاق، الأردن؛ اليونيني، ذيل الزمان، جـ١، ص ٥٥٤؛ العيني، عقد الجمان الجمان في تاريخ اهل الزمان (احداث ٦٤٨-٦٦٤هـ) تحقيق محمد محمد امين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص ٣٧٥. وسيشار له فيما بعد هكذا: العيني عقد الجمان احداث (٦٤٨-٦٦٤هـ).

١٦١- العليمي، الانس، جـ٢، ص ٥٢.

١٦٢- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣.

كذلك وجد في القدس خان الجبلي الكائن في خط مرزبان[١٦٣]، وخان تنكز الحسامي نائب دمشق، وكان موضعه بين حمام الشفا وحمام العين في سوق القطانين، وقد تمت عمارته سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م[١٦٤]. كما ورد ذكر لخان العناية في نفس المدينة ومركزه كان بالقرب من باب حطة، وقد خصص ريعه وقفا على المدرسة الصلاحية بالقدس [١٦٥].

وفي أواسط القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي شاهد فابري بالخليل نزلا (مضيف) [١٦٦] نرجح انه قصد به خاناً للسبيل إذ أن وصفه ينطبق تماما على مواصفات الخان، فقد كان يلبي حاجات الزوار الوافدين لزيارة قبور الانبياء، وهو يصف لنا ذلك بقوله: «وشاهدنا في الخليل نزلها الكبير، الكثير الغرف ورأينا المطبخ والفرن، وكانوا يعدون هناك طعاما كثيرا للحجاج المسلمين الذي يأتون جماعات كبيرة لزيارة قبور الانبياء، ولهذا النزل واردت سنوية تبلغ قيمتها نحو من أربعة وعشرين الفا من الدويكات. ويخبز فيه كل يوم الف ومئتان من الارغفة توزع كلها على من يطلب. ولا يمنع أي حاج من هذا الاحسان، مهما كان مذهبه أو دينه أو جنسه. وكل من يطلب طعاماً، يقدم له رغيف خبز وشيء من الزيت وبعض الحساء أو المعجنات. وقد اقطعت أراض كثيرة لهذا النزل وواردته منها الفا دوكة في العام والمئرون من المسلمين الوطنيين والاتراك يهبونه أموالا كثيرة تنفق على راحة الحجاج... وعندما يحين وقت توزيع الخبز يضرب الطبل للفت نظر الناس، وقد ارسل القائمون على امر النزل سلة من الخبز إلى الخان الذي كنا نقيم فيه مع اننا لم نطلب منهم شيئاً»[١٦٧].

كما شهدت مدينة عمان نشاطاً تجارياً ملحوظاً في العصر المملوكي، إذ كانت

١٦٣- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٣.

١٦٤- Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p 276.

١٦٥- غوانمة، القدس، ص ٨٨ نقلا عن وثيقة من وثائق المتحف الاسلامي بالقدس لسنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م، رقم(٤٣).

١٦٦- المرجع نفسه، ص٦٤.

١٦٧- زياده، رواد الشرق، ص ٢٠٠-٢٠١.

الاحمر، مما تطلب إقامة خان بها خدمة لحركة التجارة والمسافرين الوافدين اليها، ويقع هذا الخان إلى الشمال من جامع عمان حيث احتل قسماً كبيراً من الساحة الواقعة بينه وبين الحمامين الاسلامي والروماني، والخان عبارة عن بناء مستطيل الشكل مكون من طابقين يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثمائة قدم في عرض مائة وسبعين قدما من الشرق إلى الغرب، ولا يختلف في ترتيبه وتنظيمه عن الخانات الاسلامية الأخرى. ومن المرجح أن بناء هذا الخان يعود تاريخه إلى عهد المماليك الذي شجعوا التجارة، حيث كان هذا الخان من ضمن الخانات التي أسسوها [١٦٨].

ولا نستبعد أيضاً أن تكون مدينة إربد قد ضمت هي الأخرى عدد من الخانات بسبب موقعها المتوسط بين الشام ومصر، حيث كانت ممراً للجيوش والتجار والمسافرين، مما تطلب وجود خانات فيها خدمة لهؤلاء المارين فيها[١٦٩].

وهكذا نلاحظ أن الخانات قد انتشرت في مختلف مدن بلاد الشام، وقد ارتفع عددها خلال العصر المملوكي مما يدل على مدى الإزدهار الاقتصادي الذي شهده هذا العصر، وكالعادة فإن مدينة دمشق ومدينة حلب كان لهما النصيب الأكبر حيازة للخانات.

وإن الهدف من بناء هذه الخانات يكمن بغرض جمع الثروة حيث حرص العديد من سلاطين وامراء المماليك على تشييد الخانات لجني أكبر قدر ممكن من الأموال، لذا فقد عرفت كثير من هذه الخانات باسمائهم، في الوقت نفسه خصص بعض هذه الخانات لتكون سبيلا أو وقفاً على مصالح خيرية.

١٦٨- غوانمه، عمان، ص ١٩٥-١٩٦.

١٦٩- ابن فضل الله العمري، المصطلح، ص٢٤٧-٢٤٨؛ ابن شاهين، زبدة الممالك، ص١١٩؛ يوسف غوانمه، مدينة اربد في العصر الاسلامي، منشورات مركز الدراسات الاردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦، ص ٢٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمة، إربد.

ب – الخانات على الطرق:

إن الهدف من إقامة مثل هذا النوع من الخانات هو خدمة للتجارة علاوة على أنها كانت خدمة للحجاج، والبريد، والمسافرين بشكل عام.

كان هذا النوع من الخانات يشاد في بداية الامر على منابع المياه، ومجاري الانهار، وابتعد الخان الواحد عن الاخر مسافة ٣٠ كلم تقريبـــاً، أو بمعدل مسيرة مرحلة [١٧٠]،وكان يضم الخان كافة الخدمات التي يحتاجها المسافر، ففيه مستودعات لخزن البضائع، واصطبلات مختلفة لحجز الحيوانات والعناية بها، فضلاً عن ذلك فقد وجد في الخان حوض كان يقع وســط الصحن، ومشرب للدواب، وفرن، ومصلى، وحمام [١٧١].

تشكلت مواد بناء هذه الخانات في الغالب من حجارة كلسية أو بازلتية، أما من حيث التصميم فهو مربع الشكل، ومؤلف من طبقتين توزعت على اركانه أبراج استخدمت من أجل المراقبة والدفاع، كما احيط به سور خارجي مدعم، وله بوابة ضخمة مصفحة محكمة الاغلاق ليلاً، لذا كان أشبه ما يكون بالحصن الصغير[١٧٢]. وذلك من أجل المحافظة على نزال هذه الخانات إذ تحميهم من الاعتداء وتجعلهم في أمان.

هذا ويعتبر قصر الحير الشرقي من أقدم الخانات الاسلامية التي أقيمت على درب المسافرين[١٧٣]، وكان موقعه جنوب تدمر على بعد ٣٥ كلم تقريباً على مفترق طرق تؤدي إلى الفرات وتدمر وحمص والرصافة، ومنها إلى حلب باتجاه الغرب والبصرة وبغداد باتجاه آخر[١٧٤].

وعندما جاء السلاجقة برز نوعان من المباني المقامة على الطرقات، عرف الأول بالرباط (فندق المسافرين)، أما الثاني فسمي بالخانات، وكان هذان النوعان من

١٧٠- المرحلة: قدرت بثماني ساعات. انظر الاسدي، الموسوعة، جـ٣، ص ٣٠٠.

١٧١- راوولف، رحلة المشرق، ص ٥١.

١٧٢- عبدالرحيم غالب، موسوعة العمارة الاسلامية، جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٥٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غالب، العمارة الاسلامية.

١٧٣- Encyclopaedia of Islam, Vol IV, p 1011.

١٧٤- غالب العمارة لاسلامية، ص ١٥٣.

العمائر يبنيان على الطرق الرئيسة وبخاصة طرق التجارة والبريد. ويبدو أن وظيفة كل من الرباط والخان واحدة وإن اختلف المسمى، فالهدف منهما كان خدمة المسافرين [١٧٥].

وبعد السلاجقة واصل الزنكيون[١٧٦] والايوبيون والمماليك عمل اسلافهم في بناء الخانات على الطرق الداخلية والخارجية، وقد شاهد إبن جبير ذلك اثناء سيره على الطريق المؤدي من حمص إلى دمشق، فوصف واحداً منها وهو خان السلطان صلاح الدين وقال عنه:انه «في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها، واحتفالهم في تشيدها، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب في الارض»[١٧٧].

كما ذكر إبن واصل خاناً آخر على هذه الطريق نفسها عرف بخان «برج العطش»، وهو من بناء حسام الدين الحاجب (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) نائب الملك الاشرف على خلاط، وكان هذا الخان في أول أمره عبارة عن برج قديم متهدم لا يوجد فيه ماء لذلك سمي «برج العطش» حيث اتخذه قطاع الطرق مأوى لهم، «فقل ان كان احد يمر به منفرداً فيسلم من الحرامية»، عند ذلك أصلح عمارته، واضاف اليه خان كبير شييده بالحجر النحت، ووضع له باب كبير، وحفر له موضعاً للماء، فاصبح منزلاً وملجأ للقوافل التي تمر به، وعاد الطريق آمناً بعد أن كان محفوفاً بالمخاطر[١٧٨].

وعلى الطريق الممتدة بين حلب وقنسرين اقيمت الخانات، وقد نزل ابن جبير في اثنين منها،ووصف ذلك بقوله: «وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة، وابوابها حديد وهي من الوثاقة في غاية»[١٧٩]. كما ذكر ياقوت خانيين من

١٧٥- فهمي، طرق التجارة، ص ٢٩٤.

١٧٦- ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ١٢٥.

١٧٧- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٣.

١٧٨- ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، جـ٤، تحقيق حسنين محمد ربيع، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٦٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن واصل، مفرج الكروب.

١٧٩- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٨.

هذا النمط كانا بين أذنه[١٨٠] وطرسوس[١٨١]، احدهما عرف بفندق بُغا، والاخر سمي بالفندق الجديد[١٨٢].

وفي العصر المملوكي نشطت التجارة أكثرمن السابق، وتطلب ذلك انشاء العديد من الخانات على طرق بلاد الشام الداخلية والخارجية، فعلى الطريق الممتد بين دمشق وحلب وجد أكثرمن خان مثل خان لاجين[١٨٣]، وخان الوالي، وخان العروس[١٨٤] وخان في تل السلطان[١٨٥]، وخان طومان[١٨٦]، وخان منجك[١٨٧]، وخان شيخون[١٨٨]. كما اكد راوولف على ذلك اثناء رحلته بين دمشق وحلب حيث عدّ تسعة إلى عشرة خانات كانت قائمة على هذا الدرب، وقد قدر المسافة بين كل خان والاخر بـ (٦) كلم على الاغلب، وهذه الخانات عبارة عن منازل مفتوحة كانت تدخل اليها القوافل والمسافرون عند المساء للمبيت فيها، وهي واسعة منتظمة جدرانها حصينة مثل جدران القلاع، ومبنية على شكل مربع، ويوجد في وسطها صحن كبير تحيط به اروقة مفتوحة [١٨٩].

١٨٠- أذنه: بلد من الثغور قرب المصيصة. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ١٣٣.

١٨١- طرسوس: مدينة بثغور الشام تقع بين أنطاكيه وحلب وبلاد الروم. انظر المصدر نفسه، جـ٤، ص ٢٨.

١٨٢- المصدر نفسه، جـ٤، ص ٢٨.

١٨٣- خان لاجين: نسبة الى حسام الدين لاجين نائب دمشق حيث شيده سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وهناك مرسوم ببنائه وما اوقف عليه. انظر: Combe, repertiore chronologique,Vol 13, pp 98-99.

١٨٤- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١٤، ص ٤٢٧.

١٨٥- ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٢.

١٨٦- خان طومان: نسبة لبانيه طومان النوري (ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) انظر بدران، منادمة الاطلال، ص ١٨١.

١٨٧- خان منجك: عرف بذلك نسبة لمؤسسه سيف الدين منجك (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) والذي تولى نيابة طرابلس ودمشق. انظر المرجع نفسه، ص ٢١٠.

١٨٨- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٧٥.

١٨٩- راوولف، رحلة المشرق ص ٥١.

وبالاضافة إلى ذلك فقد وجد بين صيدا ودمشق خان عرف بخان ميسلون[١٩٠]، وبين صيدا وبيروت ذكر خان آخر[١٩١]. وجنوب لبنان بنى السلطان قايتباي (٨٧٣/١٤٦٨-٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) خان كي ينتفع به المسافرون والقاطنون بالقرب منه، وعلى جسر أرطوسية غير بعيد عن طرابلس وجد خان[١٩٢]، كما وجد خان آخر[١٩٣] في قرية الحسينية الواقعة بين طرابلس وبعلبك.

كذلك فإن منطقة شرقي الاردن قد شهدت هي الأخرى اهتماماً واضحاً من جانب المماليك حيث اقاموا بها الخانات خدمة لسير النشاط التجاري بين الجنوب العربي ومصر وبلاد الشام هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهذه الخانات كانت عبارة عن اماكن أمنة يلتجىء اليها الحجاج والمسافرون لاخذ قسط من الراحة ثم يواصلون منها السفر، ومن بين هذه الخانات نذكر خان العقبة (قلعة العقبة)، وخان الحسا[١٩٤]، وخان القطرانة [١٩٥]، وخان قياد (ضبعة) [١٩٦] وخان انشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في الكرك، وجعله للسبيل، وقد عهد ببنائه إلى الامير سنجر الجاولي[١٩٧] سنة ٧١١هـ/١٣١٦م.

١٩٠- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١٤، ص ٤٢٨.

١٩١- لا بروكييه، رحلته، ص ٣١٦.

١٩٢- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٥٢-٥٦.

١٩٣- بنى هذا الخان زين الدين بن داود (٧٨٣/١٣٨١-٨٥٦هـ/١٤٥٢م) انظر النعيمي، الدارس جـ٢، ص ٢٠٣؛ بدران منادمة الاطلال، ص ٣٠٢.

١٩٤- خان الحسا: كان يقع في وادي الحسا الى الجنوب الشرقي من الكرك على بعد ٦ كلم غرب قرية الحسا الحالية. على الطريق الصحراوي المتجه من عمان الى العقبة. انظر غوانمة الاردن الحضاري، ص ١٩٤.

١٩٥- خان القطرانة: موضعه شمال خان الحسا على بعد عدة امتار من الطريق الصحراوي الذي يصل عمان بالعقبة، وعلى بعد ٩٠ كلم تقريبا جنوبي مدنية عمان، انظر المرجع نفسه ص ١٩٨.

١٩٦- خان قياد (ضبعة) ومكانه بين عمان وخان القطرانه الى الشرق من الطريق الصحراوي الحالي، وعلى مسافة يوم من القطرانة، كما اطلق على هذا الخان ايضا خان البلقاء، أو خان قلعة البلقاء، انظر المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

١٩٧- الامير سنجر بن عبدالله الجاولي، ولد سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بأمد، تولى نيابة الشوبك، ثم عمل استادار صحبه للناصر نيابة عن بيبرس الجاشنكير، ثم تولى نيابه الكرك عام ٧١١هـ/١٣١١م انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٢٦٦.

وهكذا نلاحظ ان الخانات قد انتشرت على معظم الطرق في بلاد الشام، ولم يقتصر الامر على ذلك بل ان كثيراً من الخانات قد شيدت على الطرق التي تربط بلاد الشام بالبلدان الاخرى، فعلى الطريق الممتد بين بلاد الشام ومصر، ذكر اكثر من خان مثل خان ام حكيم[١٩٨]، وخان الخطاب[١٩٩]، وخان الصنمين[٢٠٠]، وخان ذي النون[٢٠١]، وخان بالمزيريب[٢٠٢].

كما اقام التاجر الدمشقي الكبير ابن المزلق (ت ٨٤٨هـ/١٣٤٧م) عدة خانات على هذا الدرب في القنيطرة، وجسر يعقوب، والمنية، وعيون التجار، وانفق على بنائها اكثر من مئة الف دينار[٢٠٣]. وبالاضافة إلى ذلك فقد وجدت خانات أخرى على هذا الطريق في جنين، وبالقرب من غزه (خان يونس)[٢٠٤]، والطيرة، وبيت دارس، والخروبة، والعريش، والواردة، والسوادة، والقصير[٢٠٥]. وقد اثنى ابن بطوطة على هذه الخانات اثناء رحلته من مصر إلى بلاد الشام، فذكر ان كل خان من هذه الخانات كان

١٩٨- خان ام حكيم: يقال انه منسوب الى ام حكيم بنت ابي جهل بن هشام. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٤٠.

١٩٩- خان الخطاب: يقع بين الكسوة وغباغب، بناه عزالدين خطاب (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) انظر ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٢٦؛ النعيمي، الدارس، جـ٢، ص ٢٤٤؛ ابن طولون، رسائل تاريخية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، ١٣٤٨هـ، ص٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، رسائل تاريخية.

٢٠٠- خان الصنمين: بناه التاجر شمس الدين محمد بن المغربي (ت ٧٢٢هـ/١٣٢٢م). انظر ابن كثير البداية ، ج١٤، ص ١٠٧.

٢٠١- خان ذي النون، ورد ذكره في الفصل الثاني، ص ٨٣.

٢٠٢- عمر هذا الخان امين الدين بن البص (ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م) انظر النعيمي، الدراس، جـ ٢، ص ٢٣٣.

٢٠٣- المصدر نفسه، جـ٢، من ٢٩٠-٢٩١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص ١٧٣-١٧٤.

٢٠٤- خان يونس: اسس هذا الخان الامير يونس بن عبدالله النوروزي (ت ٧٩١/١٣٨٨م) انظر، ابو المحاسن، النجوم، جـ١١، ص ٣٨٤.

٢٠٥- ابن فضل الله العمري، المصطلح، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ١٤، ص ٤٢٣-٤٢٥.

مجهزاً بكافة وسائل الراحة، وخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشترى منه المسافر كل ما يحتاج اليه[٢٠٦].

ومن الملفت للنظر أن البدو والباعة من سكان القرى القريبة والمجاورة لتلك الخانات قد استغلوا فرصة نزول المسافرين في هذه الخانات، لتقديم ما لديهم من اقوات وسلع لبيعها لهؤلاء النزلاء. وقد أكد فابري على ذلك اثناء نزوله بواحد من هذه الخانات حيث قال: «وجاءنا جماعة من القرى القريبة يحملون الفراخ والطيور والخبز والماء فابتعنا منهم حاجتنا ونعمنا بعشاء هنيء»[٢٠٧].

٢٠٦- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٧٠.

٢٠٧- زياده، رواد الشرق، ص ٢١٢.

رابعاً، الوكالات

وجد في بلاد الشام نوع آخر من المنشآت التجارية عرفت بالوكالة[٢٠٨] أو دار الوكالة، أو دار الطعم [٢٠٩]. وقد استخدمت كلمة وكالة في مصر للدلالة على الخان في حين عرفت في دمشق لتدل على القيسارية [٢١٠].

ويبدو أن هذا النمط من المباني يعود إلى العصر الفاطمي [٢١١]، ثم تزايد عددها في عهد المماليك، حيث حول كثير من الأمراء المماليك قصورهم إلى وكالات لتأجيرها بأسعار مرتفعة [٢١٢].

والوكالة تشبه الفندق بنظامها إلا في ناحيتين الأولى أنها كانت مخصصة لنزول التجار الوافدين من الشرق الإسلامي بينما كانت الفنادق مخصصة لإيواء التجار الأجانب القادمين من الغرب[٢١٣].

والناحية الثانية أن ملكيتها كانت تنتقل من أصحابها لأبنائهم بعد وفاتهم في حين كانت الفنادق ملكاً عاماً تابعة للدولة وليس ملكاً خاصاً لفرد ما أو مجموعة أفراد.

أما عدا ذلك فالوكالات لم تختلف عن الفنادق، إذ ضمت محلات تجارية ومخازن لتخزين البضائع وتسويقها، عليها حجرات لسكن التجار، ولهذا السبب واجه كل من المقريزي [٢١٤]. والعليمي [٢١٥] صعوبة في التمييز بينها وبين الفندق والخان لتشابه وظائفها.

٢٠٨- أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص١٧؛ إبن شداد، الأعلاق، دمشق، ص٩٥، ٢٧٤.

٢٠٩- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٧.

٢١٠- بدران، منادمة الأطلال، ص٣٨٠.

٢١١- ماجد، نظم المماليك، جـ١، ص١٢٣.

٢١٢- ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢١١

٢١٣- فهمي، طرق التجارة، ص٢٨٦-٢٨٧،

٢١٤- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٨٦-٩٤.

٢١٥- العليمي، الأنس، جـ٢،ص٥٢.

كان لكل وكالة مشرف عرف بشيخ التجار، أو وكيل التجار، ويتم اختياره باجتماع عام وباجماع وموافقة التجار عليه، وكانت السلطات الحاكمة تعترف به رسمياً بعد الموافقة عليه، وتتعامل معه نيابة عن التجار. وشخصيته كانت تلعب دوراً هاماً في تجارة الشرق فهو الذي يشرف على التجارة في داخل البلاد وخارجها. كما اوكل اليه صرف العملة واستبدالها نيابة عن التجار، فالتاجر الذي يريد أن يسوق بضاعته كان عليه أن يخزن سلعه لدى هذا الوكيل ليقوم بتسويقها نيابة عنه، مقابل أجر يتفق عليه الإثنان، وغالباً ما تراوح ذلك الأجر بين ١-٢٪ من البضاعة[٢١٦].

أما طريقة البيع فكانت تتم بالنقد أو بالأجل، وبهذه الطريقة الأخيرة يزداد ثمن السلع مما كان يسبب ضرراً للمستهلك، لأنه في الحالة هذه يدفع ثمن السلعة أكثر من الدفع نقداً، ولهذا تنبه السلاطين المماليك لذلك ومنعوا هذا البيع لما فيه من زيادة في الأسعار [٢١٧].

كذلك جرت العادة أن يكون لكل وكالة موظف يعين من قبل النائب عرف بشاد دار الوكالة، وكان من واجبه جمع المكوس من البضائع المبيعة في هذه الدار، وهذه الوظيفة كان يشغلها في دمشق أمير عشرة أو مقدم حلقة أو جندي [٢١٨].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تطورت هذه الوكالات من مراكز للتخزين والبيع والشراء إلى مجموعة أبنية تقوم بدور الحي أو المستعمرة وخاصة بالنسبة للتجار الأجانب الغربيين، حيث بلغ عدد الساكنين فيها من هؤلاء التجار حوالي الثلثين، ولما ارتفع عددهم وتزايدت تجارتهم ونزلوا في الفنادق أصبح لكل جالية حي خاص بها عرف باسمها، وكان يضم إلى جانب الوكالة فندقاً وحماماً ومخبزاً وكنيسة، وهو في مجموعة اطلق عليه المستعمرة فكان التجار يحتفظون بسلعهم فيها مقابل رسوم يؤدونها للدولة، ولهم بعد ذلك ممارسة حياتهم فيها بحرية أوسع[٢١٩].

٢١٦- أبو دمعة، الأحوال الإقتصادية، ص٢٢٢.

٢١٧- غوانمه، القدس، ص٩٢-٩٣.

٢١٨- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩٣؛ غوانمه، التجارة الدولية، ص٩٦.

٢١٩- فهمي، طرق التجارة، ص٢٨٦-٢٨٨.

وهكذا يتضح أن الوكالات لم تختلف في هيكلها عن الفنادق أو القياسر أو حتى الخانات، بل تشابهت جميعها في نفس الشكل تقريباً، وفي نفس الوظيفة أيضاً، حيث نزل بها التجار والمسافرون، لكن موطن هؤلاء التجار قد اختلف، فالوكالات اقتصرت على التجار الشرقيين، أما الفنادق فخصصت للتجار الأجانب القادمين من الغرب، في حين أن القياسر والخانات لم تحدد لأناس معينين وإن كان بعضها قد خصص لجماعة معينة حيث عرفت بهم مثل خان المصريين الوارد ذكره في مدينة طرابلس.

خامساً، منشآت تجارية أخرى

عرفت بلاد الشام عمائر تجارية أخرى مثل الباشورات، مفرد باشورة، وهي عبارة عن طريق قصير ذو منعطفات كانت تقام أيام الحصار عند أبواب المدينة، وهي أشبه ما تكون بالسوق الصغير أو السويقة حيث ضمت حوانيت مملوءة بالبضائع المختلفة، "فإذا حصنت المدينة وقفلت الأبواب يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم"[٢٢٠].

ويبدو أن نور الدين زنكي أول من فكر بانشاء مثل هذا النوع من المباني[٢٢١]، لما له من أهمية كبيرة في حفظ المدن من السقوط في أيدي الأعداء، أو على الأقل فإنها تستطيع الصمود زمناً أطول قبل أن تسقط. فهذه الباشورات كانت توفر للمدافعين وعامة سكان المدينة على الأخص القريبين منها احتياجاتهم من الأقوات والسلع الأخرى من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن وجود مثل هذه الباشورات قرب الأبواب لا يخلق فوضى داخل المدن، إذ لا يحتاج المدافعون والسكان القريبين من تلك الأبواب للذهاب إلى مركز المدينة لشراء السلع، فعندهم ما يكفيهم من المؤن والبضائع الأخرى التي تلزمهم، وقد انعكس أثر ذلك كله ايجابياً في استقرار الأمن الداخلي للمدينة بشكل خاص والبلاد بشكل عام.

كذلك فإن بعض مدن بلاد الشام قد وجد فيها منشآت تجارية أخرى مثل الرحاب، والمربعات، والعرصات، فالأولى مفردها رحبة، وهي عبارة عن ميادين

٢٢٠- البدري، نزهة الأنام، ص١٩.

٢٢١- المصدر نفسه، ص١٩؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص٣٢.

صغيرة نسبياً تحف بها المنازل، حيث استغلها الباعة المتجولون في البداية لممارسة نشاطهم التجاري فيها. ومع مرور الزمن أصبحت هذه الرحاب متخصصة باسم التجارة التي تعرض فيها أو الحرفة التي تمارس فيها مثل رحبة البصل في دمشق [٢٢٢].

أما المربعات، ومفردها مربعة، فهي الأخرى عبارة عن ميادين لكنها أهم من الرحاب إذ كانت تقع عند التقاء مجموعة من الشوارع أو السكك أو الأزقة[٢٢٣]. لذا كانت لها شهرة أكثر من الرحاب حيث ارتادها الناس عند مرورهم بها، ومن أمثلة ذلك مربعة القز ومربعة القطن في دمشق [٢٢٤].

ولم تختلف العرصات، مفرد عرصة، عن الرحاب أو المربعات من حيث وصفها ودورها التجاري، فهي عبارة عن ساحة خالية من البناء أو ميدان واسع[٢٢٥]، وقد عرفت تلك العرصات بنوع السلعة التي تعرض فيها، ومن أمثلة ذلك عرصة الخشب في حلب [٢٢٦]، وعرصة الغلال في القدس [٢٢٧]، وهذه الأخيرة كان يستخدمها الفلاحون لعرض غلاتهم الزراعية فيها [٢٢٨].

وفي الرملة وجدت ساحة واسعة استغلت لعرض السلع فيها لاسيما أثناء زيارة الحاج للمدينة، وقد وصف لابروكييه لنا ذلك عند زيارته لها بقوله: "وفيها (أي الرملة) ساحة داخلية واسعة وكان باستطاعة الحاج شراء ما يحتاجون من أنواع الأطعمة والفواكه" [٢٢٩].

٢٢٢- نيكتيا، التخطيط المادي، ص١٠٥؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص١٩٠.

٢٢٣- نيكتيا، التخطيط المادي، ص١٠٥.

٢٢٤- ابن المبرد، ثمار المقاصد، ص٧٩، ٨٠.

٢٢٥- عثمان، المدينة الإسلامية، ص١٩٠.

٢٢٦- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص١٤٧.

٢٢٧- العليمي، الأنس، جـ٢، ص٥٣.

٢٢٨- غوانمه، القدس، ص٨٣.

٢٢٩- محمود زايد، دراسات للتقسيمات الادارية في فلسطين (المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براترندون لا بروكييه، ١٤٣٢م)، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٣م، ص٥٨٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: زايد، المدن الفلسطينية.

وما دمنا بصدد الحديث عن العمائر التجارية الكبيرة والصغيرة التي وجدت في بلاد الشام فلا ينبغي لنا أيضاً أن نغفل الأماكن الأخرى التي كان يتواجد فيها الباعة المتجولون والذين عرفوا بأرباب المقاعد، وهؤلاء لم يكن لهم حوانيت ثابته يقيمون بها، فبعضهم خصص له أماكن محددة وثابتة يتواجدون فيها باستمرار، مثلاً وجد لهم في مدينة دمشق سوق خاص بهم عرف بسوق المقاعديين، وكان موقع هذا السوق جنوب الجامع الأموي قرب سوق الطواقين، كما كان لهم أيضاً في المدينة نفسها مكان ثابت غربي القلعة استخدم لبيع الزبيب ونحو ذلك[٢٣٠].

ومنهم من كان يفرش بضاعته أمام الأسواق على الرصيف أو على الطريق العام، فسبب عملهم هذا منافسة بينهم وبين أصحاب الحوانيت من ناحية، علاوة على أنهم ضيقوا الطريق على المارة من ناحية أخرى. مما دفع بالسلطة إلى منعهم من ذلك واتخذت التدابير اللازمة بحق المخالفين [٢٣١].

كذلك منعتهم السلطة من اتخاذ ساحات المساجد كمواضع لبيع سلعهم[٢٣٢]. لما في ذلك من ازعاج للمصلين، واخلال بحرمة المساجد حيث تفقد الهدف الذي اقيمت من أجله.

وكان هؤلاء الباعة ينتقلون ببضائعهم من مكان إلى آخر بواسطة دوابهم، أو يحملون سلعهم على اكتافهم، وفي كثير من الأحيان كانوا يتخذون مظلة فوقهم لحمايتهم وحماية بضائعهم من حر الصيف، وبرد الشتاء القارص، وإذا ما دخل الليل اشعل الباعة المشاعل التي تضفي على المكان بهجة وجواً بديعاً يدفع الناس بالقدوم اليه للتنزه وخاصة في أيام الصيف [٢٣٣].

٢٣٠- ابن المبرد، نزهة الرفاق، ص٧٦، ٨٠.

٢٣١- ابن الأخوة، كتاب معالم القربة في احكام الحسبة، دار الفنون كامبردج، ١٩٣٧م، ص٧٨-٧٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن الاخوة، الحسبة.

٢٣٢- ابن عبدالرؤوف وآخرون، ثلاث رسائل في الحسبة في آداب الحسب والمحتسب. تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٧٣، ٧٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عبدالرؤوف وآخرون، الحسبة.

٢٣٣- قاسم عبده، الأسواق، ص١٦٨.

وأخيراً هناك نوع من الباعة الجائلين في المدن الشامية كانوا يأتون اليها من المناطق الريفية القريبة للمدن، وهدفهم هو بيع ما لديهم من منتوجات في أسواقها ثم العودة إلى قراهم.

بعد هذا العرض الوجيز عن العمائر المكملة للأسواق نستطيع أن نخرج بعدة نتائج هامة عن هذه العمائر، وأولها: أن هذه المنشآت التجارية كانت تمثل بحق عماد الحركة التجارية الداخلية والخارجية على السواء.

وثانيها: أن القياسر والفنادق والخانات والوكالات أودور الطعم لم تختلف عن بعضها من حيث وصفها العمراني أو دورها التجاري، فالطوابق السفلية منها استخدمت كمواضع لتخزين السلع وتسويقها، في حين كانت الطوابق العلوية مخصصة لسكن التجار الركاض.

وثالثها: أن هناك ازدهاراً تجارياً واضحاً كان في عهد المماليك، دلّ على ذلك تلك الأعداد الضخمة من العمائر التجارية، والتي كان لدمشق وحلب النصيب الأكبر منها نظراً لما كانتا تتمتعان به من أهمية سياسية، وموقع استراتيجي بالدرجة الأولى.

ورابعها: هناك مرافق تجارية لم يقل دورها التجاري عن العمائر التجارية السابقة الذكر، مثل الباشورات والرحاب والمربعات ثم العرصات، علاوة على الأماكن الصغيرة التي كان يستخدمها بعض الباعة الجوالة لبيع سلعهم التجارية فيها.

الفصل الرابع

العوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً وسلباً

أولاً: العوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً

أ. الموقع الجغرافي

ب. الأهمية الدينية

جـ. الأهمية الإقتصادية

د. الطرق التجارية

هـ. التسهيلات التجارية

و. عوامل أخرى

ثانياً: العوامل المؤثرة في الأسواق سلباً

أ. العوامل الطبيعية

١. الطاعون

٢. الزلازل

٣. السيول

ب. العوامل البشرية

١. الحرائق

٢. عوامل أخرى

أولاً: العوامل المؤثرة في الأسواق إيجاباً:

شهدت الأسواق الشامية في العصر المملوكي نشاطاً تجارياً ملحوظاً لا مثيل له حتى فاقت على أسواق مصر [١]، وذلك لعدة عوامل هامة تفاعلت معاً وانعكست إيجابياً على الحياة الإقتصادية بشكل عام، وعلى الأسواق بشكل خاص، ومن بين هذه العوامل نذكر ما يلي:

أ- الموقع الجغرافي:

تمتعت بلاد الشام بموقع متوسط بين الشرق والغرب، إذ كانت تمثل حلقة وصل، وملتقى القوافل التجارية القادمة من المشرق والعراق من ناحية، ومن آسيا الصغرى والشمال من ناحية ثانية، ومن شبه الجزيرة العربية من ناحية ثالثة، ثم من مصر من ناحية رابعة.

ومن جهة أخرى فبلاد الشام كانت جزءاً من الدولة المملوكية التي كانت تحدها من الغرب الصحراء الليبية حتى برقة، ومن الجنوب بلاد النوبة حتى مصوع، وفي الشمال البحر المتوسط والفرات، ومن الشرق البحر الأحمر وجزيرة العرب والعراق، وبذلك تمكنت دولة المماليك من بسط سيادتها على ثلاثة بحار هامة هي المتوسط والأحمر ومدخل المحيط الهندي [٢].

ب- الأهمية الدينية:-

تعدّ المكانة الدينية لبلاد الشام إحدى سماتها الهامة، إذ ضمت أماكن دينية مقدسة لكافة الملّ الدينية، مما دفع بالناس لزيارتها والحج إليها من كافة الأقطار، حيث جنت السلطة المملوكية بسبب ذلك رسوماً على الحاج والزوار لهذه الأماكن، علاوة على انتعاش النشاط التجاري لمدن الشام بشكل عام، ولفلسطين بشكل خاص.

١- فهمي، طرق التجارة، ص٣٩.

٢- المرجع نفسه، ص١٤.

فمن ذلك كان على الحاج القادم إلى فلسطين أن يستأجر وسائل النقل التقليدية من بداية نزوله في أرض الشام حتى وصوله إلى بيت المقدس، فضلاً عن ذلك كان الزائر يستأجر الخيام عند نزوله من السفن لكي تقيه حرارة الشمس [٣].

هذا عدا عن الأسواق السنوية التي كانت تعقد في مثل هذه المناسبات منذ وصول الحجاج إلى سواحل بلاد الشام، إلى جانب مرافقة الباعة الجائلين لهم أثناء تنقلهم في فلسطين [٤]. كما استغل بعض الصناع هذه المناسبة، فصنعوا العديد من الصلبان وبعض الأشكال الأخرى من أشجار الزيتون، حيث باعوها للحجاج الذين حملوها معهم إلى بلادهم، إذ قدموها هدايا إلى أقاربهم وأصدقائهم [٥].

بالمقابل كان بعض الحجاج يحضر معه من وطنه كثيراً من الأشياء الثمينة للمتاجرة فيها، مما عاد بالتالي على كلا الطرفين بالربح المجزي. وكان كثير من التراجمة يصاحبون الحجاج أثناء تواجدهم في بلاد الشام فيقدمون لهم الإرشادات والنصائح مقابل مبالغ معينة من الأموال والهدايا كانوا يحصلون عليها من الحاج. كما قدم الحاج الأموال والهدايا الكثيرة لكثير من الأماكن التي ارتادها عند زيارته لها مثل القدس وبيت لحم والخليل [٦].

ومن سمات بلاد الشام الدينية أيضاً أنها كانت معبراً لقوافل الحاج الإسلامي الذاهب لمكة، فإلى جانب مسير حاج بلاد الشام فيها، كان يمر فيها حجاج فارس وشمال العراق وديار بكر والأندلس وشمال أفريقيا ومصر والمغرب، لذا شهدت بلاد الشام نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً أثناء ذلك، حيث عقدت الأسواق التجارية لهذا الغرض [٧].

٣- علي السيد، القدس، ص٢١٦.

٤- انظر الفصل الثاني، ص٩١-٩٢.

٥- علي السيد، القدس، ص٢١٦.

٦- المرجع نفسه، ص٢١٧.

٧- انظر الفصل الثاني، ص ٩٥-٩٦.

وفوق ذلك فبلاد الشام ضمت أعداداً كثيرة من الأضرحة الدينية المقدسة والتي تعود لكثير من الصحابة [٨]، لذا حرص العديد من المسلمين على زيارتها والقدوم اليها من مختلف الأنحاء، وقد نتج عن هذا نشاط في الحركة التجارية.

جـ. الأهمية الإقتصادية:

تمتاز بلاد الشام بثروة اقتصادية كبيرة، ففي أراضيها أصنافاً مختلفة من المعادن، مثل الحديد والنحاس والكبريت والنفط وغيرها، حيث شكلت العامود الرئيسي للصناعة. كما أن أرضها كانت صالحة لزراعة مختلف أصناف النباتات الحقلية والشجرية [٩]، علاوة على ذلك فبلاد الشام كانت تحوي ثروة حيوانية كبيرة، ففي سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م صدّرت بلاد الشام إلى مصر أكثر من عشرين ألف رأس من الغنم [١٠]. ومما يؤكد أيضاً أن بلاد الشام كان فيها أعداد هائلة من الحيوانات تلك المعلومات التي أدلى بها كل من ابن فضل الله العمري والقلقشندي حول الأسعار، فقد ذكرا أن أسعار اللحم في بلاد الشام كانت رخيصة إذا ما قورنت بأسعار مصر [١١]. كل ذلك اسهم في زيادة النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام بشكل خاص وللدولة المملوكية بشكل عام.

د- الطرق التجارية:

كان للطرق التجارية التي ربطت الشرق بالغرب دور رئيس في ازدهار التجارة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي. ولتبيان ذلك لا بد من ذكر هذه الطرق.

أقدم هذه الطرق كان الطريق البحري الذي امتد من الصين إلى الهند فالخليج العربي، ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة إلى بغداد، ثم يتجه في اتجاهين شمالاً إلى ديار بكر، وغرباً إلى دمشق، ومنها إلى الموانىء المملوكية على المتوسط، ثم

٨- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٣، ١٨٤؛ ابن طولون، رسائل تاريخية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، ١٣٤٨هـ ص٣٤-٤٢. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: رسائل تاريخية.

٩- انظر الفصل الخامس السلع التجارية.

١٠- النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٠١-٥٠٢.

١١- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص٢٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨٨.

يسير جنوباً إلى غزة، ويعبر الصحراء إلى القاهرة. وكان يتجه فرع آخر من دمشق شمالاً غرباً إلى حلب، ثم إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية ثم أوروبا[١٢].

هذا الفرع الأخير كان يستخدم عند الضرورة كاشتداد القرصنة في البحر المتوسط، أما فروع ديار بكر، فكانت خطرة سيما في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بسبب تلك الحروب التي قامت بين المماليك والعثمانيين والتركمان والمغول [١٣].

أما الطريق الثاني، فكان هو الآخر بحرياً قادماً من الشرق الأقصى عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر. ومن هناك كان يأخذ مسارين، الأول عبر سيناء إلى دمشق، ثم إلى موانىء ساحل البحر المتوسط، والآخر كان يتجه عبر الصحراء إلى النيل فالقاهرة ومنها إلى النيل أيضاً، ثم الإسكندرية، فاوروبا، ولكن هناك عائقان كانا يعترضان هذا الطريق، الأول طول المسافة البحرية المراد قطعها من الصين إلى الهند إلى البحر الأحمر، وما يصاحب ذلك من أخطار كالتيارات البحرية والعواصف الهوائية المتعارضة التي كانت تهب في معظم أيام السنة. أما الصعوبة الثانية، فتمثلت بالشعاب المرجانية المتواجدة في البحر الأحمر، لكن الملاحين تمكنوا من التغلب على هاتين المشكلتين وذلك بمعرفة مواعيد هبوب الرياح الموسمية، والإبتعاد عن الشعاب المرجانية والتيارات المتعارضة، من خلال الإعتماد على السفن كبيرة الحجم [١٤].

ازدادت أهمية هذا الطريق بسبب تعطل الطريق التجاري البحري القادم من وسط آسيا من ناحية، ولبعده عن ساحات القتال فيما بعد بين العثمانيين والأوروبيين والتركمان وامارات آسيا الصغرى والصفويين من ناحية أخرى. كل ذلك أسهم في قطع الصلات التجارية بين الشرق والغرب على هذا الطريق، فدفع ذلك التجار للإتجاه نحو هذا الطريق لأنه أصبح بحق من أكثر الطرق أمناً بالرغم مما

١٢- فهمي، طرق التجارة، ص١١٨.

١٣- المرجع نفسه، ص١١٨.

١٤- المرجع نفسه، ص١٢٥.

واكب ذلك من جهد ومال وحراسة أثناء نقل السلع عبر البر [١٥].

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد أن عدن وجده والسويس والطور وأيلة (العقبة) قد شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً على هذا الطريق، فقد كانت تنزل فيها السلع وتنقل إلى أماكن شتى، ففي أيلة كانت تنزل البضائع المتجهة إلى مدن الشام المختلفة، في الوقت نفسه انشيء في أيلة مركز للمكوس لتحصيل الرسوم من السلع الوافدة اليها [١٦].

أما الطريق الثالث، فهو بري قادم من وسط آسيا عبر الهند وجبالها إلى بخارى حيث يتفرع فرعان: الأول إلى بحر قزوين وبلاد البلغار، والثاني يسير إلى البحر الأسود وموانؤه، ثم استانبول وأوروبا [١٧].

ونلاحظ أن هذا الطريق قد خدم دولة المماليك دون أن يكون لهؤلاء يد في ذلك، حيث أصبح غير صالح أثناء الحروب المتتالية بين العثمانيين والبزنطيين، علاوة على الصراع الذي نشب بين الإمارات التركمانية وجيرانهم، والصراع بين العثمانيين والجيوب الرومانية على البحر الأسود، وفيما بعد بين المماليك والصفويين، وإلى جانب هذه المصاعب فإن التجارة واجهت عراقيل أخرى عبر هذا الطريق تمثلت بالتفتيش الدقيق والمراقبة الشديدة من جانب العثمانيين، فضلاً عن الضرائب الباهضة التي حصلها العثمانيون من التجارة المارة عبر أراضيهم، كما تعرضت العديد من السفن الحربية للمصادرة من قبل العثمانيين حيث استخدمها هؤلاء في حروبهم ضد أعدائهم، كل ذلك دفع بالتجار ومن مختلف الأقطار إلى النزوح والتوجه إلى الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط في مصر والشام، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ازدياد الحركة التجارية بشكل أكثر نشاطاً، ورغم ذلك فإن هذا الطريق لم ينقطع كلياً بل ظلت التوابل وغيرها من سلع الصين والهند وبلاد فارس تصل إلى البحر المتوسط استانبول دون انتظام[١٨].

١٥- فهمي، طرق التجارة، ص١٢٥.

١٦- غوانمه، الأردن الحضاري، ص٦٦.

١٧- فهمي، طرق التجارة، ص١٥٤.

١٨- المرجع نفسه، ص١٥٤-١٥٦.

هـ- التسهيلات التجارية:

من الأمور الهامة التي يجب أن لا نغفلها عند حديثنا عن ازدهار الأسواق في بلاد الشام زمن المماليك أن التسهيلات المختلفة التي قدمت للتجار الأجانب كان لها أثر إيجابي في تنشيط الحركة التجارية. فقد خفضت السلطات المملوكية كثيراً من الضرائب عن بعض الأصناف من السلع، في الوقت نفسه سمح لهؤلاء التجار بالتجوال والإقامة في مدن بلاد الشام من أجل المتاجرة[١٩].

ويعود تاريخ إقامة التجار الأجانب في بلاد الشام إلى العصور الإسلامية الوسيطة، ففي زمن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سمح لتجار أمالفي بين عامي ٤٤٠هـ/١٠٤٨م و ٤٦٣هـ/١٠٧٠م تشييد مكان لهم في القدس حيث ضم كنيسة ومقر لسكنى مواطنيهم من التجار والحجاج [٢٠].

لذا فقد خصصت لهم أحياء خاصة بهم حيث ضم الحي الواحد كنيسة ومستودعاً لخزن البضائع التجارية إلى جانب فرن عمومي لصنع الخبز وحمام للإغتسال، وكان القنصل يشرف على الحي وينظر في أموره، وينهي المشاكل والمخاصمات التي تنشأ بين التجار، وأول من حمل هذا الإسم كان الجنويون النازلون في عكا، وذلك في أواسط القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وقد دعُي أولاً بنائب القمص، ثم انتشرت هذه الوظيفة في أماكن شتى خلال النصف الثاني من ذلك القرن، وعرف أصحابها بالقناصل، وعدّ الإيطاليون أسبق من غيرهم في اكتساب هذا الإسم، أما الفرنسيون فأول من نال منهم رتبة القنصل كان في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م في مدينة صور [٢١].

وفضلاً عن ذلك فإن بلاد الشام كان فيها سلع الشرق التي يحتاجها الغرب، لذلك لم يكن هناك من دافع لهؤلاء التجار للسفر إلى مواطن انتاج هذه السلع[٢٢]. كما زاد العلاقات التجارية بين المماليك والتجار الأوروبيين أهمية تلك المعاهدات التجارية

١٩- لامنس، تجارة سورية، ص٩٢٣.

٢٠- غوانمه، القدس، ص٩٠.

٢١- لامنس، تجارة سورية، ص٩٢٣.

٢٢- هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص١٧٥.

التي عقدت بين الطرفين كتلك التي وقعت بين البندقية وبيزة وجنوة من جهة وبين المماليك من جهة أخرى، وذلك في الأعوام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م و٦٧٤هـ/١٢٧٥م/١٢٧٦م و٦٨٤هـ/١٢٨٥م و٦٨٨هـ/١٢٨٩م و٧٠٢هـ/١٣٠٢م و٧٠٤هـ / ١٣٠٤م[٢٣].

وكانت هذه المعاهدات تنص على حماية التجار وممتلكاتهم من الإعتداء، وتقديم الخدمات اللازمة لهؤلاء التجار في الأماكن التي ينزلون فيها، مقابل ذلك كان على هؤلاء التجار دفع ضرائب معينة للسلطات المملوكية، علاوة على الرسوم التي تجبى منهم على ما معهم من سلع، كما نصت تلك المعاهدات على الشروط الواجب على التجار الأجانب اتباعها عند مزاولتهم لأعمالهم[٢٤].

كذلك لا ننسى أن بعض السلاطين قد شجعوا على التجارة وذلك باصدار مناشير خاصة تحث التجار الأجانب للقدوم إلى بلادهم، وخير دليل على هذا ذلك المرسوم الذي أصدره السلطان قلاوون (١٢٧٩/٦٧٨ - ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) ومما ورد في هذا المرسوم ما يلي:"فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند، والصين والسند، وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الإرتحال اليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور، وفي نعمة جزاؤها الشكر، وهل يُجازى إلا الشكور، وفي سلامة في النفس والمال، وسعادة تُجليّ الأحوال وتمول الآمال؛ ولهم منا كل ما يؤثرونه: ومن معدلة تجيب داعيها، وتحمد عيشتهم دواعيها، وتبقى أموالهم على مخلفيهم، وتستخلصهم معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم[٢٥] فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلف أمراً يشق، فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ما

٢٣- زيتون، العلاقات الإقتصادية، ص١٩٦-٢٠١، ٢١٨.

٢٤- لابيدوس، مدن الشام، ص١٩٥.

٢٥- الكارم: أطلق هذا الإسم على من عمل بتجارة التوابل والبهار وغيرها من بضائع الشرق والساحل الشرقي لأفريقيا، ويبدو أن هذا الإسم منسوب إلى مملكة الكانم كما عرفوا أيضاً باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور، ويعود نشاط هؤلاء التجار الى العصر الفاطمي، ثم تزايد نشاطهم في العصر الأيوبي والمملوكي، لكن المماليك سعوا للإطاحة والتقليل منهم قدر المستطاع، بسبب قوة نفوذهم الإقتصادي وحرصاً على عدم دخولهم الميدان السياسي الأمر الذي قد يؤدي الى ضعف سلطة المماليك. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٢؛ صبحي لبيب، التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م٤، ع١، ١٩٥١م، ص٥ - ٥٣ . وسيشار اليه فيما بعد هكذا: لبيب، التجار الكارمية.

شق؛ ومن أحضر معه مماليك وجواري فله في قيتمهم ما يزيد على ما يريد، والمسامحة بما يتعوضه بثمنهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد: لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود ..."[٢٦]. لذلك سارع كثير من التجار بالوفود إلى بلاد الشام ومصر حيث وجدوا حسن الإستقبال، والتفهم الجيد، والمعاملة الحسنة من جانب السلطات المملوكية [٢٧].

كما أسهم سقوط استانبول ٨٥٧هـ/١٤٥٣م بيد الأتراك العثمانيين في قدوم أعداد كبيرة من التجار الأجانب لبلاد الشام، فبخسارة البيزنطيين اضطربت التجارة وطرقها البحرية والبرية من آسيا وأوربا عبر البحر الأسود والأناضول والمضايق حتى أصبح المرور بها أمراً محفوفاً بالمخاطر، وبدلاً من اصلاح الخلل فقد انتهج العثمانيون اسلوباً آخر، حيث اتجهت أنظارهم إلى الناحية الحربية في الوقت نفسه اصدروا أمراً بالقبض على الجاليات التجارية الأجنبية التي احتكرت التجارة في المنطقة منذ أمد بعيد، مثل تجار المدن والجمهوريات الإيطالية لمساعدتهم البيزنطيين في العمليات العسكرية، فأنهوا وكالاتهم وعقودهم التجارية، ودفع هذا الإجراء بهؤلاء إلى الرحيل، فمنهم من اتجه إلى وطنه، في حين فضل القسم الأكبر التوجه إلى بلاد الشام ومصر، وساعدهم في ذلك أن السلطات المملوكية سمحت لهم بالقدوم إلى أرضها، وإقامة وكالات ومصارف ومخازن وفنادق لهم فيها، كما أجاز لهم تعيين وكلاء لقناصلهم في بعض المرافق للإشراف على عمليات البيع والشراء والمقايضة وتحصيل الرسوم المحلية والجمركية وتسليمها للسلطات الحاكمة، لذلك نشطت العمليات المصرفية عقب نقل مراكز التجارة من استانبول إلى مصر والشام، وهذه الأخيرة زادت أهميتها بسبب تفضيل التجار لها دون غيرها لقربها من مراكز التجار في وسط آسيا، وآسيا الصغرى، والخليج العربي [٢٨].

ولا ننسى أيضاً ما قام به بعض السلاطين ابتداءً من نور الدين زنكي وانتهاء بآخر سلاطين المماليك من خدمة للتجارة، وذلك بإقامة الخانات على الطرقات

٢٦- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٤٠.

٢٧- غوانمه، التجارة الدولية، ص٨٨.

٢٨- التميمي، الطرق التجارية، ص٤٠٢.

وتزويدها بأبراج للمراقبة لكي تحمي التجار والمسافرين من عبث المفسدين، مما مكن القوافل التجارية بالتالي من التنقل بكل يسر وسهولة[٢٩].

كما حرص بعض السلاطين المماليك على إيجاد مراكز للبريد على الطرق الخارجية خدمة لموظفي البريد السطحي والتجار والمسافرين. وقد كان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨/١٢٦٠ - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) أسبق سلاطين المماليك على إقامة مثل هذا النمط من المراكز، فالمركز كان يحتوي على كل ما يحتاج اليه المسافر من قوت وماء، وهذا ما دفع المقريزي إلى القول: "أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماءاً" [٣٠].

و- عوامل أخرى:-

هناك عوامل أخرى غير التي ذكرناها من قبل أسهمت دون شك في ازدهار الأسواق الشامية خلال العصر المملوكي، فمنها ما يتعلق بالصناعة التي شكلت القسم الرئيس من السلع المصنعة والمعروضة للبيع داخل الأسواق.

لقد شهدت الصناعة في بلاد الشام ازدهاراً واضحاً خلال عصر دولة المماليك الاولى لأسباب عدة منها وفرة المواد الخام اللازمة للصناعة من ناحية ووجود الأيدي الماهرة والمدربة لصناعة مختلف السلع من ناحية أخرى، علاوة على رعاية السلطة المملوكية لها.

كما أن هجرة أعداد كثيرة من الناس لبلاد الشام قد اسهم في رفع شأن الصناعة ببلاد الشام ، ذلك ان كثيراً من الصناع فروا من الاناضول والعراق والجزيرة خوفا على أنفسهم من التتار فكانت بلاد الشام خير مأوى لهم. وقد دل على ذلك أن كثيراً من التحف المصنوعة في الشام كانت مطعمة بالذهب والفضة باسلوب فني تشبه بحد ذاتها النمط الموجود في الموصل ، مما يؤكد هجرة الفنانين من الموصل لبلاد الشام. [٣١]

٢٩- انظر الفصل الثالث العمائر المكملة للأسواق.

٣٠- المقريزي، الخطط، جـ١ ص٤٢٥.

٣١- أ.أ شتور، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبله، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص٣٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: أشتور، التاريخ الإقتصادي.

كذلك فإن وجود بعض القوات المملوكية داخل بعض المدن الشامية قد ساعد في دعم الحياة الإقتصادية لبلاد الشام، حيث خصصت كثير من الصناعات لتلبية احتياجات الجيش من السلع المختلفة، وللدلالة على ذلك فقد شهدت المنطقة المحيطة بقلعة دمشـــق ازدحاماً لا نظير له من الأسواق التجارية والصناعية ذات السلع المختلفة [٣٢]. كما أن المرور المستمر للقوات المصرية عبر بلاد الشام قد أسهم في تنشيط الحركة التجارية حيث اتسعت الأسواق التجارية المختلفة لتلبية احتياجات الجنود من الأطعمة والأسلحة المختلفة وغير ذلك، مما ساعد بشكل مباشر تنشيط الحركة التجارية والصناعية[٣٣].

ومما ساعد أيضاً في ازدهار الحياة الإقتصادية في دولة المماليك استقرار النظام النقدي لدولتهم، فخلال المائة والثلاثين عاماً لقيام دولتهم لم تحدث أزمة نقدية تؤدي إلى ارتفاع الأسعار أو عرقلة التجارة، ذلك أن دور السك كان لديها كميات كبيرة من المعادن الثمينة، وكان باستطاعتها سك كميات كافية من الدنانير والدراهم باستعمال سبائك ذات نوعية ممتازة [٣٤].

ثانياً: العوامل المؤثرة في الأسواق سلباً

أ) العوامل الطبيعية:

١- الطاعون

الطاعون مرض خطير يصيب الإنسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان. فهو أول ما يبدأ كما يقول المقريزي "يخرج خلف أذن الإنسان بترة فيخر الإنسان صريعاً ثم صار يخرج للإنسان كبة تحت إبطه فلا يلبث ويموت سريعاً ثم خرجت بالناس خيارة، فقتلت قتلاً كثيراً، وأقاموا على ذلك مدة، ثم بصقوا الدم فاشتد الهول من كثرة الموت حتى إنه أكثر من كان يعيش بعد نفث الدم نحو خمسين ساعة".

٣٢- البدري، نزهة الأنام، ص٤٦.

٣٣- لابيدوس، مدن الشام ص٤٥.

٣٤- أشتور، التاريخ الإقتصادي، ص٣٨٠.

وموعد ظهوره كان يحدث في غالب الأحيان زمن الربيع وعلّل الأطباء ذلك "بسيلان الاخلاط[٣٥] في الربيع وجمودها في الشتاء" [٣٦].

عد البعض الطاعون أحد عيوب الشام [٣٧] بسبب تكرار حدوثه فيها، فقد تعرضت بلاد الشام باستمرار لهذا المرض سيما في العصر المملوكي، فقلما كان يمر عقد من الزمان إلاّ ويظهر ببلاد الشام[٣٨].

وقد نتج عنه أضرار سلبية على الحياة الإقتصادية، إذ قتل أعداد كثيرة من الناس قدرت في بعض الحالات بآلاف من البشر، والذين هم عماد الحركة الإقتصادية، فهناك من هلك وبيده البذار أو المحراث، ولم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لوفاة أصحابها ودوابهم، وأدى ذلك إلى نقص في الثروة الزراعية.

وبسبب وفاة الناس قل الصناع والعمال في البلاد، واسفر هذا عن ارتفاع في الأجور، كما أن التجارة تأثرت حيث نقصت السلع من الأسواق لعدم وجود من يحملها أو ينقلها، وانعكس ذلك سلبياً على الدولة إذ تضاءلت مواردها المالية، مما دفع ببعض السلاطين المماليك للإقتراض من تجار الكارم لتجهيز الحملات العسكرية لإخماد الثائرين على الدولة [٣٩].

٣٥- الأخلاط: ويعني أمزجة الإنسان الأربعة. أنظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خلط.

٣٦- المقريزي، السلوك، جـ٢، ق٣، ص٧٧٥، جـ٤، ق٢، ص٨٢١.

٣٧- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، بريك، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص١١٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر البلدان؛ القزويني، آثار البلاد، ص٢٠٦.

٣٨- يوسف غوانمه، الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، دراسات تاريخية، ع١٣، تشرين اول، ١٩٨٣م، ص٧٤-٨٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه، الطاعون.

٣٩- المرجع نفسه، ص ٧٩؛ لبيب، التجار الكارمية، ص٢٦.

٢. الزلازل:

الزلازل من زلزل الشيء أي حركه [٤٠]، وهي ناتجة عن الرياح والأبخرة المحتقنة داخل الأرض حيث تكون مادتها كثيرة لا تقبل التحليل بأدنى حرارة ويكون وجه الأرض صلباً ليس فيه منافذ ومسام تسمح للأبخرة والرياح بالخروج، فإذا قصدت الصعود اهتزت منها الأرض واضطربت، ولا تزال كذلك إلى أن تخرج تلك المواد. فإذا خرجت، سكنت الأرض [٤١].

لقد تعرضت بلاد الشام للعديد من الزلازل خلال العصر المملوكي حيث نتج عنها وفاة اعداد كثيرة من الناس، وتدمير الكثير من العمران بمختلف أشكاله، مما كان له الأثر السلبي على الجانب الحضاري لبلاد الشام [٤٢]. وكان يعتمد ذلك على قوة الزلزلة، فبقدر ما تكون الزلزلة شديدة يكون الضرر اكبر، او العكس.

٣. السيول:

لا يقل عامل السيول عن غيره من العوامل الأخرى في التأثير سلبياً على العمائر التجارية سواء من الناحية العمرانية أو التجارية، فكثيراً ما كان يحدث بين الآونة والأخرى سيل في بعض مدن الشام مما كان يلحق ضرراً بالغاً في المظاهر الحضارية، علاوة على هلاك أعداداً كثيرة من الناس.

لذا كان من الأهمية دراسة هذا العامل لتبين أثره الواضح على العمائر التجارية بشكل خاص وما أحدثه من تراجع في نشاطها التجاري، ففي الأعوام

٤٠- ابن منظور، لسان العرب، مادة زلل.

٤١- القزويني، عجائب المخلوقات، ص١٩٨-١٩٩؛ عبدالله يوسف الغنيم، أسباب الزلازل وأحداثها في التراث العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٣٥، جـ٤، تشرين الأول ١٩٨٤م، ص١٧٧، ١٧٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غنيم، الزلازل.

٤٢- السيوطي، كشف الصلصة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٩٩- ٢١٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: السيوطي، وصف الزلزلة؛ يوسف غوانمه، الزلازل في بلاد الشام في العصرالإسلامي وأثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٩٠م. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غوانمه الزلازل؛ عبدالله يوسف الغنيم أسباب الزلازل واحداثها في التراث العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٣٥، جـ٤، تشرين الاول ١٩٨٤م، ص ١٧٥، ٢٨٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: غنيم الزلازل.

٦٥٣هـ/١٢٥٥م [٤٣]، و شوال ٦٦٩هـ/ أيار(مايو) ١٢٧١م [٤٤]، و شعبان ٦٨٢هـ/ تشرين أول(اكتوبر) ١٢٨٣م [٤٥]م، وشعبان ٦٨٣هـ/ تشرين أول(اكتوبر) ١٢٨٤م [٤٦] أصيبت دمشق خلالها بسيول كانت أضرارها مختلفة فالسيل الأول تأثر به سوق الفاكهة بصالحية دمشق، والثاني خرب خان ابن المقدم، كما أغرق عشرة آلاف نفس عدا عما ذهب بسببه من الجمال والأموال، حيث وصل ارتفاع الماء بدمشق إلى أحد عشر ذراعاً. ولم يقل السيلان الاخيران ضرراً عن السيل الأول والثاني.

وفي شهر رجب ٦٩٢هـ/ حزيران(يونيو) ١٢٩٣م [٤٧]، وصفر ٧١٦هـ/ نيسان (ابريل) ١٣١٦م[٤٨]و٧١٧هـ/ ١٣١٧م، وصفر ٧١٨/ نيسان(ابريل) ١٣١٨م [٤٩]، اجتاحت بعلبك سيول جارفة أسفرت عن تخريب كثير من الكروم والمزارع والمساكن، وهدم أسواق كثيرة زادت عن الستمائة حانوت، وسبعة عشرة فرناً، وإحدى عشر طاحوناً، علاوة على غرق نحو ألف وخمسمائة شخص.

كذلك فإن مدينة عجلون قد تعرضت لسيل مدمر في ٢٢ ذي القعدة ٧٢٨هـ/ تشرين الأول (اكتوبر) ١٣٢٨م، وكان عرضه مسافة رمية رمح، وارتفاعه قدر قامتين أو أكثر، فأخذ معه عدة عمائر كان من ضمنها عدد كثير من المنشآت التجارية، مثل دور الطعم والأسواق، كسوق التجار، وبعض سوق الادميين، وسوق القطانين، وسوق

٤٣- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٥، ص٢٦٠.

٤٤- بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٧٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المنصوري، التحفة الملوكية؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٣٠، تحقيق محمد عبدالهادي شعيره، الهيئة المصرية العامة ١٩٩٠م، ص١٧٦-١٧٧؛ الذهبي، دول الإسلام، ص٢٧١

٤٥- العيني، عقد الجمان أحداث (٦٦٥-٦٨٨) ص٣٠٩.

٤٦- الكتبي، عيون التواريخ ، جـ٢١، ص٣٤٢-٣٤٣؛ ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص٣٢١.

٤٧- المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص٣٨٥.

٤٨- أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٨٠؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص٧٤.

٤٩- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص٨٤، ٩٠.

الأقباعين، وسوق الخلعيين، وسوق البز العتيق، وسوق الصاغة، وسوق الفامية، وسوق القطين، وسوق الحصرين، والسوق الذي أنشأه علاء الدين بن معبد، وسوق اللحامين، علاوة على تدمير حوانيت الخبازين، وحوانيت الطباخين، والسوق الذي عمره الأمير سيف الدين بقلعة عجلون، وهدم كذلك الحوانيت الموقوفة من قبل القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المصرية على مدرسته بنابلس، كما ردم قيسارية التجار التي بناها الأمير سيف الدين بكتمر، والقيسارية التي شيدها الأمير تنكز، ولم يسلم منها أكثر من عشرين في المئة، وهدم أيضاً القيسارية القديمة، علاوة على غرق سبعة أشخاص. وقد قدرت خسائر ذلك كله بخمسمائة ألف درهم. وقيل بل ألف ألف درهم، عدا عما ذهب فيه من الغلال والمواشي والبساتين والطواحين [٥٠].

وعقب هذا السيل جاءت إلى بلاد الشام عدة سيول وفي أماكن مختلفة وذلك خلال الأعوام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م [٥١]، و ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، وشهر ذي الحجة ٧٦١هـ/ تشرين أول(اكتوبر) ١٣٦٠م [٥٢] وجمادى الأولى ٧٦٤هـ/ شباط(فبراير) ١٣٦٣م [٥٣]، و٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م [٥٤]، وربيع الأول ٧٧٤هـ/ آب(اغسطس) ١٣٧٢م [٥٥]، و٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م [٥٦]،

٥٠- ابن الوردي تتمة المختصر، جـ٢، ص٤١٢؛ ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص١٤٥؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص١٨٩-١٩٠؛ غوانمه، التجارة الدولية، ص٩٤-٩٥ نقلاً عن النويري، نهاية الارب، جـ٣١، لوحة ٩٠-٩١.

٥١- الذهبي، ذيول العبر، جـ٤، ص٩١؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص٢١٩.

٥٢- الذهبي، ذيول العبر، جـ٤، ص٩٨، ١٨٦؛ ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص١٧٣، ٢٨٧.

٥٣- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص٣١٥، ٣٢١.

٥٤- الطباخ، أعلام النبلاء، جـ٢، ص٣٦٢.

٥٥- ابن حجر، أنباء الغمر، جـ١، ص٣٧.

٥٦- ابن العراقي، الذيل على العبر في خبر من غبر، ٣ أجزاء، تحقيق صالح مهدي عباس، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، جـ٢، ص٣٦٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن العراقي، الذيل على العبر.

و٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م[٥٧]، و٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م [٥٨]، وربيع الآخر ٧٩٥هـ/ شباط(فبراير) ١٣٩٣م [٥٩]، و٨١٠هـ/ ١٤٠٧م [٦٠]، و٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م [٦١]، وربيع الآخر ٨٩٤هـ/ آذار(مارس) ١٤٨٩م [٦٢]، وجمادى الآخرة ٩٠٤هـ/ كانون ثان(يناير) /١٤٩٨-١٤٩٩م[٦٣]، وجمادى الآخرة ٩٠٩هـ/ تشرين ثان(نوفمبر) ١٥٠٣م [٦٤].

يتضح مما تقدم أن بلاد الشام قد تعرضت للسيول مرات عدة، ونتج عن ذلك دمار وخراب في البلاد، حيث هدمت عمائر كثيرة بمختلف أنواعها، عدا عن غرق كثير من الناس واتلاف ممتلكاتهم مما كان له الأثر السلبي والمباشر على تطور البلاد وازدهارها.

وكانت تختلف اضرار السيول من سيل لآخر، فبقدر ما كان السيل شديداً كان الخراب أكبر، أو العكس. واعتمد ذلك على أمرين هما: كثرة الأمطار من ناحية، وموقع العمران من ناحية أخرى. فالمدن أو القرى التي تقع في مجرى السيول تكون معرضة للدمار أكثر من المدن أو القرى المرتفعة عن الوديان أو مسير السيول. وقد لاحظنا ذلك في مدينة عجلون حيث دمر السيل الجارف في ٧٢٨هـ/١٣٢٨م عمائرها وبخاصة التجارية بسبب موقعها الذي ساعد السيل على التدمير، وكذلك الحال بالنسبة لدمشق التي تعرضت مرات عديدة لجرف السيول، حيث نتج عنها خسائر مادية وبشرية جسيمة، وزاد الوضع سوءاً جريان الأنهار فيها والتي غمرت المدينة جراء فيضانها.

٥٧- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٥١٢؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص١٣٣.

٥٨- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص١٥٧.

٥٩- ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص١٦٤-١٦٥.

٦٠- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق٣، ص٨٨٤.

٦١- العليمي، الأنس، جـ٢، ص٢٩٤.

٦٢- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ١٠٢.

٦٣- البصروي، تاريخه، ص٢٤.

٦٤- ابن طولون، أعلام الورى، ص١٥٩-١٦٠.

العوامل الطبيعية:

١- الحرائق:

اسهمت الحرائق بشكل سلبي على بعض العمائر التجارية، حيث أدت الى اضمحلال بعضها، وتوقف النشاط التجاري لبعضها الآخر.

وفيما يلي جدول بهذه الحرائق يبين سنوات حدوث الحرائق، والمدن التي حدثت فيها، ثم اسماء العمائر التجارية التي اصيبت بذلك، واخيراً مقدار الخسائر التي سببتها.

جدول بالحرائق ومقدار الخسائر

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
رمضان ٦٨١هـ/كانون اول (ديسمبر)١٢٨٢م	دمشق	احتراق الجهة الشمالية للبادين والكتبيين وجيرون والزجاجين والمرجانيين والخواتميين وعدد من القياسر	مال كثير وخمسة آلاف مجلد [٦٥]
جمادى الاولى ٧١٥هـ/آب (أغسطس) ١٣١٥م	دمشق		اشتعال حوانيت كثيرة كانت بالقرب من الباب الصغير [٦٦]
جمادى الاولى ٧٢٨هـ/ آذار (مارس)١٣٢٨م	دمشق	الفرايين والرماحين والقيسارية الواقعة بجوارهما	فقد لكثير من الناس سلعاً كثيرة من الفراء والجوخ والأقمشة المختلفة [٦٧].
٧٣٥هـ/١٣٣٤م	حماة		حريق مائتان وخمسون حانوتاً [٦٨]
٧٣٥هـ/١٣٣٤م	انطاكية		احترقت أكثرها [٦٩].

٦٥- ابو شامة، الذيل، ص ٥٠، ١٩٥.

٦٦- الذهبي، ذيول العبر، جـ ٤، ص ٨٣؛ ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٧٦.

٦٧- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ١٣٩.

٦٨- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١١٥؛ الذهبي، دول الاسلام، ص ٤٢٣

٦٩- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١١٦؛ الذهبي، دول الاسلام، ص ٤٢٣.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
٧٤٠هـ/١٣٣٩م	دمشق	الدهشة والوراقين والنحاسين والجهة الجنوبية للبادين وقيسارية القواسين	الف الف وستماية الف دينار وخمسة وثلاثين الف قوس [٧٠]
ربيع الآخر ٧٤٤هـ/ آب (اغسطس) ١٣٤٣م	صالحية دمشق	سوق الصالحية	احتراق نحو مائة وعشرون دكاناً [٧١]
٧٥٢هـ/١٣٥١م	دمشق	السوق الكبير	دكاكين الفواخرة والمناخلة والغرابلة [٧٢]
شوال ٧٥٦هـ/ تشرين اول (اكتوبر) ١٣٥٥م	دمشق	سوق القطانين	حرق السوق بكامله [٧٣]
اواخر جمادى الاولى/ ٧٥٧هـ ايار (مايو) ١٣٥٦م	دمشق	قيسارية الطواشي وقيسارية يلبغا وغيرها	الف الف درهم [٧٤]
جمادى الاخرة ٧٥٧ هـ/ تموز (يوليو) ١٣٥٦م	دمشق والصالحية	السويقة القريبة من باب الصغير واحدى اسواق الصالحية	لم يذكر [٧٥]

٧٠- مفلطاي، تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها، مخطوط، ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية رقم (١٠٤٢) وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية في باريس تحت رقم (٤٠٠) ورقة ب ١٢٩ - أ ١٣٠ وسيشار إليه فيما بعد هكذا: مفلطاي، سلاطين مصر والشام.؛ ابن كثير ، البداية، جـ ١٤، ص ١٩٧ - ١٩٨؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ ٢، ص ٣١٣ - ٣١٤.

٧١- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٢١.

٧٢- المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٢٥١؛ ابن طولون، قرة العيون في اخبار باب جيرون، تحقيق صلاح الدين المنجد (د.ن) دمشق، ١٩٦٤م، ص ٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون، باب جيرون.

٧٣- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٦٥.

٧٤- الذهبي، ذيول العبر، جـ ٤، ص ١٧١؛ ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

٧٥- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٦٨.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
٧٥٧هـ/١٣٥٦م	طرابلس وبيروت		اتلف كثيراً من الوحش والامتعة وشجر الزيتون [٧٦]
٧٩١هـ/١٣٨٨م	دمشق	سوق العتيق والسوق الواقع بالقرب من المصلى وحوانيت السماسرة والخشابين وقيسارية بيدمر.	احتراق اعداد كثيرة من الناس ونهبت الاموال وسبيت الحريم [٧٧].
رجب ٧٩٤هـ/ايار (مايو) ١٣٩١	دمشق	سوق كنيسة مريم [٧٨].	لم يذكر.
شعبان ٧٩٤هـ/حزيران (يونيو)١٣٩١م	دمشق	دهشتي النساء والرجال والزجاجين والوراقين والنحاسين والصاغة وقيسارية الشرق والاخفافيين والطواقيين.	خسارة فادحة لكثير من التجار حتى اصبح اكثرهم فقيراً لا يملك شيئاً [٧٩].
رجب٧٩٨هـ/نيسان (ابريل) ١٣٩٥م	دمشق	الباشورة القريبة من باب الفرج والطوائقيين والقياسر والاسواق التي اختصت ببيع الامتعة [٨٠].	لم يذكر.
ذي القعدة ٧٩٨هـ/آب (اغسطس) ١٣٩٥م	دمشق	الحريريين والصابونيين والدقاقين والفرائين ورأس الاقباعيين والقشاشين وقسم من الرماحين وقيسارية يلبغا وخان الشقق وخان الحبالين [٨١].	لم يذكر.

٧٦- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ق ١، ص ٣٠.

٧٧- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ٣٧٤.

٧٨- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١١٧؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، م٩، جـ٢، ص ٣٠٧؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ٤٢٧.

٧٩- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ ٣، ص ٤٢٧.

٨٠- المصدر نفسه، جـ٣، ص ٥٨٩.

٨١- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٧٣-١٧٤.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
شوال ٨٠٠هـ/حزيران (يونيو) ١٣٩٨م	دمشق	الحريريين والقواسين والسيوفين وقسم من سوق النحاسين وقيسارية السلاح وقيسارية البهنسية والصاغة وحوانيت الزيادة.	لم يعدم للناس الا القليل [٨٢].
٨٠٣هـ/١٤٠٠م	حلب ودمشق	حرق المدينتين [٨٣].	لم تذكر.
محرم ٨١٥هـ/نيسان (ابريل) ١٤١٢م.	دمشق	الاسواق القريبة من باب الفراديس [٨٤].	لم تذكر.
٨٧٢هـ/١٤٦٧م	دمشق	سوق مسجد القصب [٨٥].	لم تذكر.
محرم ٨٨٠هـ/ايار (مايو) ١٤٧٥م.	دمشق	السوق الاعظم وسوق العمارة [٨٦].	لم تذكر.
رجب ٨٨٤هـ/ايلول (سبتمبر) ١٤٧٩م	دمشق	سوق امتعة النساء وسوق العنبرانيين وسوق الذراع [٨٧].	لم تذكر
محرم ٨٩٠هـ/كانون ثاني (يناير) ١٤٨٥م	دمشق	سوق الشاغور وسوق القبيبات [٨٨].	لم تذكر.

٨٢- ابن قاضي شهبه، تاريخه، جـ٣، ص ٦٦١؛ ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٣، ص ٣٨٢.

٨٣- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص ١٠٥١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٤٧-٤٨.

٨٤- المقريزي السلوك، جـ٤، ق١، ص ١١-٢١٢؛ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ١٣، تحقيق محمد فهيم شلتوت، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ص ١٤٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو المحاسن، النجوم.

٨٥- البصروي، تاريخه، ص ٣٠.

٨٦- المصدر نفسه، ص ٧٠.

٨٧- المصدر نفسه، ص ٨٠.

٨٨- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٦٦.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
ذي الحجة ٨٩٤هـ/تشرين اول (اكتوبر)١٤٨٨م	دمشق	سوق مسجد القصب	وفاة خلق كثير [٨٩].
١٨ رجب ٨٩٩هـ/نيسان (ابريل) ١٤٩٣م	دمشق	حوانيت للبيع كانت بالقرب من فندق السور [٩٠].	لم تذكر.
١٩ ذي القعدة ٨٩٩هـ/آب (اغسطس) ١٤٩٣م.	دمشق	مربع بباب الجابية وما يجاوره من الاسواق [٩١].	لم تذكر.
رمضان ٩٠٠هـ/ايار (مايو) ١٤٩٥م	دمشق	سوق النحاسين [٩٢].	لم تذكر.
٥ ربيع الاول ٩٠٢هـ/تشرين ثاني (نوفمبر) ١٤٩٦م	دمشق	الاخصاصيين وما عليها من المساكن [٩٣].	لم تذكر.
١٣ ربيع الاول ٩٠٢هـ/ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٤٩٦م	دمشق	القيسارية التي كانت وقفاً على الجامع الاموي [٩٤].	لم تذكر.
٧ ربيع الاخر٩٠٢هـ/ كانون اول(ديسمبر) ١٤٩٦م	دمشق	القضمانيين والقطانين واماكن أخرى [٩٥].	لم تذكر
ربيع الاول ٩٠٣هـ/تشرين اول(اكتوبر) ١٤٩٧م.	دمشق	سوق المزار [٩٦].	لم تذكر.

٨٩- البصروي، تاريخه، ص ١٣٧؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٠٦، ١١٢.

٩٠- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٥٦.

٩١- المصدر نفسه، جـ١، ص ١٥٦.

٩٢- البصروي، تاريخه، ص ١٦١-١٦٢.

٩٣ المصدر نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.

٩٤- المصدر نفسه، ١٩٦؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٧٠.

٩٥- البصروي، تاريخه، ص ١٩٩.

٩٦- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٠٥.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
ربيع الاخر ٩٠٤هـ/تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٩٨م	دمشق	سوق الشيخي	افتقار جماعات كثيرة من سكانه الاغنياء اما الفقراء فكادوا ان يهلكوا [٩٧].
صفر ٩٠٥هـ/ايلول (سبتمبر) ١٤٩٨م	دمشق	الحوانيت القريبة من باب الفرج [٩٨].	لم تذكر.
١٥ ذي القعدة ٩٠٦هـ/ايار (مايو) ١٥٠١م	دمشق	سوق النحاسين [٩٩].	لم تذكر.
١٥ ربيع الاخر ٩٠٩هـ/ايلول (سبتمبر) ١٥٠٣م	دمشق	سوق الفراء الخشنة وسوق الخلعيين [١٠٠].	لم تذكر
١٧ جمادي الاول ٩١٠هـ/ تشرين اول (اكتوبر) ١٥٠٤م	دمشق	الحوانيت والطباق الواقعة الى الجنوب من مسجد الرأس.	قسم منها [١٠١].
جمادي الاخرة ٩١٠هـ/تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٠٤م.	دمشق	سوق قصر حجاج	حانوت واحد [١٠٢].
١١ شوال ٩١١هـ/ شباط (فبراير) ١٥٠٦م.	دمشق	السوق المعروف بعمارة الاخنائي.	قسم كبير منه [١٠٣].

٩٧- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٠٥.

٩٨- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٢٤.

٩٩- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٤١.

١٠٠- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٧١.

١٠١- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٨١.

١٠٢- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٨٤.

١٠٣- المصدر نفسه، جـا، ص ٢٩٨.

السنة	المدينة	العمائر التجارية التي تضررت	مقدار الخسائر التي سببتها
١٤ ربيع الاخر ٩١٥هـ/ تموز (يوليو)١٥٠٩م.	دمشق	سوق الرصيف [١٠٤].	لم تذكر
١٢ جمادى الاخرة ٩١٧هـ/آب (اغسطس)١٥١١م.	دمشق	مجموعة من الخانات والقياسر الواقعة الى الغرب من عمارة الاخنائي [١٠٥].	لم تذكر

يتضح من الجدول السابق أن العمائر التجارية في بلاد الشام قد تعرضت مرات عدة للخراب بفعل الحرائق، وقد كانت اسبابها مختلفة، منها ما كان عن قصد مثل حدوث فتنة داخلية في البلاد، أو دخول العدو إلى الديار، وربما كان يحصل من قبل بعض الاشخاص الذين لهم علاقات سيئة مع بعض اصحاب الحوانيت التجارية إذ ينتقمون بفعلهم هذا من أعدائهم. كما شاركت بعض الطوائف الدينية مثل النصارى واليهود في اشعال الحرائق، ولا غرابة في ذلك فروح العداء استمر قائماً بين المسلمين وغيرهم بسبب الحروب الصليبية. ففي الحريق الذي اشتعل عام ٧٤٠هـ/١٤٤٩م في مدينة دمشق والذي اسفر عن حرق العديد من الأسواق كانت اسبابه تعود إلى مجموعة من النصارى[١٠٦].

وقد تحدث الحرائق لاسباب طبيعية مثل حدوث صواعق في البلاد، مما قد يسبب اشتعالاً لكثير من المباني، لا سيما وإن كثيراً من تلك العمائر وخاصة السقوف منها كانت مكونة من المواد سريعة الاشتعال، كما سهل في سرعة الاحتراق ايضاً اشتراك البضاعة في الاشتعال، فبقدر ما تكون هذه السلع قابلة للاشتعال يكون الخراب أكبر واشمل. كذلك كان للرياح دور رئيس في انتقال النار من مكان إلى آخر حيث تعم

١٠٤- المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٣٥.

١٠٥- المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٥٨.

١٠٦- مغلطاي، سلاطين مصر والشام، ورقة ب ١٢٩-أ ١٣٠؛ ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ١٩٧-١٩٨؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص ٣١٣-٣١٤.

النار معظم الاماكن القابلة للاحتراق. زد على ذلك ان عدم وجود الوسائل المناسبة لدى السلطة لايقاف الحريق بالوقت المناسب كان عاملاً هاماً ومساعداً في زيادة الخسائر بشكل اكبر، فغالباً ما كانت النار تخمد بطبيعتها اي انها تتوقف دون مقاومة احد لها، لانها في هذه الحالة تكون قد احرقت جميع ما وصلت اليه من المباني والبضائع المختلفة.

ومن الملفت للنظر ان فئة من الناس استغلت فرصة اشتعال النيران في العمائر التجارية حيث قامت بنهب البضائع او الاموال ففي ١٩ من ذي القعدة ٨٩٩هـ/آب (أغسطس) ١٤٩٣م احترق مربع بباب الجابية فاستغلت طائفة من الناس هذه الفرصة حيث قامت بنهب الحريرية والشماعين والحبالين والحدادين قبل وصول النار اليها[١٠٧].

كما تبين ايضاً ان اسواق دمشق كانت الاكثر تضرراً بسبب الحرائق، ولعل السبب في ذلك ان دمشق قد تمتعت بمكانة سياسية اكبر من المدن الشامية الاخرى، اذ كانت تأتي بعد القاهرة من حيث اهميتها السياسية، لذا كانت تكثر فيها الفتن بهدف السيطرة عليها ثم الطمع بالسلطة.

وخلاصة القول ان نتائج هذه الحرائق وان تعددت الاسباب كانت مدمرة، وأدت الى تراجع واضح في النشاط الاقتصادي بشكل عام، والتجاري بشكل خاص.

٢- عوامل اخرى

هنا اسباب اخري اسهمت في التأثير سلبياً على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام خلال العصر المملوكي، فقد نجم عن دالعدوان التتاري والفرنجي والتركماني على بلاد الشام اثر سلبي على الحركة التجارية حيث نتج عنه دمار وخراب في البلاد [١٠٨].

وبعض هذه العوامل كان مسببها بعض البدو وقطاع الطريق، حيث أسهموا في تراجع الحركة التجارية، وذلك بمهاجمتهم للمراكز الحضارية والقوافل التجارية

١٠٧- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٥٦.

١٠٨- الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص ١٢؛ ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص ٢٣١-٢٣٣، جـ١٤، ص ٧-١٤؛ ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٥، ص ٨٦.

الذاهبة أو القادمة لأسواق بلاد الشام، في الوقت الذي لم يكن بمقدور الدولة مواجهة ذلك، وخاصة بعد ازدياد الفتن الداخلية التي أستغلها بعض الأمراء للوصول إلى دفة السلطة [١٠٩].

لكن ذلك كله كان أقل تأثيراً من تلك الإكتشافات الجغرافية التي قام بها البرتغال للوصول إلى الهند بالدوران حول أفريقية سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، حيث فقدت السلطة المملوكية سيادتها على السلع الشرقية، فلم يعد هناك من دافع لكثير من التجار الغرب إلى القدوم لبلاد الشام أو مصر عقب هذا الإكتشاف، وخاصة بعد أن وجدوا أن هذه السلع تكلفهم سعراً أقل عبر الطريق الجديد، فأدى ذلك إلى تقهقر الدولة المملوكية وأصبحت على شفى هاوية بالرغم من تلك الضرائب الباهضة التي فرضها المماليك لتلافي ذلك، لذا لم يبذل العثمانيون جهداً كبيراً لتحقيق الإنتصار على المماليك وبسط سلطتهم على البلاد وذلك في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م[١١٠].

١٠٩- اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق احمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص ٣٣٧-٣٣٨، ٣٨٢-٣٨٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اليوسفي، نزهة الناظر.

١١٠- بامخرمة، البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه. (نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني "بامخرمة" كما سجلها في مخطوط قلائد النحر) تحقيق محمد عبدالعال احمد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٩، ص ٩٧، ٩٩ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: بامخرمة، البحر الاحمر؛ فهي، طرق التجارة، ص ٣٧٢.

الفصل الخامس

السـلع التجاريـة

أولاً : السلع الصناعية

ثانياً : السلع المتبادلة بين الأسواق الشامية

ثالثاً : السلع المتبادلة بين الأسواق الشامية والأسواق الخارجية

- المكوس

أولاً: السلع الصناعية:

قبل الحديث عن السلع الصناعية في بلاد الشام لا بد من اعطاء تعريف لمعنى الصناعة، وعوامل نجاحها.

تقسم الصناعة إلى ثلاثة أصناف وهي عملية وعلمية ومركبة. فأما العملية وهي موضوع بحثنا فمثل الحياكة والفلاحة ومشط الصوف والكتان وما شاكل ذلك. أما العلمية فهي الفقه والهندسة والنحو ونحو ذلك. في حين أن المركبة تتشكل من الصنفين السابقين ومنها الطب والفروسية والكتابة وما ماثل ذلك[١].

وتجدر الاشارة إلى أن بلاد الشام قد شهدت نشاطاً صناعياً ملحوظاً خلال العصر المملوكي، نظراً لما كان يتوافر فيها من كميات كبيرة من المواد الأولية اللازمة للصناعة من ناحية، ولوجود الأيدي الماهرة والمدربة على أنتاج الصنائع من ناحية ثانية. ناهيك عن الرعاية والعناية للصناعة من جانب المماليك من ناحية ثالثة. كل ذلك اسهم دون شك في ازدهار الصناعة ورفع مستواها، حيث وجدت لها بسبب ذلك أسواق نافقة في الداخل والخارج.

فمن ناحية المواد الأولية كان يوجد في بلاد الشام أنواع عدة من هذه المواد، مثل الحديد الذي كان مصدره جبال بيروت، وجبال الشراه القريبة من البتراء، وبالقرب من بصرى[٢].

١- أبو الفضل الدمشقي، كتاب الاشارة الى محاسن التجارة، ط١، دار الاتحاد العربي، (د.م)، ١٩٧٣م، ص ٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو الفضل الدمشقي، محاسن التجارة؛ ابن خلدون، المقدمة ص ٢٨٥.

٢- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٢١؛ ابن عوض المغربي، قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والاسرار، تحقيق بروين بدري توفيق، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠م، ص ٤٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عوض المغربي، قطف الأزهار؛ نقولا زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي "المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام"، عمان، ١٩٩٠م، ص ١١١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زيادة، تجارة الشام.

والملح استخرج من الجبال المحاقبة للبحر الميت واريحا[٣] . وحجر المرقشتيا [٤] الذي عثر عليه في احدى قرى دمشق، وبارض حدث من جبل لبنان، وبارض جوسية إلى الاعلى من كرك نوح[٥].

علاوة على ذلك فإن القير أو الحمر[٦] كان يستخرج من بحيرة زغر، كما وجد بنفس هذه البحيرة ايضاً ملح كان يصلح للصاغة[٧]. وبطبرية عثر على معدن المرجان[٨].

وفي حلب وجبالها وجدت معادن عدة مثل معدن النحاس، ومعدن عرف بمغاص الدر[٩] كان يستعمله الصناع في الرخام وصبغه[١٠]. كما وجد في جبل البشر الممتد من الشام إلى الفرات عدة معادن مثل معدن القار والمتعزة والطين،وهذا الاخير كان

٣- ابن خرداذبة، كتاب المسالك الممالك، بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٧٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٦.

٤- حجر المرقشتيا: وهو عدة اصناف وافضله الذهبي ثم الفضي فالنحاسي وأقله جودة الحديدي والزئبقي. وتدخل معظم هذه الاصناف في كثير من الصناعات فاذا وضعت على النحاس أو الرصاص اصبح بياضاً يقارب لونهما من لون الفضة، واذا أضيفت الى النحاس الذائب صار كالفضة. انظر شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٨٤؛ ابن عوض المغربي، قطف الازهار، ص ١٦٥.

٥- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٨٤؛ ابن عوض المغربي، قطف الازهار، ص ١٦٥.

٦- القير والحمر: هو شيء أسود كان يدهن به الابل والمراكب لكي يمنع الماء من الدخول اليها، ومنه صنف آخر كان يستخدم لحشو الخلاخيل والاساور كما استعمل في صناعة النفط وفي تلقيح اشجار التين والنخيل. انظر النويري، نهاية الارب في فنون الادب، (جـ١-٢١)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة (د.ت)، جـ١، ص ٢٥١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: النويري، نهاية الارب؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة قير.

٧- ابن خرداذبه، المسالك، ص ٧٩.

٨- القزويني، آثار البلاد، ص ٢١٧-٢١٨.

٩- مغاص الدر: كان يتألف من عدة أصناف كاليواقيت والحجارة الثمينة وجميع أنواع الطيب. انظر ابن شداد، الاعلاق، جـ١، ق١، ص ١١.

١٠- المصدر نفسه، ص ١١.

يصنع منه البواتق التي تسبك فيها الحديد بالاضافة إلى الرمل الذي صنع منه الزجاج [١١].

كذلك وجد في الكرك الخماهان الذي سمي بحجر الصرف، وهو في الاصل عبارة عن حجر أسود حديدي كان يستخدمه أصحاب المصاحف في جلاء ذهبها. ولاهمية مثل هذا النوع من المعادن فقد استوردته مختلف الاقطار[١٢]. وبارض اللاذقية عثر على معدن الرخام ذات الألوان المختلفة مثل الأبيض والأخضر والموشى. كما وجد في الجبال الواقعة شرقي بيت المقدس كبريت الذي "اذا اشعلته يشعل مثل الحطب"[١٣].

وفضلاً عن ذلك فقد كنزت بلاد الشام أصنافاً عدة من المعادن الاخرى مثل معدن الرصاص الجيد[١٤]، واحجاراً عدة من النحاس عرفت بالدهنج، وأفضل هذه الاحجار الزمردي والذبابي والأخضر السلفي والمائل إلى الأصفر ثم المجزع في لونه والذي نتج عنه الكبريت، ومنه صنعت المرايا[١٥].

وفي ذي القعدة سنة ٩١١هـ/ آذار(مارس) ١٥٠٥م عثر على البارود بالقرب من الكرك في بلد خراب[١٦]. هذا عدا عن معدن الحرير والصوف والوبر والقطن والكتان والقنب وغيرها من المعادن الأخرى، والتي كانت تزيد عن حاجة بلاد الشام[١٧].

أن هذا التنوع في المعادن قد أوجد صناعات عدة في بلاد الشام مثل صناعة السكر التي وجدت مادتها بكميات كثيرة في السواحل الطرابلسية والبيروتية

١١- ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٢٦.

١٢- التيفاشي، كتاب أزهار الافكار في جواهر الاحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص ١٤٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: التيفاشي، ازهار الافكار.

١٣- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٨١، ٢٠٩.

١٤- ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٨٩.

١٥- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٨٣.

١٦- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٠٤.

١٧- كرد علي، خطط الشام، جـ٤، ص ١٩٩.

والعكاوية واريحا وعرقة والاغوار وصور ودمشق[١٨]. بالاضافة إلى صناعة الزيت والصابون التي اشتهرت به كل من نابلس والقدس وطرابلس وحماة وبيروت[١٩].

كما وجد صناعات اخرى مثل صناعة الدبس والنبيذ[٢٠] والورق[٢١] والمنسوجات[٢٢] والحصر[٢٣] والعطور[٢٤] ودباغة الجلود[٢٥] والمراكب[٢٦] فضلا عن الصناعات المعدنية مثل

١٨- بنيامين، الرحلة، ص ٩٢؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١١١؛ ابن شداد، الاعلاق، الاردن، ص ٩٢، ١٠٤، ١٣٦؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٨، ص ٢٧١؛ ابن السباهي، اوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (٥٥٩)، وهو صور عن مكتبة بودليان، اكسفورد، مجموعة بوكوك، رقم (٣٠٢)، ورقة ب ٢٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن السباهي، اوضح المسالك؛ ربى أبو دلو، معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين في ضوء المصادر التاريخية والمكتشفات الاثرية، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة اليرموك، ١٩٩١م، ص ٩-١٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو دلو، معاصر السكر.

١٩- ابن عساكر، دمشق، جـ٢، ص ٢٥٥؛ ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٥٦. العليمي، الانس، جـ٢، ص ٣٥٦. راوولف، رحلة المشرق، ص ٣٤؛ جبران، حماة، ص ٢٧٦. فيلب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢، ترجمة كمال اليازجي، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٢٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: حتي، تاريخ سورية.

٢٠- راوولف، رحلة المشرق، ص ٨٤.

٢١- ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق٢، ص ٥٨.

٢٢- ابن طولون، ضوء السراج فيما قيل في النساج، تصحيح ودراسة ليلى الصباغ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٨م، ص ٧٩، ٨٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن طولون ضوء السراج.

٢٣- ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر (د.ت)، ص ٣٩، وسيشار اليه فيما بعد هكذا ابن الوردي، خريدة العجائب؛ غوانمه، الاردن الحضاري، ص ٨٦.

٢٤- شيخ الربوه، نخبة الدهر، ص ١٩٥-١٩٨.

٢٥- ابن منقذ كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، امريكا، ١٩٣٠م، ص ٢٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن منقذ، الاعتبار؛ ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١١٣؛ الغزي، نهر الذهب، جـ١، ص ١٠٤-١٠٥.

٢٦- ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (جـ٢-٣) تحقيق جمال الدين الشيال. المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٥٧م، جـ٢، ص ١٢٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن واصل، مفرج الكروب، العيني، عقد الجمان، (احداث ٦٤٨-٦٦٤) ص ٤٢٧.

صناعة السلاح[٢٧] والزجاج[٢٨] وغيرها.

يتضح مما تقدم أن بلاد الشام نجحت بتأسيس صناعات عدة، وذلك عائد بالدرجة الاولى إلى وفرة المواد الخام من ناحية، ولوجود الأيدي الماهرة والمدربة من ناحية أخرى، فضلاً عن الدعم والرعاية المقدمة لها من جانب المماليك. كل ذلك وغيره اسهم دون شك في ازدهار الصناعة الشامية بشكل لم يسبق له مثيل.

ومن ناحية أخرى تعرضت الصناعة الشامية للضعف بشكل واضح، بسبب ما احدثه التتار من خراب ودمار في البلاد، علاوة على نقلهم لكثير من الصناع والأيدي الماهرة إلى سمرقند، كما أن سياسة المماليك الاقتصادية قد تركت هي الاخرى اثراً سلبياً على الصناعة، حيث عانى صناع بلاد الشام ما كان يطرحه بعض السلاطين المماليك على الصناع لصناعة سلع معينة، بمواصفات واسعار معينة، مما الحق بالتالي الضرر بالصناعة الشامية.

٢٧- لابروكيير، رحلته، ص ٢٣٣؛ عفيف بهنسي، صناعة السيوف الدمشقية، "ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب مطبعة جامعة حلب، ١٩٧٧م، ص ٤٩٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: بهنسي، السيوف الدمشقية؛ عبدالرحمن زكي، صناعة السيوف، المجلة التاريخية المصرية، م٦، ١٩٥٦م، ص ٨٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: زكي، صناعة السيوف.

٢٨- القزويني، اثار البلاد، ص ١٨٣-١٨٤؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٢٠٩؛ ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ١٠٧؛ هناء عبدالخالق، الزجاج الاسلامي في متاحف ومخازن الاثار في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٨٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عبدالخالق، الزجاج؛ الصناعة السورية، ص ٢٠٤-٢٠٥؛ محمد ابو الفرج العش، الزجاج السوري المموه بالميناء والذهب في العصر الوسيط، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، م١٦، جـ١، ١٩٦٦م، ص ٤٥-٤٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: العش، الزجاج السوري.

ثانياً، السلع التجارية المتبادلة بين الأسواق الشامية

تعرف التجارة بانها "محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام[٢٩] كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش". والقائم على هذه التجارة "إما أن يختزن السلعة"[٣٠] ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي إشتراها فيه فيعظم ربحه"[٣١].

وتقسم التجارة إلى نوعين داخلية وخارجية، فالداخلية هي ما يجري بصورة طبيعية بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها والمناطق الريفية مع بعضها، والتجارة الخارجية هي ما كان يقوم بين بلاد الشام والبلاد المجاورة والبعيدة.

فعلى المستوى المحلي كان من أهم المبادلات التجارية بين أسواق بلاد الشام ما يلي: كان يصدر من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون، فمن بيت المقدس كان يرتفع "الجبن والقطين وزيت العيوني والدوزي غاية والتفاح وقضم قريش (حبوب الصنوبر) الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والابر" علاوة على الملابس المنبرة والبلعسية اللوز[٣٢]، وكذلك الفضة التي صدر منها إلى مختلف الانحاء[٣٣].

ومن نابلس كان الزيت يورد إلى معظم أسواق بلاد الشام وعلى الاخص إلى أسواق دمشق، فجامع بني امية وحده خصص له نحو الف قنطار كل عام. كما صدرت نابلس الصابون والخروب[٣٤]. ومن اريحا كان يخرج النيل. ومن صغر وبيسان صدر

٢٩- هكذا ورد في النص والاصح ان تكون أياً.

٣٠- ابو الفضل الدمشقي، محاسن التجارة، ص٤٦.

٣١- ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٠.

٣٢- المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٠.

٣٣- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ٢٣.

٣٤- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٠٠؛ ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٨١.

النبل والتمور والرز، ومن الرملة القطن والزيت والميازر. ومن طبرية صدر شقاق [٣٥] المطارح والورق والبر[٣٦].

وصدرت دمشق بدورها الاقمشة المختلفة والورق والمصنوعات النحاسية، ودهن البنفسج الذي اتخذ دواء، بالاضافة إلى الجوز والقطين والزبيب والتفاح[٣٧]، علاوة على المشمش الذي وصف كأنه "سحرات من التبر مصنوعة أو بالورس مصبوغة صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية حلا ذوقا، واحل شوق، ولو نظم جوهره لكان طوق، وهو احلى من السكر، واعبق من العبهر ، واحسن هيئة من النارنج الاحمر والليمون المركب المدور"[٣٨]. هذا عدا عن الحلاوات التي قل وجودها بغير دمشق حيث وصفت بكثرتها وطيب طعمها[٣٩]. كما صدرت دمشق ماء الورد الذي ذاعت شهرته في مختلف الاقطار [٤٠].

أما حلب، فصدرت عدة منتجات مثل ماء الورد النصيبي والصابون والخوخ والرمان والفستق الاخضر الذي قل وجوده بغيرها، علاوة على التين الذي لم يوجد في بلد من البلاد نظيره ولا في شكله ولا في مقداره ولا في طعمه ولا في كثرته، حيث بيع منه مرة عشرة ارطال حلبية بدرهم فضة، وهو على أنواع فمنه الماسوني، وكانت الحبة منه تزيد على وزن أوقية حلبية وهي ستون درهماً، ومنه السلطاني وهو افضله. كما صدرت حلب البطيخ بأنواعه كالاصفر السمرقندي والكمالي والبابي والاخضر الذي عرف بالرقي والزبشي والشوشي، وبزره كان ينقل إلى غزة وبعض قرى دمشق ليزرع فيها [٤١]. كذلك صدرت حلب السمسم والخيار والكروم والذرة والمشمش والتفاح والقطن والملح [٤٢].

٣٥- الشقاق: جمع شقة والشقة تعادل سبعة أذرع.

٣٦- المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨١.

٣٧- المصدر نفسه، ص ١٨١؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٦٥.

٣٨- الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٢٢٢.

٣٩- الادريسي، من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، تحقيق ابراهيم شوكة، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٣٠، ١٩٧٩، ص ١٤. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الإدريسي، نزهة المشتاق.

٤٠- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص٢٦.

٤١- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٥١ - ٢٥٤.

٤٢- ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٤ - ٢٨٥، ابن العديم، بغية الطلب، جـ ١، ص ٦٠، القزويني، آثار البلاد، ص ٢٠٨،

ومن طرابلس كان يرتفع قصب السكر والقطن والزيتون والكروم والجوز واللوز والبلح [٤٣]، وصدرت حماة العبي والبراذع والسروج والبسط والاخشاب والاقمشة والجلود والعسل والسمك والقطن والعصفر [٤٤].أما شرقي الاردن فصدرت عدة سلع، فمن عمان الخرفان والحبوب والعسل [٤٥]،ومن الصلت الرمان [٤٦]، ومن الشوبك الفواكه التي وصفت بكثرتها واستمرارها على مدار العام [٤٧]، ومن عجلون الفحم [٤٨]، أما الاغوار فصدرت السكر [٤٩].

كذلك صدرت حمص التفاح والبن [٥٠]، فضلاً عن ترابها الذي كان ينفع كشفاء من لدغة العقرب، وكان ينقل منها إلى مختلف البلاد [٥١]. واشتهرت شيزر بمشمشها الذي صدر منه إلى مختلف الانحاء [٥٢]. كما صدرت المعرة التين والزيتون والفستق والزبيب والسماق [٥٣]. ومن سرمين كان ينقل الصابون [٥٤]. وامتازت بعلبك بتصدير الاقمشة والتخوت والدبس، علاوة على الدهان الذي حمل إلى معظم البلاد [٥٥] ومن

٤٣- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

٤٤- سبانو، حماه، ص ١٧٣، جبران، حماه، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

٤٥- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص ١٥٧.

٤٦- ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٥.

٤٧- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٤١.

٤٨- غوانمه، بيت المقدس، ص ٢٣٥.

٤٩- النويري، نهاية الارب، جـ٨، ص ٢٧١، ابو دلو، معاصر السكر، ص ١٠.

٥٠- القزويني، آثار البلاد، ص ٢٠٨، ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ٢٧٧.

٥١- الهراوي، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين طومين، (د.ن)، دمشق، ١٩٥٣م، ص ٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الهراوي، الزيارات.

٥٢- القزويني، آثار البلاد، ص ٢١٠.

٥٣- ابن شداد، الاعلاق، جـ ١، ق ١، ص ١٥٣، ابن بطوطة، الرحلة،جـ ١، ص ٨٥.

٥٤- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨٥ - ٨٦.

٥٥- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٢٣ - ١٢٤، ابو المحاسن، النجوم، جـ ١٦، ص ٢٢٧، ابن اياس، نشق الازهار، ورقة ب ٧١.

صبية بانياس كان يصدر الارز [٥٦]، واستوردت أسواق الشام الحديد والاخشاب من جبال لبنان. والقمح من حوران [٥٧]، ولكثرة الكروم في منبج فقد صدرت الزبيب إلى حلب وإلى غيرها من مدن الشام. كما استوردت صفد كثيراً من المواد الغذائية من دمشق [٥٨].

وعدا عن كل ماذكرنا فقد اشتهرت بلاد الشام باستخراج الاسماك من مياهها وبمختلف أنواعها، مثل سمك الحنكليس والسلور وغيرها، وكان من أهم مراكز استخراجها نهر بردى ونهر قويق ونهر العاصي، وبحيرة افامية وبحيرة العمق وبحيرة طبرية وبحيرة صيدا [٥٩].

وهكذا نلاحظ أن أسواق بلاد الشام استطاعت الاعتماد على بعضها في سد احتياجاتها بأكبر قدر ممكن من السلع التجارية. فكل مدينة أو قرية أمتازت عن غيرها ببعض السلع، كانت تسد بها حاجتها، وتصدر ما زاد عن استهلاكها إلى الأسواق الداخلية والخارجية. وقد كان للطرق الداخلية المتشعبة عبر أراضي بلاد الشام الدور الأكبر في نقل السلع وسرعة وصولها إلى الأسواق. وهذا ما سنوضحه بعد قليل.

الطرق الداخلية

ربطت مدن وقرى بلاد الشام بشبكة من المواصلات البرية والبحرية اسهمت بشكل رئيس في وصول السلع التجارية إلى الأسواق بكل يسر وسهولة وباقل وقت ممكن. فالزمن الذي كان على القوافل قطعه من شمال بلاد الشام إلى جنوبه قدر بنحو خمسة وعشرون يوماً. فمن حدود ملطية المتصلة مع العراق إلى منبج أربعة ايام، ومن منبج إلى حلب يومين، ومن حلب إلى حمص خمسة ايام، ومن حمص إلى دمشق

٥٦- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ٤٦، دائرة المعارف الاسلامية، م٣، ص ٣١٧.

٥٧- المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٠، ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٩١.

٥٨- ابن حوقل، صورة الارض، ق ١، ص ١٨٠ - ١٨١، ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ١٣٤.

٥٩- النويري، نهاية الارب، جـ٨، ص ٢٦٣، شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ١٢٢، لابروكيه، رحلته، ص ٣١٩، الغزي، نهر الذهب، جـ١، ص ٤١١.

خمسة ايام ايضاً، ومن دمشق إلى طبرية أربعة ايام، ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة ايام، ومن الرملة إلى رفح على الحدود المصرية يومين [٦٠].

وكان من أهم هذه الطرق ما يلي: طريق يربط دمشق بصفد، وكان يمر بالبريج والقلوس والارينبة ولغران ثم جب يوسف. وطريق يمتد من دمشق إلى خان ميسلون، فزبدان، فالحصين ثم ينتهي ببيروت. وطريق يسلك من دمشق إلى الزبداني فبوزا ثم إلى بعلبك. وهذه الاخيرة كانت تتصل مع حمص مروراً بالقصب والغسولة، كما ارتبطت الغسولة بطرابلس اجتيازاً بالقصب وقدس واقمار والشعراء[٦١]، وعرق [٦٢].

وهناك طريق ربط دمشق بالزبداني وبعلبك وحمص وسلمية وبغيديد وسوريا والحص وانتهى بجعبر . كذلك اتصلت دمشق بالكرك مروراً بالقشية والبردية والبرج الابيض وحسبان وقنبس وديباج واكرية [٦٣].

أما حلب فكانت ترتبط هي الاخرى بطرق عدة منها: طريق حلب - البيرة، وترتبط مدينة حلب بمدينة الباب وكلناس والبيرة في شرقي الفرات، ومنها طريق حلب - بهنسى، وتصل حلب بقرية السموقه فقرية سندار، وبعدها إلى عينتاب ومنها إلى قيسارية. وهناك طريق ربطت حلب باياس، وكانت تبدأ بارحاب ثم تيزين، وتمر بيغرا، وبعدها إلى بغراص، ثم إلى باياس (أول جبل الارمن)، ثم إلى أياس. واخيراً طريق حلب جعبر، وتمر من حلب إلى الجبول، ثم إلى بالس على الفرات، وبعدها إلى جعبر [٦٤].

٦٠- الاصطخري، الممالك، ص ٦٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ق ١، ص ١٨٥.

٦١- الشعراء: وقيل العشراء. أنظر ابن فضل الله العمري، المصطلح، ص٢٥١؛ ابن شاهين، زبدة الممالك، ص١٢٠.

٦٢- ابن فضل الله العمري، المصطلح، ٢٥٠ - ٢٥١، ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ١٢٠.

٦٣- ابن فضل الله العمري، المصطلح، ص ٢٥١.

٦٤- المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

كذلك فإن مدينة غزة قد ارتبطت بثلاث جهات، اولها طريق غزة الكرك، وكان ينطلق من غزة إلى ملاقس، فبيت جبريل وهو بلد الخليل، ثم منها إلى جنبا، فصافية واخيرا يصل بالكرك [٦٥].

ثانياً:طريق غزة دمشق: فمن غزة إلى جينين - بيت دراس - اللّد - العوجا - الطيرة - قاقون - فحمة - جنين - حطين - زرعين - عين جالوت - بيسان - إربد - طفس - راس الماء - الصنمين - غباغب - الكسوة - دمشق [٦٦].

ثالثاً:طريق غزة صفد: ويبدأ من جينين المتقدمة الذكر إلى تبنين - ثم إلى حطين ومنها إلى صفد [٦٧].

أما الطرق البحرية الداخلية، فقد اتخذ البحر المتوسط، والبحر الميت كطرق بحرية في نقل السلع التجارية بين المدن الشامية الساحلية، فمثلاً كانت الفلك المشحونه بالغلات تسير في مياه البحر الميت والذي ربط منطقة الكرك باريحا والقدس، فكانت السفن تشق مياهه من مدينة زغر في طرفه الجنوبي إلى الشمال وبالعكس ، حاملة بذلك الغلال والسلع والافراد، وقد استمرت هذه الحركة التجارية النشطة طوال عصر المماليك [٦٨]. كما نقلت الغلال ومختلف الثمار إلى اريحا وسائر اعمال الغور وذلك من خلال بحيرة طبرية البالغ طولها ١٢٠ كلم [٦٩].

يتضح مما تقدم أن مدن وقرى بلاد الشام قد ربطت بشبكة من الطرق البرية والبحرية اسهمت بشكل واضح في ازدهار الأسواق الشامية، إذ تم وصول التجار وسلعهم إليها بكل يسر وسهولة وباقصى سرعة ممكنة.

٦٥- المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

٦٦- المصدر نفسه، ص ٢٤٧-٢٤٨؛ ابن شاهين، زبدة الممالك، ص١٩.

٦٧- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ١٤، ص ٤٢٦.

٦٨- غوانمة، الاردن الحضاري، ص ٦٦.

٦٩- الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٥، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨٥، ٤٣١.

ثالثاً: السلع التجارية المتبادلة بين أسواق بلاد الشام والأسواق الخارجية

شهدت بلاد الشام في العصر المملوكي حركة تجارية نشطة، حيث جرت بينها وبين الأسواق الخارجية علاقات تجارية مكثفة لم يسبق لها مثيل من قبل، فمثلاً كان لبلاد الشام علاقات تجارية مع مصر بشكل خاص والشمال الافريقي بشكل عام، في الوقت نفسه حدث تبادل تجاري بين بلاد الشام والعراق واليمن والهند والصين، علاوة على تجارتها مع أوروبا وغيرها من الاقطار الأخرى، وسوف نتحدث عن هذه العلاقات آخذين كل بلد على حده.

ولنبدأ بمصر التي كان لبلاد الشام علاقات تجارية مكثفة معها. فمنذ أن توحدت بلاد الشام مع مصر زمن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والنشاط التجاري قد ازداد بين البلدين بشكل واضح [٧٠]. وقد كان من أهم صادرات بلاد الشام إلى مصر الاغنام، والخيل، والصابون، والورق الشامي والحموي، والماورد، والاخشاب، والقماش الحموي والصفدي والبعلبكي، وهذا الاخير كان الاقبال عليه شديداً إذ استخدمته مختلف الطبقات، فالسلطان المملوكي كان يرتديه في الصيف، كما كفن به من يموت، وكان يزداد الطلب عليه زمن الاوبئة والطواعين لكثرة من يموت من الناس بسبب ذلك، فادى ذلك إلى ارتفاع ثمنه عن المعقول [٧١].

كذلك استوردت مصر من الشام معظم المواد الغذائية مثل الفواكه والكروم والتفاح، والجوز، واللوز، والفستق، والكمثري، والسفرجل، والزيت، والدبس،

٧٠- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، تعريب السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، جـ ٣، ص ٦٠٥، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: رنسيمان، الحروب الصليبية.

٧١- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ٧٤، اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٣٤٦، القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ٦، ص ١٨٢ - ١٨٣، المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ٦١١، ٨٢٦، ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ١٠٧، ٢٨٥، جـ ٢، ص ١٦٩، ١٧٨، ٤٨٠ - ٤٨١، ابن اياس، نشق الازهار، ورقة ب ٦٩، ب ٧١، بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٤٤٩.

والتين، والخرنوب، والبلح، والخوخ، والرمان [٧٢]. كما وردت الاخبار على ان تجار النصارى من الكرك والشوبك كانوا يتاجرون مع سكان جزائر الغول ويبيعونهم الزيت والزبيب، ويشترون منهم السمك المقدد [٧٣]. علاوة على ذلك فإن الكرك اشتهرت بتصدير الجبن الكركي وغيره من السلع الحسنة[٧٤]. ولم يقتصر الامر على ذلك بل ان كثيراً من الاشجار الشامية قد نقلت بطينها إلى مصر بواسطة مواد حافظة لها، مصنوعة من الخزف والفخار والخشب والرصاص[٧٥]، حيث زرعت حول قصور بعض السلاطين المماليك، مما زاد مصر جمالاً من ناحية، واصبح بها مختلف ثمار الشام من ناحية اخرى. فمثلاً السلطان الناصر محمد بن قلاوون شيّد في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠ "القصور بسرياقوس[٧٦]. وعمل لها بستاناً حمل اليه الاشجار من دمشق وغيرها، فصار بها عامة فوكة الشام"[٧٧] ثم أزال في سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م مناظر اللوق بالميدان الظاهري، وجعلها بستاناً، فاحضر إليه مختلف أصناف الاشجار من بلاد الشام وبخاصة خولة الشام، حتى أصبح من أجمل البساتين[٧٨].

ومثل هذا حدث في عهد السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦/١٥٠٠-٩٢٢هـ/١٥١٦م) حيث وصلت الصناديق الخشبية، "وفيها اشجار بطينها ما بين تفاح شامي وكمثري وسفرجل وقراصية وكروم عنب واشجار مزهرة ما بين ورد ابيض وسبوسان وزنبق وغير ذلك من الازهار الشامية....فغرس ذلك جمعية بالميدان الذي تحت القلعة،

٧٢- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ٨٢، المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٩٣، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق٢، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

٧٣- ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٦٤.

٧٤- ابن اياس، نشق الازهار، ورقة أ ٦٨.

٧٥- كوركيس عواد، المباقل المحمولة، مجلة المقتطف، يوليو ١٩٤٣م، ص ١٧١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عواد، المباقل المحمولة.

٧٦- سرياقوس: بلدة في ضواحي القاهرة. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ٢١٨.

٧٧- ابو المحاسن، النجوم، جـ٩، ص ١٨٢.

٧٨- المقريزي، السلوك، جـ٢، ق١، ص ١٣٠.

فكانوا نحو من مائة وخمسين حملاً"، حتى أصبح هذا الميدان كأنه غوطة دمشق لكثرة ما نقل اليه من الاشجار الشامية[٧٩].

كما ذكر البدري اشياء كثيرة كانت تصدرها بلاد الشام إلى مصر، لكنه حصرها بعشرة تبتدىء اسماؤها بحرف القاف وهي "قصب ذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين من المشمش، قريشة، قنب"[٨٠]. فضلاً عن ذلك فقد حمل الثلج من بلاد الشام إلى مصر، وكان ذلك يتم بواسطة وسيلتين اثنتين، احداها في السفن، والاخرى على الجمال. والاولى استمرت حتى ايام السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢/٧٨٤-١٨٠٨هـ/١٣٩٨م) حيث اقتصر بعدها على الهجن وحدها[٨١].

وعدا عن هذه الصادرات فقد جرت العادة ان يحمل نواب بلاد الشام وغيرهم من أرباب المناصب الأخرى الهدايا إلى السلطان المملوكي في كل عام، وهي تدل على الولاء والطاعة للسلطان. واكبر هذه الهدايا تلك التي تقدم من نائب دمشق، إذ كانت قيمتها تصل في كثير من الاحيان إلى ثلاثين الف دينار أو اكثر، مثل تلك الهدية التي تقدم فيها نائب دمشق قصروه الظاهري[٨٢] سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م حيث تألفت من "مائة وخمسين فرساً وعشرة قطر جمال، والف ثوب بعلبكي ومثلها بطائن وخمسون قباء سمور ووشق وعشرة الاف دينار، ونعالات خيل من ذهب، مسامير فضة، قيل ان في كل نعل خمسين ديناراً"[٨٣]. ومثل هذا قس على سائر نواب بلاد الشام الاخرين وغيرهم[٨٤].

٧٩- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٠٢.

٨٠- البدري، نزهة الانام، ص ٢١٥.

٨١- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ١١٧.

٨٢- قصروه الظاهري: تولى نيابة دمشق بين (١٩ رمضان ٨٣٧هـ/نيسان(إبريل)١٤٣٤م وربيع الاخر ٨٣٩هـ/تشرين أول (اكتوبر) ١٤٣٥م) انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٦٩.

٨٣- ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٨، ص ٣٥٢-٣٥٣.

٨٤- أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ٧٨-٧٩؛ الدواداري، كنز الدرر، جـ٩، ص ٢٤٨؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ق٣، ص ٧٠١؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٦، ٧٧؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٠٠.

وعند وصول التجار الشاميين إلى مصر كان ينزل تجار الزيت في فندق طرنطاي. اما تجار السلع الأخرى فكانوا يتجهون إلى فندق التفاح، وفندق عمارة، وفندق الملك السعيد، وفندق مسرور، ووكالة قوصون[٨٥].

بالمقابل كانت مصر تصدر إلى بلاد الشام، البطيخ، والكتان الملون، والارز والحصر، والابقار، والقلقاس، والاسماك[٨٦] علاوة على الزمرد[٨٧] الذي لم يوجد ببلد سواها، حيث استخدم كعلاج طبي للانسان [٨٨].

وهكذا نلاحظ ان النشاط التجاري بين بلاد الشام ومصر كان مزدهراً دل على ذلك ما كان يجنيه مركز المكوس في قطيا الواقعة على الحدود المصرية الشامية، إذ كان يبلغ متحصل المكوس فيها إلى الف دينار كل يوم[٨٩]. كما يتضح ايضاً ان صادرات بلاد الشام لمصر كانت اكثر من واردتها، ربما يعود ذلك إلى ان مناخ وتربة بلاد الشام افضل من مثيله في مصر، فضلاً عن ذلك فإن المساحة الشاسعة التي احتلتها بلاد الشام اكبر إذا ما قورنت مع مساحة مصر، في الوقت نفسه كان استهلاك مصر للسلع يفوق استهلاك بلاد الشام، بسبب كثرة سكانها من ناحية[٩٠]. ولوجود مقر السلطان وحاشيته فيها من ناحية اخرى.

٨٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٩٣-٩٤؛ غوانمه، التجارة الدولية، ص ٩٦؛

Labib, Egyption Commercial, p.72.

٨٦- ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص١٨؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص٢٩؛ الإسكندراني، الإلمام، جـ٢، ص١٧١؛ ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص٤٩؛ العلبي، دمشق، ص٢٧٧.

٨٧- الزمرد: كان يستخرج من مغارة تبعد عن مدينة قوص ثمانية ايام، ويستفاد منه في أزالة ألام المعدة والكبد، كما استعمل كمضاد حيوي ضد سموم الحيوانات. انظر التيفاشي، ازهار الافكار، ص ٨٦؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٣١٠-٣١١.

٨٨- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣١٠-٣١١.

٨٩- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٧٠.

٩٠- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٨.

ومع ذلك فالبلدان اعتمدا على بعضهما وبخاصة إذا ألمّ باحدهما كارثة مثل القحط أو الجفاف، أو الطواعين، أو تعرض البلد لاعتداء خارجي كالتتار الذين دخلوا بلاد الشام، مما دفع بأهلها للهرب منها إلى مصر[٩١] اما في زمن المجاعات، فكانت ترسل الغلال إلى البلد الذي يحدث فيه القحط. ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م حدث غلاء بدمشق، مما تطلب استيراد الغلال من مصر، حيث حملت بواسطة المراكب إلى غزة، ومنها وزعت على مختلف الانحاء[٩٢]. وتكرر نفس الشيء في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م إذ وقع الغلاء بالشام، مما تطلب استيراد القمح من مصر[٩٣]. وحدث العكس في رجب ٧٣٦هـ/شباط(فبراير) ١٣٣٦م حيث كانت المجاعة في مصر، مما توجب ذلك استيراد الغلال من بلاد الشام لسد ذلك النقص. فجهزت الكرك والشوبك اربعة الاف غرارة، وبعثت بها إلى مصر[٩٤]. كما ارسل القمح من مصر إلى الشام وذلك في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م بعد ان دمر التتار البلاد، وما نتج عن ذلك من قحط وغلاء في البلاد[٩٥]. ثم تكرر الحدث نفسه سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م إذ ارتفعت اسعار الغلال بالشام، مما دفع بالتجار إلى استغلال هذه الفرصة حيث استوردوا من مصر الغلال وباعوها باعلى الاثمان[٩٦].

كل ذلك يدلّ بوضوح على ما وصل بين البلدين من تعاون اقتصادي نشط، ارسى قواعده ذلك التاريخ المشترك للبلدين.

كذلك فإن التجارة قد نشطت ما بين بلاد الشام والمغرب والاندلس منذ وقت مبكر وقد شاهد بنيامين في برشلونه كثيراً من التجار القادمين من فلسطين[٩٧]. وكان من أهم صادرات بلاد الشام القطن الذي اشتهرت به حلب، حيث نقل بواسطة المراكب

٩١- ابن كثير، البداية، جـ١٤، ص ٧.

٩٢- الصقاعي، تالي الوفيات، ص ١٥.

٩٣- ابن طولون، رسائل تاريخية، ص ٦٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٦، ص ٦٢-٦٣.

٩٤- اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٣٠٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٣٩٤، ٣٩٦.

٩٥- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص ١٠٥٩.

٩٦- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٠٢.

٩٧- بنيامين، رحلة بنيامين، ٥٦١-٥٦٩هـ، نقلها الى العربية عزرا حداد (د.ن)، بغداد، ١٩٤٥، ص ٥٠، ٥٣. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: بنيامين، الرحلة.

إلى سبتة ومنها وزع على جميع انحاء المغرب، كما استوردت المغرب الفواكه بمختلف انواعها، علاوة على الاقمشة الحريرية والبرادي والملابس البعلبكية[٩٨]. أما صادرات المغرب فكان من أهمها الجوز ودهن البنفسج، وصدرت الاندلس إلى الشام التين ذات المذاق الطيب، وكان مصدره مالقة. "وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمعام، وجبالها وترابها الطين المأكول يتجهز به منها إلى ..... والشام وليس في قرار الارض مثله في لذة اكله، وتنظيف غسل الشعر به". فضلاً عن ذلك فقد وصل تجار الشام إلى المرية صاحبة الصناعات الغريبة، إذ امتازت بطرزها الحريرية والتي زادت على ثمانمائة طراز، كما صنع فيها الآلات النحاس والحديد[٩٩].

أما صادرات بلاد الشام إلى العراق، فهي الخضروات والفواكه، وقد جرت العادة ان يحمل إلى الخلفاء ثلاثين الف تفاحة كل عام[١٠٠]. علاوة على تصدير الزبيب، والزيت والزيتون، والنسيج، والرز، والسكر، والصابون، والزجاج. وبعض المعادن كالحديد مثلاً[١٠١]. في حين كانت واردت بلاد الشام من العراق التمر، والورق، والكتب المختلفة، والثياب المختلفة الاصناف كالموصلية[١٠٢]، وربما استوردت معادن الفضة من العراق. فابن بطوطة ذكر مدينة كمش وما كان فيها من معادن الفضة، حيث اتاها التجار من العراق والشام[١٠٣].

٩٨- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط١، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١٥٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن سعيد، الجغرافيا؛ ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٣٢، جـ٢، ص ٧٥٩؛ باشا، تجارة المغرب، ص ٦٧.

٩٩- الحميري، صفة جزيرة الاندلس، (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار)، لجنة التالف والترجمة، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٨٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الحميري، صفة الاندلس.

١٠٠- القزويني، آثار البلاد، ص ٢٠٦.

١٠١- راوولف، رحلة المشرق، ص ١٠٦.

١٠٢- ابو شامه، الذيل، ص ٦٢، ١٥١؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢، ص ٤٦٣؛ المقريزي السلوك، جـ٤، ق٢، ص ٧٩٢؛ جعفر حسين خصباك، احوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول، مجلة كلية الاداب، بغداد، ع٤، آب ١٩٦١م ص ١٦١، ١٦٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: خصباك، احوال العراق.

١٠٣- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٣٢٦.

كذلك اقامت بلاد الشام علاقات تجارية مع اليمن فصدرت اليها الفواكه والزيت، كما استوردت اليمن الاشجار الشامية لتزرعها في اراضيها. هذا عدا عما حرص عليه ملوك اليمن من استجلاب كثير من ارباب الصناعات من الشام ومصر لقلة وجودهم باليمن[١٠٤]. بالمقابل صدرت اليمن العصائب والعقيق والادم والرقيق واللؤلؤ والرصاص والخيزران والفلفل والعنبر وجلود النمور والخيول العربية[١٠٥].

ومن الصين والهند استوردت بلاد الشام التوابل، والعبيد، والمنسوجات، والاحجار الكريمة، والاخشاب، والفلفل، بالاضافة إلى العقاقير الطبية مثل القرفة، والقرنفل، والخلجان، والزنجبيل، والهند شعيرة، وخيار شمر أو شنبر، والراوند والحفص، والمن، والبلسم، والكافور، وعرق الكافور، وال ، والجبهان، وجوزة الطيب، والزعفران، والتوتيا، علاوة على العطور و ا عود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر، واللادن والمصط ت مواد الصباغة التي استخدمت في الاغراض ا القرمز والشب والقطران الطبيعي[١٠٦].

وعند عودة القوافل إلى الشرق كانت والدمشقية بمختلف أصنافها والتحف ال سوقاً رائجة في الهند والصين[١٠٧].

ومن جهة أخرى كان لتجار او بلاد الشام سلعاً مختلفة بعضها ن جهة الشرق، ومن هذه السلع عام،

١٠٤- ابن فضل الله العمري، ممالك ، جـ٥، ص ٧، ٣٤.

١٠٥- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٥، ص ١٢٠؛ ابن

١٠٦- محمد يوسف، علاقات العرب التجارية، ص ٢٨-٣٢؛ فهمي، طرق ص ١٩١، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠١، ٢٢٦؛ ٢٣٥.

١٠٧- غوانمه، التاريخ الاسلامي، ص ٢٧٥.

والانسجة الكتانية والحريرية، والارجون، والاواني الصينية والزجاجية الفاخرة، علاوة على السكر، والعقاقير، والحشائش الطبية، والافاوية العطرية. والبهار، والشب، والجبن، والزبيب، والتفاح، وقضم قريش، والمرايا، وقدور القناديل، والابر، والالبان [١٠٨]. أما صادرات اوروبا لبلاد الشام ومصر فكانت الاخشاب، والاسلحة، والجوخ، والشمع، والعنب الطازج والمجفف، والفراء، والصوف، والزعفران، والمرجان والمصطكي، والبندق، والموالح، والخدم والجواري والغلمان، والذهب[١٠٩].

نستشف مما سبق ان بلاد الشام كانت لها علاقات تجارية نشطة مع مختلف الاقطار، وبخاصة مع مصر والهند والصين واوروبا. فبلاد الشام رُبطت مع مصر جغرافيا وسياسياً، لذا زاد التعاون الاقتصادي بين البلدين. اما الهند والصين فكانتا ترتبطان بعلاقات تجارية مع بلاد الشام منذ القدم، حيث استوردت بلاد الشام منهما مختلف السلع، والتي وجدت لها سوقاً تجارية نافقة في اوروبا. وبهذا الشكل كانت بلاد الشام تمثل سوقاً لسلع الشرق والغرب في آن واحد.

١٠٨- لامنس، تجارة سورية، ص ٩٢٢-٩٢٣؛ غستون دوكسوسو، تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة المشرق، م١٥، ع٤، ١٩١٢م، ص ٢٨٥. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: دوكسوسو، تاريخ الحرير.

١٠٩- فهمي، طرق التجارة، ص ١٩٥؛ اليوزبكي، تجارة مصر، ص ٩٥.

المكوس

المكوس جمع مكس ويعني الضريبة أو الجباية، كما يعرف على انه "انتقاص الثمن في البياعة". ذلك ان على بائع السلع دفع نسبة معينة للعشار على ما يبعه من السلع [١١٠].

وهذه الضريبة كانت قائمة في بلاد الشام قبل المماليك، حيث تعود إلى ما قبل الاسلام فقد كان المكاس أو العشار يجمعها من بائع السلع في الأسواق[١١١]. لكنها في العصر المملوكي توسعت وتزايدت حيث شملت كل شيء[١١٢].

وكان يُعرف من ينظر في المكوس بالوزير فهو الذي يرفع الاموال إلى السلطان وبيت المال، "ومن حقه بذل النصيحة لذلك، وكف أذاه عن اموال الرعية، وتحقيق الوطأة منهم ما امكنه"[١١٣]. وكان مقدار المكس يختلف من وقت لاخر بحسب وضع الدولة فقد يزيد عن العشر، أو ينقص عنه إلى نصف العشر[١١٤].

وهناك مراكز عدة خصصت لتحصيل المكوس على السلع التجارية. ففي العصر الايوبي كانت القوافل تخرج من دمشق إلى السواحل الفلسطينية فتدفع المكوس في بانياس، ومقدار "الضريبة فيها دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس". واما ضريبة البضائع فهي قيراط من الدينار البالغ اربعة وعشرين قيراطاً[١١٥].

١١٠- ابن منظور، لسان العرب، مادة مكس.

١١١- المصدر نفسه، مادة مكس.

١١٢- الاسدي، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر طليمات، دار الفكر العربي، (د.م)، ١٩٦٨م، ص ٧٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الاسدي، الاعتبار؛ محمد كرد علي، جباية الشام في الاسلام، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م١، جـ٨، آب، ١٩٢١م، ص ٣٣٥-٣٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: كرد علي، جباية الشام.

١١٣- السبكي، معيد النعم، ص ٢٧.

١١٤- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٥٣١.

١١٥- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٤.

وبالقرب من جسر الحسا التابع للكرك كانت الرسوم تحصل على السلع القادمة من الهند والصين وجنوب الجزيرة العربية إلى دمشق عن طريق جده، وكانت الكرك تأخذ من هذه المكوس ما قيمته عشرة الاف مثقال من الذهب شهرياً[١١٦].

كما أقيم ديوان آخر في بويب العقبة لاستيفاء الرسوم على البضائع القادمة من الحجاز إلى مصر براً، أو تلك السلع المتجهة إلى دمشق أو حلب. ومن ثم تتجه بطريقها إلى مواني‌ء انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا لتشحن منها إلى اوروبا[١١٧].

كذلك وجـدت مراكز المكوس في غـزة وخان يـونس وسـدود وعكا وصور والشقيف [١١٨] وطرابلس، وهذه الاخيرة كان النشاط التجاري فيها مزدهراً في العصر المملوكي، حيث حصل مقدار ما تحصل من القطن المصدر للفرنج في بعض الاحيان إلى ثلاثين الف دينار في العام [١١٩].

لكن أهم هذه المراكز كان ذلك الديوان الذي في قطية، إذ كان يفد اليه مختلف التجار القادمين في البر من بلاد الشام والعراق وما بجوارهما، وهو من اكثر الجهات متحصلاً، واشدها على التجار تضيقاً. حيث خضع لرقابة شديدة تامة إذ لم يكن يسمح بدخول السلع إلى مصر عن طريق الشام الا بالمرور عبر هذا المركز[١٢٠]. وقد وصف ابن بطوطة قطية بقولة: "ولا يجوز عليها احد إلى الشام إلاّ ببراءة من مصر، ولا إلى مصر الا ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس، وتوقياً من الجواسيس العراقيين، وطريقها في ضمان العرب، قد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الامير صباحاً، فينظر إلى الرمل

١١٦- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ١٣٢.

١١٧- غوانمه، الاردن الحضاري، ص ٦٦.

١١٨- محمود علي عطاالله، نيابة غزة في العهد المملوكي، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٠٢. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: عطاالله، غزة؛ طراونه، صفد، ص ١٧٨.

١١٩- السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص ١٨٤-١٨٥.

١٢٠- ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص ٧٠؛ ابن اياس، نشق الازهار، ورقة ٦٤.

فان وجد به اثراً طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه، فلا يفوتهم فيأتون به الامير، فيعاقبه بما شاء"[١٢١].

هذا وقد تنوع مقدار ما كان يؤخذ عن السلع التجارية، فعلى سبيل المثال كان يتحصل على كل غرارة من الغلة ثلاثة دراهم ونصف[١٢٢]. كما اشار قانون نامة العثماني "ولاية الشام" إلى كلمة العادة القديمة ليعني بها العصر المملوكي، فذكر ان مقدار ما كان يؤخذ عن غرارة الحنطة هو أقجتين[١٢٣] من المشتري ومثلها كان يحصل من الشعير وباقي الحبوب. وعلى عوائد الحرير يدفع اربع أقجات من البائع واثنان من المشتري عن رطل الحرير [١٢٤]. اما الاغنام فكان يحصل عن كل رأس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م درهم واحد إذا بيع في كل من دمشق حماة وحلب. كما كان على التجار دفع ٢٪ أو $\frac{١}{٢}$٢٪ من قيمة الذهب أو الفضة التي تدخل إلى البلاد في كل عام، وتشمل هذه الضريبة ايضا ما يؤخذ على عداد الاغنام والابل في كل عام[١٢٥].

وبالمقابل جرت هناك محاولات من جانب بعض السلاطين لابطال المكوس لتخفيف وطأة تلك الضرائب عن اهالي بلاد الشام. ففي زمن نور الدين زنكي منع ما كان يؤخذ بدمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها[١٢٦]. وكذلك فعل السلطان صلاح الدين الايوبي حيث ابطلت كثير من المكوس في عهده[١٢٧] كما ابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل قمح يدخل باب الجابية بدمشق

١٢١- ابن بطوطة الرحلة، جـ١، ص ٧٠.

١٢٢- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٦، ص ٦٢-٦٣.

١٢٣- كل ثلاث اقجات تساوي باره، وكل ٤ بارات تساوي قرش. انظر: كرد علي جباية الشام، ص ٣٦٣، حاشية رقم (٣).

١٢٤- طراونه، صفد، ص ١٨٤-١٨٥ نقلاً عن قانون نامة ولاية الشام نسخة عن الاصل المحفوظ بدار رئاسة الوزراء التركية.

١٢٥- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٣، ص ٤٥٧-٤٥٨.

١٢٦- ابو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٥.

١٢٧- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٣٣.

من المكس ومقداره خمسة دراهم، ثم ابطل المكوس والضرائب على سائر اصناف الغلة بجميع بلاد الشام[١٢٨].

وفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م برز مرسوم بابطال ضمان مكوس كثيرة بالسواحل[١٢٩]، كما ورد في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م مرسوم باطلاق المكوس على سائر أصناف الغلة ببلاد الشام [١٣٠]. ثم حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون أن اسقطت معظم المكوس في زمنه [١٣١]. كذلك اطلق نائب السلطنة بدمشق عدة مكوس سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م مثل مكس الحداية والخزل المرددن الحلب والطبابي[١٣٢]. وخلال سلطنة برقوق ابطلت كثير من المكوس في الشام ومصر مثل مكس القمح بغزة وما كان يؤخذ على الملح بعينتاب، وعلى الدقيق بالبيرة [١٣٣]، كما شرع في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م بالغاء مكس القز من مدينة مصياف والرصافة[١٣٤]. ثم حدث في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م ان اعلن عن الغاء مكس الملح بدمشق[١٣٥]. كما ابطل نائب دمشق في جمادى الاولى ٨٠٦هـ/تشرين ثان (نوفمبر) ١٤٠٣م مكس الفاكهة والخضروات من دمشق[١٣٦]. وصدر الأمر في سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م بابطال مكس البيض من مدينة حلب[١٣٧]. ونودي في زمن

١٢٨- القرماني، كتاب اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ص ٢٠٠ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القرماني، اخبار الدول.

١٢٩- ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢، ص ٨٠؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١٣، ص ٣١.

١٣٠- ابو الفداء، لمختصر، جـ٤، ص ٩٢؛ ابن حبيب، تذكرة البنية، جـ ٢، ص ١٤٢؛ ابن طولون، رسائل تاريخية ص ٦٢.

١٣١- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١٣٤.

١٣٢- ابن كثير، البداية، جـ ٤، ص ٢٩٣.

١٣٣- السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ١١-١٢.

١٣٤- احمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص ٩٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دراج، وثائق دير صهيون.

١٣٥- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ٢٦٨.

١٣٦- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق ٣، ص ١١١٩؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ٥، ص ١٥٢.

١٣٧- الغزي نهر الذهب، جـ٣، ص ٢٢٣.

الناصر فرج بن برقوق سنة ٨١٥هـ/١٤١٧م باطلاق المكوس في دمشق[١٣٨]. وفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ابطل ضمان مكس العطارين في طرابلس [١٣٩] وفي جمادى الآخرة ٨٢٤هـ/ حزيران(يونيو) ١٤٢١م صدر الامر في بعلبك بابطال ما يدفعه الطحانون والخبازون والسوقة وغيرهم في كل شهر. وورد في ربيع الاخر ٨٤٦هـ/آب(اغسطس) ١٤٤٢م مرسوم فيه ابطال مكس الكتان من خان الكتان بمدينة حلب. وبالسنة نفسها ايضا ابطل ما يؤخذ عن انوال الحياكة وخراج الكروم بالقدموس، كما صدر مرسوم في شعبان ٨٥١هـ/ تشرين أول(اكتوبر) ١٤٤٧م يتضمن ابطال ما تجدد على عوام القدموس والكهف والمنيفة والعليقة والخوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام [١٤٠].

وفي ربيع الاول ٨٥٧هـ/ أيار(مايو) ١٤٥٣م و ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م نفذ الامر بابطال مكس الزيتون من قرى غراز ومعاملتها[١٤١]، فضلا عن ابطال مكس الاغنام على النحيرة وذلك في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م[١٤٢] وفي سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ذاع الخبر بان نائب الشام قد ابطل المكوس منها، وان اهل الشام يدعون له دعاء جزيلا[١٤٣]. وبعد ثلاث سنوات صدر الامر بابطال مكس جميع السلاح من سوق السلاح الواقع بمدينة حلب[١٤٤]. وبمدينة حلب ايضا صدر مرسومان في سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧-١٤٧٨م الاول في رجب / تشرين أول(اكتوبر) وفيه ابطال ما على الدباغين بدير كوس من المكس والمظلمة. اما الثاني فكان في ذي الحجة / آذار(مارس) ويتضمن ابطال مكس الملح

١٣٨- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق١، ص ٢١٠-٢١١؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ٧، ص ٥١.

١٣٩- عمر عبد السلام تدمري، نصوص كتابات تاريخية على عمارة طرابلس الإسلامية في عصر المماليك (المراسيم السلطانية)، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع٣٥، ايلول (سبتمبر) ١٩٨١، ص١٥. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: تدمري، عمارة طرابلس.

١٤٠- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٩٥، ٩٦، ٩٨.

١٤١- الغزي، نهر الذهب، جـ ٣، ص ٢٢٩-٢٣١.

١٤٢- تدمري، عمارة طرابلس، ص ١٧.

١٤٣- ابن الصيرفي، انباء الهصر ، ص ٢٧٥.

١٤٤- الغزي، نهر الذهب، جـ٣، ص ٢٣٣.

الداخل إلى مدينة حلب[١٤٥]. وفي السنة نفسها ابطل ما على جماعة الدباغين بطرابلس من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة، وان لا يكلفوا بدرهم. كما اعلن بطرابلس ايضا عن ابطال مكس دواليب الحرير والقصابة في الكهف والقدموس علاوة على ابطال مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الأسا وذلك في سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٥م[١٤٦].

وفي سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م صدر الامر بابطال المكاسين من مدينة حلب، لكنه اقتصر الامر في جمادى الاخرة ٨٩٣هـ/ أيار (مايو) ١٤٨٧م على اخفاء ما يأخذه ناظر الحنة من سوق الحناوية بمدينة حلب[١٤٧]. وبحلول أواخر ربيع الاول ٨٩٦هـ/ كانون الثاني(يناير) ١٤٩١م ذاع الخبر بابطال جميع المظالم في حمص وما تجدد على الحياكين من المغارم القز[١٤٨]. وفي ذي الحجة ٩٠١هـ/ آب(اغسطس) ١٤٩٦م نودي في دمشق بابطال مكس القمح والخبز والزعفران والبطيخ والعنب والبيض وغير ذلك[١٤٩]. وحدث الشيء نفسه في حلب حيث صدر الامر في رجب ٩٠٢هـ / آذار(مارس) ١٤٩٧م بابطال مكس القطن من سوق القطن، وابطال مكس السماق من خان السماق. كما الغيت المكوس المقررة على الجبن والخضر والقلقاس والقمح إذ بلغ ما يؤخذ من ذلك الوفا في كل يوم[١٥٠].

وهكذا نلاحظ أن المكوس قد كثرت في العصر المملوكي، ومرد ذلك راجع لأسباب عدة منها طمع بعض السلاطين والامراء المماليك في جمع الاموال فمثلا قدرت ثروة تنكز نائب الشام (٧١٢هـ/١٣١٢-٧٤١هـ/١٣٤٢م) بـ (٣٦٠,٠٠٠) دينار و (١,٥٠٠,٠٠٠)

١٤٥- المرجع نفسه، جـ٣، ص ٢٣٣.

١٤٦- تدمري، عمارة طرابلس، ص ٢٠-٢١.

١٤٧- الغزي، نهر الذهب، جـ ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧.

١٤٨- دراج، وثائق، ص ٩٦-٩٧.

١٤٩- البصروي، تاريخه، ص ١٨٥.

١٥٠- ابن الشحنة، البدر الزاهر في نصره الملك الناصر «محمد بن قايتباي» (٩٠١-٩٠٤هـ / ١٤٩٥-١٤٩٩م) تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٥١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الشحنة، البدر الزاهر؛ الغزي، نهر الذهب، جـ ٣، ص ٢٣٨.

درهم وقماشا قيمته (٦٤٠,٠٠٠) دينار و (٤,٢٠٠) رأس ماشية، علاوة على ما ملكه من القرى والقصور والخانات والحمامات والأسواق في دمشق حيث بلغت قيمتها بنحو (٢,٦٠٠,٠٠٠) درهم، وممتلكات أخرى تزيد عن (٩٠٠,٠٠٠) درهم في كل من بيروت وحمص ومدن أخرى[١٥١].

فضلاً عن ذلك فقد واجهت الدولة المملوكية اضطراباً في احوالها الاقتصادية التي اجهدت ماديا بسبب كثرة حروبها ضد القراصنة المسيحيين الذي هاجموا السفن والسواحل الاسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك، علاوة على الحروب الداخلية التي شنها المماليك ضد البدو والتتار والتركمان، وحروبهم البحرية ضد البرتغاليين والتي استنفدت موارد الدولة، لذا كان لا بد من ايجاد وسيلة للحصول على المال، وكانت المكوس هي احدى وسائل جمع المال.

في ختام هذا الفصل نخرج بعدة نتائج منها:

أن الاقتصاد المملوكي بلغ درجة عالية من الازدهار، دّل على هذا ذلك النشاط الصناعي والتجاري المتواصل الذي شهدته بلاد الشام خلال هذه الفترة، حيث استطاعت بلاد الشام ان تعتمد على نفسها بتصنيع كثير من السلع التجارية، وذلك بفضل ما حوته بلاد الشام من المواد الخام اللازمة لقيام كثير من الصناعات.

كما أن بلاد الشام قد سدت النقص في أسواقها من خلال التبادل التجاري فيما بينها من ناحية، وفيما بينها وبين الأسواق الخارجية من ناحية أخرى. وكان يعود الفضل في نجاح هذه العملية إلى العديد من العوامل سبق وأن تحدثنا عنها في الفصل الرابع، والتي كان من ضمنها الطرق التجارية الداخلية والخارجية.

ومن جهة أخرى فالدولة المملوكية جنت دخلاً كبيراً بفرضها المكوس، والتي زادت عن المعقول مما انعكس أثر ذلك سلبياً على الحركة التجارية بالرغم من تلك المحاولات التي بذلت من قبل بعض السلاطين والامراء المماليك لابطال ذلك.

ومع ذلك فدولة المماليك كانت بحاجة إلى الاموال لسد العجز الناتج عن تجهيز الجيوش العسكرية ولمقاومة اعدائها في الداخل والخارج. علاوة على ذلك فقد كان البلاط السلطاني بحاجة إلى الاموال الكثيرة لتغطية استهلاكه الكبير.

١٥١- مغلطاي، سلاطين مصر والشام، ورقه أ ١٣٦؛ الصفدي، الوافي، جـ ١٠، ص ٤٢٠-٤٣٥.

الفصل السادس

المعـــامـــلات

أولاً : وسائل التعامل التجاري

أ. النقود

ب. نظام المقايضة ونصف المقايضة وأثرهما

جـ. السفتجة

د. الصك

ثانيـــاً : الأوزان

ثالثـــاً : المكاييل

رابعـــاً : المقاييس

خامساً : وسطاء البيع والشراء (المنادي والدّلال)

سادساً : الأسعار

سابعـــاً : مراقبة الأسواق

أولاً: وسائل التعامل التجاري

أ. النقود:

قبل الحديث عن النقود في العصر المملوكي لا بد من التنويه إلى ان النقود قد مرت بعدة مراحل، ويمكن ان نحدد مرحلتين رئيسيتين من ذلك، الأولى: ان هناك بعض السلع قد استخدمت كوسيلة في المبادلات، والشخص الذي يحصل عليها كان بمقدوره ان يشتري بها بضائع وخدمات، وبهذا تجزأت عملية المقايضة إلى عمليتين متميزتين ومتعاقبتين هما عملية البيع، وعملية الشراء[١].

أما المرحلة الثانية، فظهرت فيها النقود السلعية إذ حلت المعادن مكان السلع في المبادلات، وأول هذه المعادن كانت المعادن الرخيصة كالنحاس، ثم تطورت فيما بعد إلى استخدام الذهب والفضة لأهمية كل منهما ومكانته وما يمكن ان يقوما به من وظائف افضل من مهام المعادن الأخرى[٢].

لقد انتشرت دور سك النقود في بلاد الشام ومصر خلال العصر المملوكي، ففي بلاد الشام سكت النقود في دمشق، وطرابلس[٣]، وحماة[٤]، وحلب[٥]، وصور[٦]، والكرك[٧]، وكانت انواع العملة المتداولة بين الناس في هذا العصر هي الذهب، والفضة،

١- اليوزبكي، تجارة مصر، ص ٩٩.

٢- المرجع نفسه، ص ٩٩.

٣- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٨٧، جـ ١٢، ص ٤٧٦-٤٧٧، ٤٥٤-٤٥٥.

٤- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة او تاريخ المجاعات في مصر، مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة (د.ت) ، ص ١٠٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي، اغاثة الامة.

٥- الطباخ، إعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٤٨-٤٩.

٦- القزويني، آثار البلاد، ص ٢١٧.

٧- ابو المحاسن، النجوم، جـ ١٠، ص ٧١؛ غوانمة، الأردن الحضاري، ص ٧٩.

والنحاس. فالذهب كان يستورد من غانة وتكرور والتي تعرف اليوم بمالي. والفضة كانت تستورد من اوروبا، وآسيا الوسطى[٨]. أما النحاس فتوفر قسم كبير منه في بلاد الشام[٩]، كما استورد من اوروبا[١٠].

ومن الملفت للنظر ان هذه العملات كانت قابلة للتغير وباستمرار، سيما في عصر المماليك الشراكسة، بسبب نقص مخزون الذهب والفضة في دور الضرب، علاوة على اعتلاء الدولة كثير من السلاطين، فقد كان من الطبيعي ان تضرب عملة جديدة لاعتلاء السلطنة سلطان جديد، فعلى الدينار الذهبي مثلا كان ينقش على الوجه شهادة ان لا اله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وعلى الظهر اسم السلطان وتاريخ الضرب، ومدينة الضرب[١١]. لكن اكثر هذا التغيير كان يحصل بسبب زيف هذه العملة، وتدني نسبة الفضة أو الذهب فيها قياسا مع معدن النحاس.

ففي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م ضربت الدراهم الحموية الامر الذي اثار تذمر الناس لاختلاف نسبة الفضة فيها، إذ كان يحتوي كل درهم بما نسبته ٧٠٪ نحاس و٣٠٪ فضة[١٢]. وبعد سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م زاد الوضع سوءاً إذ ضربت دراهم رديئة في بلاد الشام فكان فيها الثلث فما دونه فضة والباقي نحاس احمر. ويعزي القلقشندي هذا النقص في الفضة "لاستهلاكها في السروج والآنية ونحوها، وانقطاع واصلها إلى الديار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها"[١٣]. لازدياد الطلب عليها من قبل ايطاليا[١٤].

٨- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٠٧-٥٠٨؛ أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٠؛ صبحي لبيب، سياسة مصر التجارية في عصري الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية،م٢٨-٢٩، ١٩٨١-١٩٨٢، ص ١٣٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: لبيب،سياسة مصر التجارية.

٩- انظر الفصل الخامس، ص١٧٧.

١٠- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥١١.

١١- غوانمة، القدس، ص ٩٩.

١٢- المقريزي، النقود القديمة والإسلامية، تحقيق رأفت محمد النبراوي، مجلة العصور، م ٣، جـ ١، يناير ١٩٨٨م، ص ١٣٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي، النقود.

١٣- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٣٥.

١٤- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٩؛ سيده كاشف، دراسات في النقود الاسلامية، المجلة التاريخية المصرية، م ١٢، ١٩٦٤/١٩٦٥، ص ٩٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: كاشف، دراسات في النقود.

وهذا بالتالي انعكس على سعر الدينار حيث زاد سعر صرفه، ففي سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م كان كل دينار يعادل ثلاثين درهما. لكن في سنة ٨١٨/١٤١٥م انخفض سعره ليصبح (١٤) درهما لكل دينار بسبب ما ادخله الملك المؤيد (٨١٥/١٤١٧- ٨٢٤هـ/١٤٢١م) من اصلاحات حيث رفع نسبة الفضة، ثم عاد الدينار إلى إرتفاعه، فوصل سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م إلى (٢٥) درهماً لكل دينار، والى (٣٠) درهما في عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، واصبح سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م (٢٥) درهما، ثم ثبت في أواخر عهد سلاطين المماليك ليصرف بـ (٣٠) درهما[١٥].

ومن جهة أخرى فان انخفاض قيمة الدراهم الفضية قد انعكس سلبيا على قيمة الفلوس النحاسية، والتي هي في الأصل سكت لشراء الحاجات البسيطة التي يقل ثمنها عن الدرهم، فقد مر عليها وقت اصبحت فيه العملة السائدة في التعامل حتى "صار يقال كل دينار بكذا من الفلوس"[١٦].

كما تعامل الناس في بلاد الشام بالقراطيس[١٧]، والقرطاس كان يعادل ستة فلوس، وهذه العملة كانت سائدة في بلاد الشام قبل العصر الايوبي، واستمر التعامل بها طوال عصر السلاطين المماليك[١٨]. فضلا عن رواج بعض العملات الأجنبية في الأسواق الشامية مثل الدوكات الذهبية أو الافرنتية، وقد سكتها البندقية. بالاضافة إلى ذلك سادت الدنانير البيزية والدوقة الفضية[١٩].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه النقود قد وجدت اقبالا شديدا عليها من قبل الناس في بلاد الشام ومصر نظرا لما امتازت به من عيار صحيح ووزن ثابت[٢٠]. وكانت تصرف هذه النقود بواسطة المصارف التي انتشرت في بلاد الشام، حيث كان لكل دولة مصرف أو بنك يخدم مصالحها مثل جنوا وفينيسيا وفلورنسا وبيزا[٢١].

١٥- العلبي، دمشق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

١٦- المقريزي، النقود، ص ١٤٦.

١٧- القراطيس: وهي عبارة عن لفائف نقدية على شكل اسطواني عرفت من ايام عبد الملك بن مروان. انظر: البلاذري، فتوح، ص٢٤٠-٢٤١.

١٨- ابو شامه، الروضتين، جـ١، ص ٢٤؛ ابن قاضي شهبة، السيرة النورية، ص ٢٤.

١٩- زيادة، دمشق، ص ١٦٨.

٢٠- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٠٧-٥٠٨.

٢١- غوانمة، القدس، ص ١٠٠؛ Omari, the market society, p21

وقد كان لهذا التطور أثره السيء في نفوس السلاطين المماليك، ومن بينهم الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٨/٨٠١ - ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م) الذي امر بسك دنانير جديدة على وزن الدنانير الافرنتية، ولكن مع كل هذا فقد نقصت قيمة هذه الدنانير بعشرة دراهم عن الدنانير الافرنتية[٢٢].

ولمواجهة هذا الخلل لجأ السلطان برسباي (١٤٢١/٨٢٥ - ٨٤٢هـ/١٤٣٨م) إلى تشجيع البنادقة على ضرب نقودهم الافرنتية في دار الضرب السلطانية بالقاهرة كتعريب للنقود الايطالية المنتشرة في الأسواق. وقد افلح في ذلك، فسكت الاشرفية بنفس وزن الافرنتي (٣,٤٥ جرام)، واصدر امره سنة ٨٢٩ هـ/١٣٢٥م بالغاء التعامل بالدنانير المشخصة من الدوكات، لانها تحمل صور الكفار، واحلال الافلورية الاشرفية مكانها[٢٣].

ومن بعد برسباي جاء جقمق (١١٣٨/٨٤٢-٨٥٦هـ/١٤٥٢م) والذي اتبع سياسة برسباي في تمصير الدنانير الافلورية، ورغم كل تلك الاصلاحات التي قام بها بعض السلاطين إلاّ ان كميات الذهب الواردة إلى الدولة المملوكية قد قل وصولها بسبب أساليب الاحتكار التي اتبعها سلاطين المماليك للتجارة الشرقية وبخاصة تجارة الفلفل والبهار، حيث زادت العلاقات التجارية بين المماليك والبندقية، ولم يصاحب ذلك زيادة في المعادن النفسية ومنها الذهب، في الوقت نفسه لم تقبل مدن الشام التعامل بعملة البنادقة الفضية[٢٤]، لذا سارع السلاطين المماليك الشراكسة إلى عقد المعاهدات مع البندقية لتوفير الذهب، ففي سنة ١٣٤٥م ابرم المماليك معاهدة مع البندقية جاء فيها بتخفيض الضريبة الجمركية عن الذهب الواصل مع تجار البندقية، بحيث قدرت هذه الضريبة بـ ٢٪ فقط في حين ان الضريبة على البضائع المستوردة قد وصلت إلى ١٠٪، ومع كل هذه الإجراءات فان كميات الذهب اخذت في

٢٢- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص ١٠٥٥.

٢٣- عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤م، ص ٩٨-١٠٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: فهمي، النقود العربية.

٢٤- المرجع نفسه، ص ١٠٠-١٠١.

التناقص من السوق، مما دفع بالمماليك للتعامل بنظام المقايضة، وهو نظام اشتد نشاطه منذ القرن الخامس عشر[٢٥].

ب. نظام المقايضة:

لقد ذكرنا آنفا بعض الاسباب التي كانت دافعا في ظهور نظام المقايضة، كازدياد النشاط التجاري بين المماليك واوربا سيما في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع والخامس عشر الميلاديين، حيث زاد حجم السلع المتبادلة دون ان يصحب ذلك زيادة في الذهب. ثم رفض الشام التعامل بالفضة البندقية بدلا من الدوكات الذهبية وحدث ذلك في سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م إذ ضربت البندقية عملة فضة خاصة بتجارة بلاد الشام، لكن السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق والتجار رفضوا قبولها كعملة للمتاجرة، واصروا على التعامل بالذهب، مما اضطر البندقية إلى جمعها من الأسواق، فنتج عن هذا إقامة نظام الممقايضة[٢٦].

ويضاف إلى ذلك اعتبارات ادارية ساعدت على قيام المقايضة، فقد كان البنادقة يخضعون لتعليمات مشددة فرضتها عليهم حكومتهم فحرمت عليهم الاستدانة والإقراض أو البيع والشراء باجل أو حتى المشاركة، مما دفعهم بالتالي إلى الالتجاء للمقايضة. ففي الامر السلطاني الصادر في رمضان ٨١٨هـ/١٥تشرين ثان(نوفمبر) ١٤١٥م إلى كل من حكام طرابلس وحماة والاسكندرية وصفد وغزة والكرك لعقد الإتفاق مع السفيران سانتوفيرو ولرونزو كابللو البندقيان ومما جاء في هذا العقد ما يلي: "اذا اتفق المتعاقدان على المقايضة فانه لا يجوز بعد ذلك رد البضاعة والمطالبة بالدفع نقدا" وورد في معاهدة فلورنسة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م وهي منقولة عن معاهدات البندقية ما يلي: "اذا حدث الاتفاق على تبادل البضائع ورفض التاجر المسلم تسلمها فانها توزن وتوضع لحسابه خارج ديوان الوزان (القبان) وخارج المخازن[٢٧].

٢٥- فهمي، طرق التجارة، ص ١٠٠-١٠٢.

٢٦- اسكندر، نظام المقايضة، ص ٣٩-٤٠.

٢٧- المرجع نفسه، ص ٤٠-٤١.

فضلا عن ذلك فإن العملة الذهبية قد تعرضت للتلاعب في عيارها، وتغير وزنها وتعديل حجمها، مما افقدها ثقة المتعاملين بها لذا كان اللجوء إلى نظام المقايضة خير بديل عن ذلك[٢٨].

والى جانب نظام المقايضة وجد نظام آخر يمكن ان يسمى بنصف المقايضة، بالرغم من عدم وجود نص في ذلك بالوثائق الرسمية، لكن مدلوله كان واضحا، ففي خطاب بعث به احد اشراف البنادقة لابنه يشير فيه إلى ان النقود تتزوج مع السلع فهو يدفع ثمن السلع المشتراه نقدا، وبعضه سلعا، والمقصود هنا طريقة التعامل المزدوج، وهي ان يأخذ التجار العملة المحلية مقابل بضائعهم ثم يشترون بهذه النقود سلع تلك البلاد التي هم بحاجة اليها[٢٩].

أما السلع المستخدمة في المقايضة والتي كان لها الدور العملي، فكانت التوابل من ناحية، والفواكه أو المعادن غير النفيسة من ناحية أخرى[٣٠].

آثار نظام المقايضة:

نتج عن إقامة نظام المقايضة في الدولة المملوكية أمران: الأول إرتفاع الأسعار إرتفاعا واضحا، ذلك ان ثمن السلع في حالة المقايضة يزيد عن ثمنها في حالة الدفع نقدا، فمثلا تضاعف سعر التوابل مرتين في حالة المقايضة وذلك في مدة لا تزيد عن نصف قرن. والثاني قلة وصول الذهب إلى الدولة المملوكية، لأن التجارة الخارجية كانت اكبر مورد للذهب بالنسبة للمماليك، ولم يعوض هذا النقص استيراد الذهب من غرب السودان[٣١].

ولعلاج هذا النقص في الذهب والفضة لجأ سلاطين المماليك إلى وسيلتين: الأولى إجبار تجار البنادقة بدفع الذهب لقاء قدر معين من التوابل السلطانية في الوقت نفسه تبقى معاملاتهم مع الافراد حرة في الإلتجاء للمقايضة. والوسيلة

٢٨- فهمي، طرق التجارة، ص ٣٦٢.

٢٩- اسكندر، نظام المقايضة، ص ٤١-٤٢.

٣٠- المرجع نفسه، ص ٤٢.

٣١- المرجع نفسه، ص ٤٣.

الثانية هي فرض كمية معينة من الفضة على تجارة البنادقة يؤدونها لدار السكة في كل عام. ففي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م أجبر تجار البنادقة بدمشق على ان يقدموا للسكة اربعمائة درهم من الفضة سنويا، كما فرضت عليهم غرامة قدرها ثلاث دوقات لكل درهم ينقص عن الكمية المقررة. فضلا عن تقديم السبائك الذهبية إلى دار السكة السلطانية لضربها نقودا[٣٢].

ورغم هذه الإجراءات فإن المماليك لم ينجحوا في المحافظة على الذهب أو الفضة، حيث اخذا في التناقص، ففي عهد السلطان الغوري (٩٠٦/١٥٠٠-٩٢٢هـ/١٥١٦م) اضطر إلى مفاوضة البندقية باستبدال النحاس بالتوابل، فحل النحاس بدلا من الذهب والفضة في التعامل التجاري[٣٣].

جـ. السفتجة:

وهي احدى وسائل التعامل التجاري والمالي زمن المماليك[٣٤]، وقد كثر استخدامها بسبب ما شهده هذا العصر من نشاط تجاري. علاوة على ذلك فالشخص الذي يستخدمها يستطيع ان ينقل النقود من مكان لآخر دون ان تتعرض امواله لأخطار الطريق، أو لاعتداءات الحكام على ثروته. كما ان التجار استطاعوا تصفية الحسابات فيما بينهم دون الحاجة إلى نقل النقود. لذا فعملها يشبه عمل الكمبيالة في وقتنا الحاضر، إذ لم تكن تلك السفاتج قابلة للتحويل لغير مالكها[٣٥].

٣٢- المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥.

٣٣- المرجع نفسه، ص ٤٥.

٣٤- ابن منظور، لسان العرب، مادة سفتج.

٣٥- فهمي، طرق التجارة، ص ٣٤٣؛ توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ط٣، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٢٦١-٢٦٢. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: اليوزبكي، النظم العربية الإسلامية.

د. الصـــك[٣٦]:

استعمل الصك وسيلة لدفع الاموال في المعاملات التجارية، وهو يشبه نظام الشيكات في وقتنا الحالي، ذلك ان مالك المال كان باستطاعته استبدال امواله من الصراف حيث يعطيه الاخير سندات مالية مكتوب فيها اسم صاحب الاموال وقيمة تلك الاموال التي استبدلها[٣٧].

وبهذه الطريقة كان صاحب هذه الأوراق أو السندات يضمن امواله من الاعتداء، كما سهلت هذه الوسيلة على التجار تيسير اعمالهم التجارية، فالتاجر المالك لمثل هذه الصكوك كان بامكانه إعطاء من يشتري منه السلع اموالا بقيمتها صكوكاً. ثم ان صاحب البضاعة يعود ليستبدل هذه الأوراق أو الشيكات من الصراف بأوراق نقدية أو دراهم[٣٨].

يتضح من كل ما تقدم أن وسائل التعامل التجاري قد تعددت حيث دلّ ذلك على مدى ما وصل اليه النشاط التجاري من ازدهار.

ومما تجدر الإشارة اليه إلى ان نظام السفتجات والصكوك لم يقتصر استخدامهما على جهة معينة من الناس، بل انتفع بها اصحاب السلطة الذين لجأوا بدورهم إلى المصارف والتجار للاستدانة منهم الأموال، على ان يتم تسديدها بعد أجل يتفق عليه، وبالقسط مقابل فائدة معينة. واذا وافق مالك المال على ذلك، كان عليه ان يعطي الصراف توكيلاً ليقوم هذا الأخير بتحصيل تلك الأموال المقرضة نظير نسبة معينة من المال. وبهذه الحالة كانت الفائدة تعود على المقترض والمقرض والمصرفي[٣٩].

٣٦- الصك: كلمة فارسية معربة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة صكك.

٣٧- Omari, the market society, p21.

٣٨- Ibid, p21؛ فهمي، طرق التجارة، ص ٣٤٣.

٣٩- فهمي، طرق التجارة، ص ٣٤٥-٣٤٦.

ثانياً، الأوزان،

لم يكن هناك وزن ثابت لكافة المعاملات التجارية في بلاد الشام، وان كانت انواع الأوزان واحدة، فكل مدينة لها أوزان تختلف عن المدينة الأخرى. وكانت وحدة الوزن المعروفة في بلاد الشام هي الدرهم ومضاعفاته كالأوقية والرطل والقنطار.

أما الدرهم كوحدة وزن، فكان يعادل (٦٠) حبة شعير، ويعادل بالنظام المتري حوالي (٣,٠٨٩٨ غم)[٤٠]، والأوقية تساوي (١٢) درهما، والرطل عادل (١٢) أوقية، في حين كان القنطار يساوي (١٠٠) رطل[٤١].

فرطل دمشق وطرابلس واحد، وكان يساوي حسب هذا المقياس (٦٠٠) درهم، إذ ان أوقية كل منهما كانت تعادل (٥٠) درهما[٤٢]، وبالنظام المتري كان رطل كل واحدة منهما تعادل (١,٨٥كغم)[٤٣]. وربما زاد هذا الرطل عن ذلك في القرى القريبة من دمشق، لكن يبقى رطل دمشق هو الأساس[٤٤]. وقد جرت هناك محاولة تغيير رطل وأوقية دمشق ليصبحا كرطل[٤٥] وأوقية[٤٦] مصر، وكان ذلك في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، لكن هذا لم يتحقق[٤٧].

أما الرطل الحلبي، فورد ذكره عند الشيزري (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) بـ (١٢) أوقية وكل أوقية تعادل (٦٠$\frac{1}{3}$) درهما، وبهذا اصبح الرطل الحلبي يساوي (٧٢٤) درهما[٤٨]. وبما ان الدرهم كان يعادل (٣,١٤ غرام)، فان وزن الرطل الحلبي هو (٢,٢٧٣ كغم)[٤٩].

٤٠- هنتس، المكاييل، ص ١١.

٤١- الشيزري، الحسبة، ص ١٥؛ ابو شامة، الروضتين، جـ ٢، ص ١٦٣.

٤٢- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٨٨، ٢٣٩-٢٤٠.

٤٣- هنتس، المكاييل، ص ٣٣.

٤٤- ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، جـ ١، ص ١٥.

٤٥- الرطل في مصر: انظر الفصل الثاني، ص ١٠٣ حاشية رقم (١٨٥).

٤٦- اوقية مصر: كانت تعادل (١٢) درهما وتساوي (٣٧,٥ غم) انظر هنتس، المكاييل، ص ١٩.

٤٧- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ١٦٣؛ العلبي،دمشق، ص ٢٤١.

٤٨- الشيزري، الحسبة، ص ١٦.

٤٩- هنتس، المكاييل، ص ٣٤.

لكن في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي يذكر القلقشندي أن الرطل الحلبي أصبح يساوي (٧٢٠) درهما[٥٠]، وظل هكذا يحتفظ بنفس الوزن حتى بداية القرن التاسع عشر حيث عادل (٣,١٦٧ غراماً). فإذاً كان الرطل الحلبي يساوي (٢,٢٨ كغم) [٥١]. وربما يكون وزن الرطل الحلبي يعادل (٧٢٠) درهما، وان الفرق بين ما ذكره الشيزري والقلقشندي يعود لاختلاف وزن الدرهم، إذ ان وزن الدرهم كان في زمن الشيزري يعادل (٣,١٤ غراماً)، بينما اصبح في زمن القلقشندي (٣,١٦٧ غراماً) [٥٢]. وربما زاد الرطل الحلبي عن ذلك في المناطق المجاورة لحلب[٥٣].

وفي حماة كان الرطل يعادل (٦٦٠) درهما في زمن الشيزري وهو يساوي حسب النظام المتري بـ (٢,٠٦٢ كغم)[٥٤]. ثم تضارب وزنه في العصر المملوكي، فالقلقشندي وابن الأخوة يتفقان في جميع أوزان الأرطال في بلاد الشام باستثناء حماة، فعند الأول يرتفع إلى (٧٢٠) درهماً، في حين ان الثاني يذكره كما كان في العصر الأيوبي أي "٦٦٠" درهما. ومن المرجح ان وزنه هو الاخير، فقد ذكر عند ابن بسام بـ (٦٦٠) درهماً، وأوقيتها بـ (٥٥) درهماً[٥٥].

وبلغ وزن الرطل الحمصي في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي (٨٦٤) درهما، أو (٢,٧ كغم) بالنظام المتري[٥٦]، ثم انخفض في العصر المملوكي

٥٠- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٢٢-١٢٣.

٥١- الفزي، نهر الذهب، جـ ١، ص ٩٢؛ هنتس، المكاييل، ص ٣٤.

٥٢- هنتس، المكاييل، ص ٣٤.

٥٣- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢٣.

٥٤- الشيزري، الحسبة، ص ١٦؛ هنتس، المكاييل، ص ٣٥.

٥٥- ابن الأخوة، الحسبة، ص٨٠؛ القلقشندي،صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٤٣؛ ابن بسام، الحسبة، ص١٨٦.

٥٦- الشيزري، الحسبة، ص ١٦؛ هنتس، المكاييل، ص ٣٤-٣٥.

إلى (٧٩٤) درهماً[٥٧]. أما الرطل الغزاوي فكان (٧٢٠) درهما. في الوقت نفسه كان رطل القدس والخليل ونابلس (٨٠٠) درهم. وفي عجلون كان رطلها (١٢٠٠) درهم. أما الكرك فعادل رطلها (٩٠٠) درهم[٥٨].

كذلك استعملت بلاد الشام إلى جانب الدرهم كوحدة وزن المثقال لوزن الذهب واللؤلؤ والمسك والعنبر وعطر الورد، ويعادل المثقال (٢٤) قيراطا، وكل قيراط يساوي (٨٥) حبة قمح. أما وزن المثقال الشرعي فيساوي (٦,٤٦غراماً)[٥٩]. ومثلما اختلف وزن الأرطال في مدن بلاد الشام عن بعضها البعض، فان المثقال هو الآخر قد اختلف وزنه من مدينة لأخرى، ففي شيزر كان مثقالها يزيد عن مثله بحلب بنصف قيراط، لكنه ماثل في الوقت نفسه مثقال حماة، ونقص عن مثقال دمشق، والمعرة[٦٠].

وهكذا نلاحظ أن هناك اختلافاً واضحاً في أوزان الارطال والمثاقيل في بلاد الشام، والسبب في ذلك كما يتضح من حديث الشيزري ان كل قوم اصطلحوا على شيء في زمن سلطان، ثم يتغير ذلك بزوال السلطان عن الحكم[٦١].

٥٧- ابن الأخوة، الحسبة، ص ٨١؛ ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨،ص ١٨٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن بسام الحسبة.

٥٨- ابن الاخوة، الحسبة، ص ٨١.

٥٩- جبران، حماة، ص ٢٦٧.

٦٠- الشيزري، الحسبة، ص ١٦-١٧.

٦١- المصدر نفسه، ص ١٧.

ثالثاً: المكاييـــــل:

استخدمت بلاد الشام عدة انواع من المكاييل، بعضها استعمل للحبوب، وبعضها للزيوت، وللسوائل الاخرى، ومثلما اختلفت الأوزان في بلاد الشام، فان مقدار المكاييل قد اختلف هو الاخر، كما تغيرت انواعها ومقاديرها بتعاقب الازمان، فالمقدسي مثلاً ذكر عدة انواع من المكاييل كانت تستخدم في بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. حيث كان لاهل الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، فالكيلجة كانت تعادل صاعاً[٦٢] ونصف، أي حوالي (٦,٣ لتر)، أو (٦,٣٦كغم)، بالنظام المتري[٦٣]. والمكوك عادل ثلاث كيالج. أي حوالي (١٩,٨كغم) والويبة قدرت بمكوكين، أي (٣٦,١٦كغم)، اما القفيز فكان يتسع لاربع ويبات، أي (١٤٤,٦٤كغم). كما استعمل أهل القدس المدى[٦٤] وهو ثلثا القفيز، أو حوالي (١٠٠كغم) وهو يعادل قفيز صور، في حين كانت كيلجة صور تساوي الصاع. اما دمشق، فاستخدمت في معاملتها الغرارة، وكانت تعادل قفيزاً ونصف، أو (٢٠٤,٥ كغم) تقريباً[٦٥].

بعد المقدسي اتى الشيزري فذكر مكاييل عصره، حيث تعامل أهل شيزر بالقفيز، وهو ستة عشر سنبلا[٦٦] ويساوي (٥١,٢١٨كغم) من القمح أو (٦٦,٥لتراً) والقفيز الحموي كان يقل عن الشيزري بسنبلين، في حين تعادل القفيز الحمصي مع القفيز الحموي. أي حوالي (٤٤,٨١٦كغم) أو (٥٨,٢ لتراً)[٦٧].

٦٢- الصاع (كان يساوي ٣,٢٤٥ كغم). انظر هنتس، المكاييل، ص ٦٣.

٦٣- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨١؛ هنتس، المكاييل، ص ٧٢.

٦٤- المدى يختلف عن المد، فالمدى اكبر من المد، وهذا الاخير كان يقدر في عمان بحوالي (٣٧,٨لترا). انظر هنتس، المكاييل، ص ٧٥.

٦٥- المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨١؛ هنتس، المكاييل، ص ٦٤، ٧٥.

٦٦- السنبل: مكيال شائع الاستعمال في بلاد الشام خلال العصور الوسطى، وكان يعادل في شيزر رطل ونصف او (٣,٢٠٦كغم) قمح او (٤,١٦ لتر)، لان الرطل الشيزري كان يساوي (٦٨٤) درهماً. انظر هنتس، المكاييل، ص ٦٣.

٦٧- الشيزري، الحسبة، ص١٧؛ هنتس، المكاييل، ص٧٩.

أما حلب، فاستعملت المكوك، وهو يزيد عن القفيز الشيزري بثلاثة سنابل، وبهذا يكون وزن المكوك (٦١كغم) على اعتبار ان رطل شيزر يساوي (٦٨٤) درهماً، وكل درهم يعادل (٣,٢٥غم). والمكوك المتعارف عليه في المعرة يماثل نظيره في حلب. كما استمرت دمشق تتعامل بالغرارة وكانت سعتها ثلاثة مكاكيك بالحلبي[٦٨].

هذا في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، أما في القرن الثامن والتاسع الهجري/الرابع عشر والخامس عشر الميلادي فكانت مكاييل بلاد الشام على النحو الآتي: استمرت الغرارة تستخدم لكيل الحبوب وكانت مقاديرها تختلف من مدينة لاخرى، ففي دمشق لم يطرأ عليها تغير إذ ظل وزنها ثابتاً وهو (٢٠٤,٥ كغم) تقريباً من القمح، أو حوالي (٢٦٥ لتراً)[٦٩]. أو (١٢) كيلاً[٧٠]. وربما زادت هذه الغرارة عن ذلك في المناطق البعيدة نسبيا عن دمشق، وفي غزة كانت غرارتها تساوي غرارة ونصف من غرائر دمشق أي حوالي (٣٠٦,٧٥كغم) قمح، أو (٣٩٧,٥ لتراً) تقريبا. كما قدرها القلقشندي بثلاثة ارادب مصرية[٧١]. اما غرارة القدس، فيبدو ان هنتس قد وقع في خطأ حين قدرها بحوالي (٦١٣,٥ كغم) قمح، أو (٧٩٥ لترا) تقريبا. على اعتبار ان الغرارة في القدس كانت اكبر من غرارة دمشق بثلاث مرات[٧٢]. لكن ابن قاضي شهبه يذكر في احداث جمادى الاخرة ٧٩٨هـ/ آذار(مارس) ١٣٩٥م أن غرارة القمح في القدس هي غرراتان بالدمشقي [٧٣]، أي حوالي (٤٠٨,١٠كغم) أو (٥٣٠ لتراً) تقريبا.

٦٨- الشيزري، الحسبة ص ١٧؛ هنتس المكاييل، ص ٧٩.

٦٩- هنتس، المكاييل، ص ٦٤.

٧٠- الكيل: اختلف مقدار الكيل من مدينة لاخرى، ففي دمشق كان الكيل الواحد = $\frac{1}{12}$ غرارة =١٧ كغم قمح أي حوالي (٢٢,٠٨ لتراً)، وفي حلب كان كيلها يساوي نحو (٦,٥٦لتر) تقريبا. انظر هنتس، المكاييل، ص ٧٠-٧١.

٧١- القلشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ١٨٨، ٢٠٥.

٧٢- هنتس، المكاييل، ص ٦٤.

٧٣- ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٣، ص ٥٨١.

أما حلب وطرابلس، فكان مكيالهما واحد وهو المكوك، وكان كل مكوكين ونصف يعادلان غرارة دمشقية أي (٨١,٢كغم) قمح تقريباً[٧٤] أو سبع ويبات[٧٥] بالمصري. وفي حماه استخدم المكوك كما في حلب لكنه كان يزيد عن مكوك حلب بربع مكوك، فكل مكوكين وربع فقط عادلا غرارة بالدمشقي[٧٦]. وبذا يكون وزن المكوك في حماه حوالي (٩٠,٥كغم) أو (١١٧ لتراً) تقريباً[٧٧].

وهكذا نلاحظ أن هناك اختلافاً واضحاً في مقادير المكاييل المستعملة في بلاد الشام خلال العصور الاسلامية المختلفة، فالمكوك المتعامل به في حلب مثلا في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ليس بنفس المقدار المستخدم في نفس حلب خلال القرن الثامن أو التاسع الهجري / الرابع عشر والخامس عشر الميلادي وان كان الاسم واحد. وهو في الوقت نفسه يختلف وزنه عن المكوك المتعامل به في حماه، بل ان المكوك المستخدم في مدينة حلب يختلف وزنه عن المكوك المستعمل في نواحي حلب وبلادها اذ يختلف «اختلافا متباينا في الزيادة والنقص»[٧٨].

وكذلك الحال يقال عن الغرارة الدمشقية فهي تختلف في مقدارها عما يباع في ارياف دمشق، إذ ربما تزيد أو تنقص عن الغرارة المستخدمة في نفس مدينة دمشق. وقد وضح ابن فضل الله العمري ذلك بقوله: «وفي بر دمشق ربما زادت... الغرارة على الدمشقي حتى يكثر تفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواضع، لكن كيل دمشق ... هو المعتبر واليه المرجع»[٧٩].

وما زال ريفنا الاردني يتعامل بالكيل والمد والصاع، كما يتسخدم الربعية وهي تعادل نصف صاع أو اربع ثماني، وهذه الاخيرة تمثل اصغر وحدة للمكاييل المتعامل بها في وقتنا الحاضر[٨٠].

٧٤- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ١٢٢-١٢٣، ٢٣٩؛ هنتس، المكاييل، ص ٧٩.

٧٥- الوَيبة: عادلت (١١,٦كغم) قمح، أو (١٥ لترا). انظر هنتس، المكاييل، ص٨٠.

٧٦- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٤٣.

٧٧- جبران، حماه، ص ٢٦٧.

٧٨- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٢٢٣.

٧٩- ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، جـ١، ص ١٥-١٦.

٨٠- غوانمة، عمان، ص ١٦٩.

رابعاً: المقاييس:

استخدمت بلاد الشام عدة أصناف من المقاييس[٨١]، لكن الذي يهمنا هنا هو المتعامل فيه بالأسواق، وهو الذراع[٨٢] المستخدم لقياس القماش والذي عرف «بذراع البز». وكان يختلف طوله من مدينة لاخرى شأنه في ذلك شأن الأوزان والمكاييل.

فذراع القماش في دمشق كان يزيد عن مثيله بالقاهرة[٨٣] بنصف سدس الذراع، وبذلك يكون طول هذا الذراع (٦٣,٠٣٥سم). وهو في الوقت نفسه ينقص عن ذراع حلب وحماه بقيراطين. اما ذراع حلب وحماه، فكان طول كل منهما يساوي (٦٧,٩٨سم)، وهما بذلك يزيدان عن ذراع القماش في القاهرة بسدس ذراع. كما تعادل طول ذراع البز في غزه مع نظيره في القاهرة أي حوالي (٥٨,١٨٧سم) تقريباً[٨٤].

أما ذراع طرابلس، فكان كل عشرة اذرع منه يساوي احد عشر ذراعاً مصرياً[٨٥]. وحسب النظام المتري كان طوله (٦٤ سم)، وهو يعادل تقريباً ذراع القماش في القدس حيث بلغ طول هذا الاخير (٦٤,٧٧سم)[٨٦].

٨١- لمزيد من التفاصيل انظر هنتس ، المكاييل، ص ٨٣-٩٣.

٨٢- الذراع: كلمة عربية تؤنث وتذكر وهي المسافة (ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى) أنظر: إبن منظور، لسان العرب، مادة ذرع.

٨٣- بلغ طول ذراع البز بالقاهرة حوالي ٥٨,١٨٧سم بناءً على ما ذكره القلقشندي انظر هنتس، المكاييل ص ٨٤.

٨٤- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ٤، ص ١٨٨، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٤٣؛ هنتس، المكاييل، ص ٨٥.

٨٥- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ٤، ص ٢٤٠.

٨٦- هنتس، المكاييل، ص ٨٦.

خامساً، وسطاء البيع والشراء (المنادي والدلال)،

جرت العادة ان تتم صفقات البيع والشراء في الأسواق الشامية بواسطة شخصين هما: المنادي والدلال (السمسار)[٨٧]. فالمنادي كان دوره يقوم على تعريف المشتري بالسلع المراد بيعها، ويأخذ في مقابل ذلك أجراً من بائع السلعة.

أما الدلال فعمله كان اوسع نشاطا من المنادي إذ يجمع بين البيعّين[٨٨] أي يتوسط بين البائع والمشتري على السلع المراد بيعها وشرائها في نفس الوقت. لذا كان يقدم الادلة على ان البضاعة جيدة وقيمة ليرغب المشتري فيها. ولم يكن ينجح بهذا العمل إلاّ من عرف اصول البيع والشراء، ولديه الفطنة والذكاء، وقد حذر ابو الفضل الدمشقي من هؤلاء وبخاصة من السمسارة الغشاشين بقوله: «يجب ألاّ يصدق لأحد من السماسرة قولا ولا يقبل لهم نصحاً، فإنها صناعة مبنية على الكذب ولو كان قد تقدم بينك وبينه أعظم صداقة وأكد جوار فإن الدلال تارة يصف البضاعة وجودتها ويباهت أهل الخبرة بها. وتارة يذكر قلتها وأنه لم يبق في البلد منها شيء يباع غير الذي تحت يده. وتارة يذكر أنها ستغلو ويرتفع سعرها. وتارة يذكر ان الراغبين إليه فيها كثير، وربما واطأ قوماً يأتون اليه بحضرة الزبون يطلبونها ويدفعون إليه العربون ويقيدونه. ألا ترى أن الوكلاء يرتبون في حلق البيع من يزيد في البضائع ويوهم الناس والتجار أنه مشتر، وذلك حيلة على الراغبين. ولا يتورعون عن هذا الفعل وإن كانوا ممن ينسب الى صلاح وأمانة، وذلك أنهم في صناعة الماهر عندهم فيها من باع بالزيادة وهم يفتخرون بهذا ويشتهون أن يشيع عنهم لأنه من أبواب المعيشة»[٨٩].

يتضح مما سبق أن الدلال الغشاش يسعى باكثر من وسيلة لترويج السلع وذلك بوصف البضاعة بما ليس فيها إما بالجودة، أو بالعكس. في الوقت الذي تكون فيه

٨٧- السمسار: كلمة فارسية معربة ومصدرها سمسرة. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سمسر؛ رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ٦ أجزاء، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م، جـ٦، ص ١٤٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دوزي، تكملة المعاجم؛ Omari, The Market Society, p.12.

٨٨- ابن منظور، لسان العرب، مادة دلل.

٨٩- أبو الفضل الدمشقي، محاسن التجارة، ص ٤٢.

البضاعة عكس ما يصفها السمسار. أو باذعة بيانات عن قلة السلع مع وجودها في السوق بكثرة، كما يلجأ إلى اذاعة بيانات كاذبة عن الأسعار. أو التعاون مع بعض السماسرة ليظهروا بانهم مشترون للبضاعة، والغرض من ذلك إيهام المشترين الحقيقين بان للسلعة زبائن كثر.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الدلالة ارتفع شأنها خلال العصر المملوكي، إذ اصبح يشغلها موظف بإمره أو بغير امره[٩٠]. ولمن يقوم بها أماكن معلومة فقد ذكر ابن صصري ذلك عند حديثه عن الحريق الذي شب في مدينة دمشق في ذي الحجة ٧٩١هـ/ تشرين ثان (نوفمبر) ١٣٨٩م، والذي اسفر عن حريق عدد من الأسواق، والتي كان من بينها حوانيت السماسرة الواقعة خارج باب الجابية[٩١].

لقد ترتب على السلطات المملوكية ان تهتم بهذه المهنة لما لها من دور بارز في تنشيط الحركة التجارية. لذا اصدرت قوانين تنظمها حيث اشترطت في المنادين والدلالين ان يكونوا اخياراً ثقاة من أهل الدين والامانة وصدق القول لانهم يتسلمون سلع الناس ويحملونهم الامانة في بيعها. وكان من الواجب عليهم إلاّ يزيدوا في ثمن البضاعة من انفسهم، ولا يكونوا شركاء للبائع ولا يشتروا البضاعة لأنفسهم، ولا يقبضوا ثمن السلعة من غير ان يوكلوا صاحبها في القبض، فقد كان بعضهم يذهب إلى البائع ويعطيه ذهبا على سبيل القرض، ويشترط عليه إلاّ يبيع شيئاً من سلعة إلاّ على يديه، وكان هذا النوع من المعاملات يعتبر حراما لأنه قرض جر منفعة[٩٢].

اما سماسرة العبيد والجواري والدواب والعقارات، فكان لهم الاخرين انظمة يسيرون عليها، فمن الصفات الواجب توافرها في دلالي العبيد والجواري الامانة والعفة والعدل لانهم يتعاملون مع الجواري والغلمان. علاوة على ذلك ينبغي على السمسار ان يسجل اسمه لدى المحتسب لئلا يكون المبيع حراً أو مسروقاً. ومن اراد شراء جارية سمح له ان ينظر إلى وجهها وكفيها، ولا يجوز له الخلوة بها إلاّ بعد ابرام

٩٠- ابن شاهين، زبدة الممالك، ص ١١٥.

٩١- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٣٥-٣٧.

٩٢- ابن الاخوة، الحسبة، ص ١٣٥-١٣٦.

العقد، واذا اراد شراء غلام فيحق له ان ينظر إلى ما فوق السرة ودون الركبة وذلك لكي يخبر المشتري إذا كان في الغلام عيب أو علّة. ولا ينبغي له ان يفرق بين الجارية وولدها. في الوقت نفسه لا يجوز بيع الجارية أو المملوك إذا كانا مسلمين لاحد من أهل الذمة، كما يحرم عليه بيع الجارية لاستخدامها في الغناء[٩٣].

وعلى سماسرة الدواب إلاّ يبيعوا دابة حتى يعرفوا البائع أو يستدلوا على من يعرفه. ويكتب اسمه عند المحتسب لئلا تكون تلك الدابة فيها علّة أو مسروقة، واذا وجد فيها عيب اخبر المشتري بذلك[٩٤].

أما سماسرة العقارات، فعليهم ان لا يبيعوا ما يشك فيه انه خرج عن يد مالكه «بكتابة تحبيس أو كتاب اقرار أو رهن ولا شبهة ولا لصبي ولا ليتيم إلاّ بإذن وصية .... فمن خالف هذا صرف من جملة الدلاّلين»[٩٥].

ومن الملفت للنظر اخيراً ان مهنة بعض الدلاّلين كانت متوارثة في أسر معروفة ومشهورة لها خبراتها ومعارفها في هذا المجال، بدليل وجود اسم الاب والابن على بعض الوثائق المتعلقة ببيع وشراء الخيول خلال العصر المملوكي[٩٦].

٩٣- المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٥٣.

٩٤- المصدر نفسه، ص ١٥٣.

٩٥- المصدر نفسه، ص ١٥٣.

٩٦- أمال العمري، دراسة لبعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات العربية، م١٠، جـ ٢، نوفمبر، ١٩٦٤م، ص ٢٣١-٢٤٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العمري، وثائق بيع وشراء خيول.

سادساً: الأسعار:

يواجه الدارس للأسعار في بلاد الشام خلال العصر المملوكي صعوبة في معرفة جميع اثمان السلع التجارية المعروضة للبيع في الأسواق. إلاّ ان هذا لا يعني اغفال الموضوع وعدم بحثه بجميع جوانبه. فالاشارات الواردة في بعض المصادر تذكر ان أسعار بلاد الشام بشكل عام تكاد تماثل أسعار مصر في بعض السلع مثل القمح والشعير والباقلاء، لكن سعر الدجاج والاوز والسكر اغلى في بلاد الشام عن نظيره في مصر. في حين كان ثمن اللحم والفواكه في بلاد الشام ارخص من مصر[٩٧]، فالبدري يذكر مثلا انه اشترى رطلاً من فواكه دمشق بربع درهم، ومثله الرطل الدمشقي من المشمش والتفاح. كل ذلك يؤكد رخص أسعار الفاكهة بدمشق[٩٨].

اما إذا حاولنا مقارنة أسعار بلاد الشام مع غيرها من الاقطار الاخرى، فسوف يتضح لنا ان أسعار بلاد الشام كانت مرتفعة، فابن بطوطة يذكر ان أسعار المغرب ارخص من أسعار بلاد الشام ومصر[٩٩]. كما ان القلقشندي يؤكد ذلك من خلال مقارنته لأسعار مملكة توران بايران وأسعار بلاد الروم مع الشام. ففي الأولى يقول: «واما اسعارها فأسعارها جميعها رخية حتى إذا غلت الأسعار فيها اعلى الغلو، كانت مثل ارخص الأسعار بمصر والشام». وبمثل ذلك تحدث عن بلاد الروم حيث قال: «وبالجملة فبلاد الروم إذا غلت واقحطت كانت كسعر الشام إذا اقبل وأرخص»[١٠٠].

هذا في الاحوال العادية، اما في الظروف غير الطبيعة فكانت أسعار السلع تشهد تذبذباً في ثمنها، إذ ترتفع أسعارها عن المعتاد. ويعزي المقريزي اسباب هذا الإرتفاع لعوامل طبيعية واخرى غير طبيعية. فالعوامل الطبيعية كعدم نزول الامطار «او آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها، أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك». اما العوامل غير الطبيعية فمنها احتكار الدولة للاقوات، ووجود

٩٧- القزويني، آثار البلاد، ص ١٨٩؛ ابن فضل الله العمري، ممالك الشام، ص ٢٦؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ ٤، ص ١٨٨.

٩٨- البدري، نزهة الأنام، ٤٨-٤٩.

٩٩- ابن بطوطة، الرحلة، جـ ٢، ص ٧٥٨.

١٠٠- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٤٤٤، جـ٥، ص ٣٣٩.

موظفين يتولون مناصبهم بالرشوة، كالمحتسب الذي تقع عليه مسؤولية مراقبة الأسعار، وغلاء الاطيان[١٠١]، ورواج الفلوس، والعملة الرديئة[١٠٢]. علاوة على كثرة المكوس والضرائب [١٠٣]، وظروف الحرب، أو خطر القرصنة، أو عدم وصول السفن المحملة بالبضائع في وقتها المتوقع لها، أو وصول سفن غيرمتوقعة[١٠٤].

وفيما يلي سنستعرض كل سبب من هذه الاسباب وغيرها على حدة، وعلاقة ذلك بإرتفاع الأسعار.

أ- العوامل الطبيعية:

١- القحط والجفاف:

اعتمدت بلاد الشام اعتماداً يكاد يكون كليا على نزول الامطار في زراعة اراضيها، وبخاصة زراعة الغلال، وان أي انقطاع لنزول الامطار كان ينتج عنه بطبيعة الحال إرتفاع في الأسعار وخاصة أسعار القمح والشعير. لانهما الغذاء الاساسي للانسان والحيوان على السواء.

ففي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م عم القحط مختلف بلاد الشام حتى وصل ثمن غرارة القمح إلى مئتين وعشرين درهماً، وغرارة الشعير إلى اكثر من مئة درهم، ورطل اللحم إلى عشرة دراهم، والفاكهة إلى اربعة امثالها[١٠٥]. وتكرر نفس السبب ببلاد

١٠١- غلاء الاطيان ويقصد بها الارض الزراعية وارتفاع اجرتها وظلم الفلاحين لغلاء سعر البذار فالارض تحكم بها ارباب السلطة حيث رفعوا اجرة الارض على الفلاحين زيادة عشرة امثالها مما كانت عليه قبل سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م انظر محمد عيسى صالحية، الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، بحث لم ينشر، ١٩٩١م، ص ٤٠-٤١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: صالحية، الطرح والرمي.

١٠٢- المقريزي، اغاثة الامة، ص ٧٨-٨٤.

١٠٣- ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٠؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٥، ٢٣٩.

١٠٤- د.س. جواتياين، دراسات في التاريخ الاسلامي، تعريب وتحقيق عطيه القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص ٢٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: جواتياين، دراسات في التاريخ.

١٠٥- الذهبي، ذيول العبر، جـ ٣، ص ٣٨٥؛ المقريزي، اغاثة الامة، ص ٧٠.

الشام سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م[١٠٦] و ٧٤٨هـ/١٣٤٧م وفي هذه الاخيرة بيع رطل الزيت باربعة دراهم ونصف، ومثله الشيرج والصابون والارز، كما وصل سعر غرارة القمح بدمشق إلى ثلاثمائة درهم. بل ان الحال وصل باهل حوران مصدري القمح للذهاب للمناطق البعيدة لجلب القمح للمؤنة والبذار، وإذا سافر أحد منهم يصعب عليه تحصيل الماء لنفسه ولدابته لان المياه التي في الطرقات كلها نفذت[١٠٧].

كما تكرر الغلاء في بلاد الشام بسبب الجفاف في الاعوام التالية: سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م [١٠٨] و٧٧٧هـ / ١٣٧٥م و٧٨٢هـ / ١٣٨٠م[١٠٩] و٧٨٨هـ/١٣٨٦م[١١٠] ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م[١١١] و٧٩٠هـ / ١٣٨٨م و ٧٩٧هـ/١٣٩٤م و ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م[١١٢] و٧٩٩هـ / ١٣٩٦م[١١٣] و٨٠٠ / ١٣٩٧م [١١٤]، و٨٠٧هـ / ١٤٠٤م[١١٥] و ٨١٨هـ / ١٤١٥م[١١٦] و٨٧٣هـ / ١٤٦٨م[١١٧] و٨٩٦هـ / ١٤٩٠م [١١٨] و ٩٠١هـ / ١٤٩٥م[١١٩] و ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م و ٩١٧هـ/ ١٥١١م و٩١٨هـ/١٥١٢م و٩٢١هـ/١٥١٥م[١٢٠].

١٠٦- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ق ٣، ص ٧٢١.

١٠٧- أبو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١٥٠-١٥١؛ ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٣٥.

١٠٨- المقريزي، السلوك، جـ٢، ق٣ ، ص ٩٠٢.

١٠٩- ابن حجر، انباء الغمر، جـ١، ص ١٥٥، جـ ٢، ص ١٥؛ ابو المحاسن، النجوم، جـ ١١، ص ١٣٦.

١١٠- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص١٨٣.

١١١- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٥٦٢، أبن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ١٥٣.

١١٢- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ ٣، ص ٢٣٨، ٥٤٤، ٥٨١-٥٨٢.

١١٣- ابن الفرات، تاريخ الدول، م٩، جـ ٢، ص ٤٦٢؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٨٧٧.

١١٤- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ٦٤٨.

١١٥- ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٥، ص ٢١٨-٢١٩.

١١٦- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق١، ص ٣٣٠.

١١٧- البصروي، تاريخه، ص٣٤-٣٦؛ العليمي، الأنس، جـ٢، ص٢٨٥.

١١٨- العارف، المفصل، جـ١، ص ٢١٤.

١١٩- البصروي، تاريخه، ص ١٦٩.

١٢٠- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٣٩، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٨٠.

ومن الملفت للنظر ان ما ذكرناه سابقا عن الغلاء الناتج عن شح الامطار لم يكن دائما يعم جميع مدن بلاد الشام، فقد يحدث في حلب دون دمشق، أو دمشق دون القدس أو الكرك، وعلى سبيل المثال ذكر المقريزي في ربيع الآخر ٨٢٥هـ/ آذار(مارس) ونيسان(إبريل) ١٤٢٢م ان «اجدبت اراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في اوانة ونزح كثير من سكان هذه البلاد من اوطانهم، وقلت المياه عندهم، ومع هذا ففي بلاد حلب وحماه ودمشق وبلاد الساحل كلها رخاء من كثرة الامطار التي كانت عندهم»[١٢١].

٢- الفأر والجراد:

ان من العوامل الرئيسة لإرتفاع الأسعار، هو ظهور الفأر والجراد لما يسببان من أكل للمزروعات، وما يؤدي ذلك من نقص للسلع الزراعية من الأسواق، مما ينتج عن ذلك إرتفاع في أسعارها. ففي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م خرج الفأر على الغلال في أرض حوران والجولان ونواحيهما، فأكل من الغلال ثلاثمائة الف غرارة قمح عدا عن الشعير، وقد سبب ذلك إرتفاعاً في أسعارها، حيث وصل سعر مكوك الحنطة إلى اربعمائة درهم[١٢٢]. كما ظهر الفأر ببلاد الشام سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، وكان اكثره في غزة والرملة وبيت المقدس، فادى ذلك لغلاء في أسعار الحبوب إذ بلغ ثمن الغرارة الشامية إلى أكثر من عشرين ديناراً[١٢٣].

١٢١- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق٢، ص ٦٠٩.

١٢٢- العيني، عقد الجمان، احداث (٦٤٨-٦٦٤هـ) ص ٣٢٣؛ ابو المحاسن، مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة والخلافة، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الاردنية رقم (٢٢٣)، وهو صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة برينستون، مجموعة لاندبيرج، تحت رقم (٥٩٧)، ورقة ب ٦٠-٦١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو المحاسن، مورد اللطافة.

١٢٣- العيني، عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان (احداث ٨٢٤-٨٥٠هـ) تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: العيني، عقد الجمان احداث (٨٢٤-٨٥٠هـ)؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ٧١.

أما الجراد، فتأثيره اكبر من الفأر إذ لم يقتصر اكله على الحبوب فحسب بل اكل مختلف المزروعات الحقلية والشجرية، ففي شوال ٧٠١هـ/ حزيران(يونيو) ١٣٠٢م جاء إلى دمشق قفل من الجراد اكل الزرع والثمار، وجرد الاشجار من اوراقها حتى اصبحت مثل العصي[١٢٤]. ثم عاد إلى بلاد الشام في الاعوام التالية سنة ٧٢٤ هـ /١٣٢٣م [١٢٥] ٧٤٢هـ/١٣٤١م[١٢٦] و ٧٤٣هـ/١٣٤٢م و ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م[١٢٧] و ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م [١٢٨] و ٧٥٦هـ/١٣٥٥م[١٢٩] و٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م [١٣٠] و ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م[١٣١] و ٧٧٠هـ/١٣٦٨م [١٣٢] و ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م[١٣٣] و٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م و٨١٣هـ/ ١٤١٠م[١٣٤] و٨٨٥هـ/ ١٤٨٠ و٨٨٨هـ/١٤٨٣م و٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م[١٣٥].

وهكذا نلاحظ ان الجراد قد اجتاح بلاد الشام اكثرمن مرة، وقد سبب ذلك إرتفاعاً واضحاً في غلاء الأسعار، ففي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م تعرضت بلاد الشام لاسراب من الجراد انتشرت ما بين بعلبك والبلقاء، حيث اكلت الزرع والشجر، ونتج عن ذلك إرتفاع في الأسعار، حتى وصل ثمن غرارة القمح بدمشق إلى مئتين وخمسين درهما [١٣٦].

١٢٤- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٠.

١٢٥- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ق١، ص ٢٥٤.

١٢٦- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ١٣٧.

١٢٧- المقريزي، السلوك، جـ ٢، ق٣، ص ٦٢٢-٦٢٣، ٧٠٢-٧٠٣.

١٢٨- ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ ٢، ص ٤٩٠.

١٢٩- الذهبي، ذيول العبر، جـ ٤، ص ١٦٧.

١٣٠- ابن كثير، البداية، جـ ١٤،، ص ٣٢٢-٣٢٤.

١٣١- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق٢، ص ١٩.

١٣٢- القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١، ص ٥٢٤.

١٣٣- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص٣.

١٣٤- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص١٠٦٤-١٠٦٥، جـ٤، ق١، ص١٣٢.

١٣٥- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص١٦، ٦١، ١٠٥، ١٠٧.

١٣٦- المقريزي، السلوك، جـ٢، ق٣، ص ٧٢٨.

٣- الصواعق والصقيع والرياح:

كان من العوامل المؤثرة في الأسعار اصابة المزروعات الشامية بالصواعق أو الصقيع أو الرياح الشديدة التي تقلع الاشجار. ففي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م تعرضت المزروعات في بلاد الشام لصاعقة احرقت الاشجار، واهلكت الثمار[١٣٧]. كما وقع بجبال طرابلس وعكا صاعقة في صفر سنة ٧٤٠هـ/آب (اغسطس) ١٣٣٩م، اسفرت عن حريق الأشجار وإتلاف ثمارها[١٣٨].

ولم يقل اثر هذا عما احدثه الصقيع من خراب لمزروعات بلاد الشام فموجة البرد القارص كان لها تأثير سلبي على الثمار، حيث تسبب في اتلافها، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م اصاب دمشق برد قارص وجليد، نتج عنه هلاك الخضروات، وفساد الفواكة المخزنة في المستودعات[١٣٩]، كما ذكر ابن قاضي شهبة صقيعاً آخر وقع ببلاد الشام في رجب/نيسان (أبريل) ٧٩٩هـ/١٣٩٧م حيث أتلف اللوز، والجوز، والمشمش، والكروم، والهليون وغير ذلك. ولم يسلم منه عدا عن بعض الاماكن المرتفعة، لذا حصل لاهل الصحراء مصيبتان، الأولى فساد زرعهم بسبب شح المياه، والثانية هلاك ثمارهم نتيجة لهذه الصقعة[١٤٠].

وتكرر نفس المشهد خلال شهر جمادى الأولى ٨٢٨هـ/آذار (مارس) ١٤٢٥م إذ تعرضت بلاد الشام لموجة برد شديدة نتج عنها الحاق الضرر بعامة فواكه بلاد الشام، حيث اتلفت الكروم وغيرها من المزروعات[١٤١].

أما الرياح الشديدة، فلم تقل خطورتها عن العوامل السالفة الذكر، حيث تسببت في اقتلاع الاشجار وتكسيرها، وبالتالي حدوث غلاء في ثمارها، ففي ربيع الأول ٧١٧هـ/أيار (مايو) ١٣١٧م اجتاحت حلب ونواحيها رياح شديدة اسفرت عن

١٣٧- ابن كثير، البداية، جـ١٣، ص ٢٦٩؛ العيني، عقد الجمان احداث (٦٦٥-٦٨٨) ص ٥١.

١٣٨- الذهبي، ذيول العبر، جـ٤، ص١١٦.

١٣٩- اليونيني، ذيل الزمان، جـ ٤، ص ٩٨.

١٤٠- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ ٣، ص ٦١٣.

١٤١- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ٦٨٤.

اقتلاع كثيرمن الاشجار كالزيتون والبلوط وغيرها. كما اهلكت من كان في طريقها من المسافرين، وخربت عدة قرى حيث قتلت من بها من الناس والدواب[١٤٢].

كما هبت ريح شديدة في شعبان سنة ٨٤١هـ/ كانون ثانٍ (يناير) ١٤٣٨م على نواحي طرابلس واللاذقية وحماه وحلب وحمص، وقد استمرت عدة ايام فاتلفت من الزرع والشجر ما لا يدخل تحت الحصر[١٤٣].

٤- الطواعين والزلازل والسيول:

ما دمنا قد تحدثنا عن العوامل الطبيعية واثرها في الأسعار فلا ينبغي ان نغفل الطواعين و الزلازل والسيول بل أن أبو الفضل الدمشقي قد عدّ هذه العوامل من الاسباب المباشرة في إرتفاع الأسعار حيث قال عن إرتفاع سعر السوق: «ثم زاد سعره بسبب ... إحدى الجوائح السماوية أو الأرضية»[١٤٤].

فالطواعين والزلازل سببان في موت اعداد كثيرة من الناس، ونتج عن ذلك ضعف بالنشاط الاقتصادي، إذ لا تجد الارض من يزرعها أو يصنع السلع أو ينقلها، مما كان يعود سلبياً على الأسعار حيث يؤدي إلى عدم استقرارها. اما السيول، فلم تقل ضراوة عما سبق ذكره من العوامل السابقة، فهي لا تكتفي بجرف المزروعات، بل كانت تقطع الطرقات على التجارة مما أدى بالتالي إلى تعذر وصول السلع إلى الأسواق، حيث نتج عن ذلك غلاء في أسعار السلع المتوقع وصولها، وقد ذكر ابن ايبك الدواداري مثالا على ذلك ففي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م «انقطع الجلب بسبب الوحل لكثرة الامطار ووقع الغلاء الزايد حتى بلغ الحمل التبن الذي اكثره تراب لا ينتفع به اربعين درهما وخمسين درهما ولا كان يحصل إلاّ بالدبابيس وأي من قوي اخذه ولم يقدروا على الوصول إلى دمشق البتة»[١٤٥].

١٤٢- مغلطاي، سلاطين مصر والشام، ورقة ١٨١؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ ٢، ص ٨٠-٨١.

١٤٣- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ١٠٢٨؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٤٠١.

١٤٤- أبو الفضل الدمشقي، محاسن التجارة، ص ١١.

١٤٥- الدواداري، كنز الدرر، جـ ٩، ص ٤٥-٤٦.

ب- العوامل البشرية:

١- احتكار الدولة للسلع:

حرص معظم السلاطين والامراء المماليك على جمع الثروة بشتى الوسائل، إذ لم يتركوا بابا إلاّ وطرقوه، مرة بفرض ضرائب جديدة، وأخرى من خلال زيادة مقادير هذه الضرائب، أو برفع قيمة المكوس، كما لجأوا احيانا إلى المصادرات، وغير ذلك من الوسائل الكفيلة بايصالهم إلى زيادة مدخولاتهم وسد نفقاتهم المرتفعة.

وقد كان تدخل بعض السلاطين المماليك بالتجارة واشتغالهم بها احدى الركائز الرئيسة والمباشرة لجمع المال، لكن ذلك كان على حساب الدولة وازدهارها حيث سبب تراجعاً في الاقتصاد المملوكي بشكل خاص وانهيار الدولة بشكل عام، فقد حذر أبو الفضل الدمشقي منذ اواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي من الاثار السلبية المترتبة على عمل السلطان بالتجارة وذلك بقوله: «اذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا، وان شاركوه في حمل السلاح هلك»[١٤٦]. لذا كان لكل واحد عمله الخاص به وواجبه المناط به، فعمل السلطان بالتجارة تلهيه عن النظر في امور المسلمين مما قد ينتج عنها أمور لا تحمد عقباها.

وبالرغم من ذلك كله فإن السلاطين والامراء المماليك قد عملوا بالتجارة وعرفت تجارتهم «بتجارة الخاص». ولكي تكون تجارتهم مربحة اكثر فقد احتكروا كثيراً من السلع التجارية مثل القمح والسكر والزيت والقطن والبهار والفلفل، حيث اشرفوا على تسويقها وتحديد أسعارها. ولأجل ان تبقى أسعار هذه السلع باهظة الثمن فقد خزن السلاطين والامراء المماليك كميات كبيرة منها في مستودعاتهم مما قلل بالتالي من تواجدها بالأسواق، ونتج عن ذلك إرتفاع في أسعارها[١٤٧].

ولم يقتصر الامر على هذا بل انهم دعموا تجارتهم باسلوب الطرح والتحكير أو التحجير. فالطرح يقوم على اجبار التجار شراء السلع التي تملكها أو تصنعها الدولة بسعر يزيد عن سعر السوق. ويخالف رغبة المشتري[١٤٨]. اما التحكير فيقوم

١٤٦- ابو الفضل الدمشقي، محاسن التجارة، ص ٣٩.

١٤٧- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٢-١٨٣؛ لبيب، التجار الكارمية، ص ٤٢-٤٥.

١٤٨- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٤١٢؛ لابيدوس، مدن الشام، ص ١٠٢.

على اجبار التجار ببيع سلعهم المستوردة في مكان معين يسمى الحكر مثل حكر النعناع، وحكر السماق، وبيع الفحم في خان الليمون بدمشق[١٤٩].

لقد عرف اسلوب الطرح قبل المماليك، ففي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م طرح الملك الناصر بحماه على الرعية اغناما وغلة ما يقارب من خمسة آلاف مكوك باعلى الأسعار [١٥٠]. لكن في العصر المملوكي ازداد اكثر بحيث استخدم السلاطين والامراء المماليك لذلك من هم على خبرة في مراقبة الأسواق التجارية، علاوة على معرفتهم باساليب الاحتكار، كالسماسرة، أو بعض التجار الذين تحولوا إلى تجار مأجورين عند السلطان أو الضمان، بالاضافة إلى استخدام بعض صغار الاعوان مثل الكيالين والنواتية [١٥١].

وكانوا يتبعون في تنفيذ هذه السياسية الطرق التعسفية، كالضرب مثلاً، ففي رمضان ٧٦٢هـ/ تموز (يوليو) ١٣٦١م احضر جماعة من التجار إلى دار العدل خارج باب النصر لاجبارهم على شراء القند والفولاذ والزجاج مما كان يوجد بمستودعات الامير يلبغا، وعندما رفض التجار الرضوخ لهذا القرار، خوفا من استعادة السلع منهم بسعر اقل مما سيشتروه، ضرب بعضهم[١٥٢].

يتضح من هذه الحادثة ان الهدف من عملية الطرح هو جمع الاموال بشتى السبل، وبغض النظر عن العواقب المترتبة على ذلك. لقد أضر الطرح بالدرجة الأولى بعامة الناس الذين ازدادوا فقرا بسبب الإرتفاع المتواصل في الأسعار. فقد ذكر ان ابن الطبلاوي طرح في صفر ٨٠٢هـ/تشرين أول (اكتوبر) ١٣٩٩م على أهل دمشق السكر المتحصل من الاغوار بحيث ان الطرح شمل الفقهاء ونقباء القضاة، واهل الغوطة، فتنكرت القلوب على النائب بسبب ذلك وكثر الدعاء على من له ضلع في ذلك [١٥٣].

١٤٩- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ٣٤٥؛ صالحية، الطرح والرمي، ص ٢.

١٥٠- ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، تحقيق ابو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق ١٩٨١م، ص ١٥٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري.

١٥١- صالحية، الطرح والرمي، ص ٥.

١٥٢- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٩٦.

١٥٣- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق٢، ص ٥٥٦.

ومن السلع التي شملها الطرح بالاضافة إلى ما سبق مادة القطن[١٥٤]، والقماش، والفلفل، والزيت، والغلال بانواعها من قمح وشعير وفول وحبوب أخرى، فضلا عن كثير من الصناعات. ففي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م وصلت إلى دمشق شحنة من الاقمشة الصوفية قادمة من قبرص، حيث طرحت فيها، وكانت هذه الصفقة تشتمل على ثمانمائة ثوب فطرح الثوب على التجار بـ (١٨) ديناراً، علاوة على دينار كلفة أجور ليصبح بعد ذلك ثمنه (١٩) ديناراً، وعندما باعها التجار لم يتجاوز ثمن أفضل ثوب عن (١٢) ديناراً، لذا خسر كل ثوب سبعة دنانير[١٥٥].

وبعد سبع سنوات طرح على التجار بالقاهرة ودمشق الف حمل فلفل بقيمة مائة الف دينار، على حساب ان على كل حمل مائة دينار فنزل بالتجار جراء ذلك بلاء لا يوصف [١٥٦]. اما الزيت فحرصت الدولة على تحصيله من اماكن انتاجه، وطرحه في المناطق التي بحاجه اليه، وكانت تعدّ نابلس من اكثر المناطق انتاجا لمادة الزيت فكان يحصل عليه بسعر لا يزيد عن التسعة دنانير للقنطار الواحد، ويعاد طرحه على تجار صناعة الصابون أو على ارباب صناعة الصابون، ويكون بالسعر الجاري بالأسواق[١٥٧].

وظل الوضع على هذا الحال حتى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م حيث كان الزيت يرمي على أربابه في القدس والرملة، ويحضر احد الامراء لقبض ثمنه، وفي العام المشار اليه سعى بعض النواب مثل دقماق في رمي الزيت على جميع اهالي القدس كافة، وقد كان له ما اراد إذ بيع قنطار الزيت بـ (١٥) ديناراً ذهباً، ولعل ذلك يعود لحقد النائب بسبب كشف حساباته من قبل السلطنة سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، وقد تمكن من جمع اكثر من عشرين الف دينار، وكانت خسارة الناس أكثر من الثلثين، فالسعر الاجباري يساوي (١٥) ديناراً ذهباً للقنطار الواحد، ويبيعونه بمئتين وخمسين درهما فضة، ومثقال الذهب الطيب كان سعره دون الخمسين[١٥٨].

١٥٤- دهمان، ولاة دمشق، ص ٢٨٨.

١٥٥- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ٧٩١-٧٩٢؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ١٤٦.

١٥٦- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ٩٧٢؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ٣٤٦،

١٥٧- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٣٥٦.

١٥٨- المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٣٥٦-٣٥٨.

وقد نتج عن ذلك هروب اهل القدس منها واغلاق حوانيتهم ودكاكينهم، ولكن السلطة لم تتوقف عن ذلك بل وسعت الأسواق لتشمل بالاضافة إلى القدس كلاً من الخليل والرملة وغزة، ففي ١٠ ربيع الأول ٨٩٧هـ/ كانون الثاني ١٤٩٢م حضر مرسوم الامير اقبردي الدوادار بشأن زيت نابلس ورميه على تجار مصانع الصابون دون العامة، وبالفعل اعدت القوائم باسماء تجار وصناع الصابون ورمي عليهم الزيت، والزم اليهود والنصارى أيضاً فرمى على القدس مائة واربعة وثلاثون قنطاراً، وعلى الخليل مائة وستون قنطاراً، وعلى غزة الف قنطار، وعلى الرملة جانبا لم يحدد وقبض ثمنه [١٥٩].

وفي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م ورد السيفي علان بمرسوم لرمي الزيت على القدس والخليل وغزة والرملة على ما جرت به العادة، فاجبرت القدس والخليل على اخذ تسعمائة قنطار من الزيت، واجبرت الرملة على اخذ مائتي قنطار، واضيف ثلاثمائة قنطار اخرى على تجار القدس بالسعر المفروض وقدره خمسة عشر ديناراً مع زيادة دينار اضافي [١٦٠]، ربما كان عبارة عن ضريبة للعاملين.

ولم تتوقف رمايات الزيت عند هذا الحد، بل الزم نائب القدس التجار والناس أيضاً بكيمات الزيت المطروحة عليهم في العام التالي، وكاشف الرملة هو الاخر، طلب تجار الزيت وصناع الصابون ورمى عليهم الزيت بأسعاره الذي يكلف خسائر فادحة [١٦١].

ومن جهة أخرى فإن الصناعات القائمة على الزيت لم تفلت من سياسة الطرح أو الرمي، وتظهر هذه واضحة في طرح الصابون، فقد شملتها المبيعات القسرية، ففي سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م احتكر احد امراء حلب سوق الصابون حيث اجبر جميع مصنعيه على بيع الصابون له فقط، ومن ثم باع الكميات المتوفرة عنده بشروط خاصة. ولم يتوقف هذا بالرغم من المرسوم الذي اصدره السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، حيث استمر البيع القسري ساري المفعول[١٦٢].

١٥٩- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٦٥-٣٦٦.

١٦٠- المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٧٣-٣٧٤.

١٦١- المصدر نفسه، جـ٢، من ٣٧٤.

١٦٢- ابن الجيعان، القول المستظرف، ص ٧٠؛ لابيدوس، مدن الشام، ص ١٠٤.

وهكذا نلاحظ ان الطرح والتحكير كانا اسلوبين مختلفين، والغاية منهما واحدة، وهي الحصول على الاموال لسد نفقات الدولة المتزايدة، من عمران، وتكاليف عسكرية، وغير ذلك من أوجه الانفاق المختلفة.

لقد اسفرت هذه السياسة عن اشتطاط واضح في الأسعار حيث تضاعف سعر السلعة عدة مرات عن ثمنها المعتاد قبل الرمي أو التحكير، ولنضرب مثلاً على ذلك، ففي سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م تمكن احد امراء البرداربة في دمشق من احتكار مؤن اللحوم بشرائه جميع الاغنام المتوفرة في الأسواق، واصبح يتولى أمر الذبيحة، فنتج عن ذلك إرتفاع في أسعار اللحوم حتى بلغ ثمن الرطل الواحد ثمانية دراهم، بعد ان كان بدرهمين ونصف [١٦٣].

هذه الحادثة تبين مدى إرتفاع الأسعار، حيث ارتفع سعر قنطار اللحم بمعدل ثلاثة اضعاف ما كان عليه قبل الاحتكار، وبالتالي انعكس أثر ذلك سلبياً على المستهلك.

كما اثر في الأسعار تلك الاجراءات والمصاعب التي وضعتها السلطة المملوكية امام استيراد السلع التجارية من الخارج، وذلك اما بزيادة نسبة المكوس على البضائع الداخلة لاراضيها، أو بتوقيف الاستيراد نهائيا، وهذا الاجراء كانت تعمد اليه في حالة كساد سلع السلطة في الأسواق. ومثل ذلك حدث في محرم ٨٣٠هـ/ تشرين ثان (نوفمبر) ١٤٢٦م حيث اجبر التجار العازمين على السفر من مكة إلى الشام بالاتجاه إلى مصر ليؤخذ منهم المكس، «وحتى يباع بالشام متجر الديوان فاصابتهم (أي التجار) بذلك بلايا عديدة» [١٦٤].

ومن جهة ثانية فقد اتبعت السلطة المملوكية سياسة تصديرية اسهمت في بعض الاحيان عن رفع الأسعار، كالتركيز على تصدير سلعة معينة بحيث يقل وجودها في الأسواق، ففي سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م صدر من بلاد الشام أكثر من عشرين الف رأس غنم إلى مصر، كما صدرت في السنة التالية ستة وثلاثون الف رأس من الغنم. ثم

١٦٣- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٢٢؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٢٤.

١٦٤- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق٢، ص ٧٣٥.

جرت العادة بعد ذلك ان تصدر بلاد الشام إلى مصر نفس الكمية الاخيرة، وقد نتج عن ذلك إرتفاع في أسعار اللحوم حتى اصبح رطل اللحم يباع في دمشق بستة دراهم [١٦٥].

يتضح مما تقدم ان السلطة المملوكية اصبحت المؤثرة في الأسعار، بل والمسيطرة على الأسواق، فسلعها التجارية صارت هي النافقة بالأسواق بالرضا ام بالاجبار، مما جعلها في نهاية المطاف العامل الأكبر والمؤثر في إرتفاع الأسعار لجني أكبر قدر ممكن من الارباح المكتسبة على حساب المستهلك.

٢- النقود:

تعدّ النقود المتداولة في الأسواق من العوامل الرئيسة في ثبات الأسعار أو تذبذبها، فخلال المائة والثلاثين عاما من قيام الدولة المملوكية لم تحدث ازمة نقدية ادت إلى إرتفاع الأسعار باستثناء حادثة واحدة ذكرت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، حيث ارتفعت الأسعار بجميع السلع من المأكل والملبس وغيرها، فوصل ثمن رطل الخبز إلى درهم ونصف، ورطل اللحم إلى خمسة دراهم، واوقية القنبرس إلى درهم، والجبن إلى درهمين، واوقية الثوم إلى درهم، ورطل العنب إلى درهمين. وكان من أهم اسباب هذا الغلاء هو ما احدثه الفرنج من ضرب الدراهم المغشوشة المعروفة باليافية، حيث احتوت كل مائة منها على خمسة عشر درهما فضة، والباقي نحاس [١٦٦].

وعدا عن هذه الحادثة لم تذكر المصادر التاريخية أي زيادة في الأسعار كانت اسبابها النقود، فدور الضرب كان لديها مخزون كاف من المعادن الثمينة، وبمقدورها سك كميات كبيرة من الدنانير والدراهم بنوعيات ممتازة[١٦٧].

١٦٥- النعيمي، الدارس، جـ ١، ص ٥٠١-٥٠٢.

١٦٦- ابو شامه، الذيل، ص ٢١١؛ اليونيني، ذيل المرآه، جـ١، ص ٣٧٦-٣٧٧.

١٦٧- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٠.

وبعد المائة والثلاثين سنة برزت ظاهرة جديدة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ألا وهي اختفاء العملات الفضية من الأسواق، فمخزون الفضة في دور السك بدأ بالتناقص منذ حوالي سنة ٨٧٢هـ/١٣٨٠م[١٦٨]، بسبب استخدام الصناع للفضة في صناعة المجوهرات والاواني[١٦٩]. كما قل وصول الفضة إلى بلاد الشام ومصر لشدة الطلب عليها في اوروبا، ولم يقتصر الامرعلى هذا الحد، بل ان كثيراً من تجار اوروبا عملوا على سحب الدراهم الفضية من الأسواق،حيث نقلوها معهم إلى اوروبا لزيادة الطلب عليها [١٧٠].

ولكي تحافظ السلطة على استقرار التعامل بالدرهم الفضي فقد عملت على انقاص نسبة الفضة المسكوكة بالدراهم، ففي ربيع الاول ٨١٥هـ/ حزيران (يونيو) ١٤١٢م سك الامير نوروز دراهم بدمشق كان نصفها فضة، والنصف الاخر نحاساً، في الوقت نفسه استمر التعامل بالدراهم السابقة والتي احتوت على ١٠٪ فقط فضة والباقي نحاس، فادى هذا إلى إرتفاع سعر الذهب من خمسة وعشرين درهما إلى خمسة وخمسين درهما لكل دينار[١٧١]، الامر الذي ادى الى نقص كبير في القيمة الشرائية للدينار.

ففي السابق كان يتوجب على من يريد شراء بضاعة ثمنها اربعة دنانير دفع مبلغ مائة درهم. أما الآن فعلى مشتري نفس البضاعة دفع مئتين وعشرين درهما، الامر الذي عرض البلاد لتضخم اقتصادي أضر بمختلف الطوائف المتوسطة والدنيا في حين عاش السلاطين والامراء المماليك في رفاهية من العيش الكريم، والبذخ الفاحش، والكماليات غير المحدودة.

وبدلاً من اصلاح هذا الخلل فقد استورد المماليك كميات كبيرة من النحاس، حيث حلت مكان الدراهم الفضية والتي توقف سكها منذ اوائل القرن الخامس عشر، مما زاد المشكلة تعقيداً، حيث ارتفعت الأسعار أكثر من السابق[١٧٢].

١٦٨- المرجع نفسه، ص ٣٨٩.

١٦٩- ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ٢٤.

١٧٠- المقريزي، النقود، ص ١٤١-١٤٢.

١٧١- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق١، ص ٢٣٢.

١٧٢- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٩-٣٩٠.

وهكذا نلاحظ ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبشرية اشتركت معا في التأثير على الأسعار وعدم استقرارها، لكن السؤال الذي يطرح من هو المستفيد من غلاء الأسعار؟ وما هو موقف السلطة من ذلك؟.

ان المستفيد الاول من الغلاء هم اصحاب السلطة، حيث احتكروا معظم السلع الصناعية والتجارية، وقد جنوا من ذلك الارباح الطائلة، ولم يكن من مصلحتهم انخفاض الأسعار. كما استفاد التجار والباعة من إرتفاع أسعار السلع، فقد ذكر المقريزي ان الواحد من الباعة كان يجني في اليوم مائتي درهم، ويربح اقل السوقة ثلاثين درهما في اليوم، علاوة على ما يكسبه ارباب الصنائع والحرف جراء ذلك[١٧٣].

أما موقف السلطة من الغلاء فإنها لم تكن تستجيب لاصلاح الوضع إلاّ بعد ان تجد أن هناك تضجراً من قبل الناس. فمن الإجراءات التي كانت تعمد اليها ارسال الغلال من مصر إلى الشام إذا كان الغلاء حاصلا في الغلال. وبهذه الطريقة تحقق السلطة هدفين الاول تخفيف الشدة عن الناس بتراجع الأسعار قليلا، وثانيا، الحصول على الارباح الجمة ببيع سلعها في الأسواق.

ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م امر السلطان المملوكي بإرسال الغلال من مصر إلى بلاد الشام، بعد ان علم بازدياد الغلاء عندهم، حيث وصل ثمن غرارة القمح بدمشق إلى اربعمائة درهم، والشعير إلى مئتي درهم[١٧٤]. وتكرر السبب نفسه في الاعوام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م [١٧٥] و ٧٣٥هـ/١٣٣٤م[١٧٦] ورجب ٧٩٦هـ/أيار(مايو) ١٣٩٤م[١٧٧] و٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م [١٧٨] و ٩١٩هـ/ ١٥١٣م [١٧٩] إذ ارتفعت أسعار الحبوب في الشام فحملت المراكب بالغلال من دمياط إلى بلاد الشام للتخفيف عن الناس شدة ذلك.

١٧٣- المقريزي، إغاثة الامة، ص ٧٣.

١٧٤- الصفاعي، تالي الوفيات، ص ١٥.

١٧٥- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٢-٦٣.

١٧٦- اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٣٧.

١٧٧- ابن الفرات، تاريخ الدول، م ٩، جـ٢، ص ٣٨٢.

١٧٨- المقريزي، السلوك، جـ٣، ق٣، ص ١٠٥٩.

١٧٩- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٠٢.

كما اتخذت السلطة اجراءات أخرى للحد من ظاهرة الغلاء وذلك بإلغاء المكوس وبخاصة عن السلع المرتفعة الثمن، ففي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م ابطل مكس الاقوات بالشام بسبب إرتفاع أسعار الغلال عندهم. وقد تكرر ابطال المكوس في الاعوام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠[١٨٠]، و ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م[١٨١]، و ٧٨٣هـ/١٣٨١م[١٨٢]، و ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م[١٨٣]، و ٨٠١هـ/١٣٩٨م[١٨٤]، ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١٨٥]، و ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، و ٨٥١هـ/١٤٤٧م[١٨٦]، و ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م [١٨٧]، و ٨٧٠هـ/١٤٦٥م[١٨٨]، و ٨٧٥هـ/١٤٧٠م[١٨٩]، وغيرها.

كذلك ابطلت المشاهرة في الحسبة في الاعوام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠[١٩٠]، و ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م [١٩١]، و ٨٨٠هـ/١٤٧٥م[١٩٢]، و ٨٩٣هـ/١٤٨٧م[١٩٣]، وشعبان ٩١٠هـ/كانون ثان (يناير) ١٥٠٤م، وذي الحجة ٩١٨هـ/شباط (فبراير) ١٥١٢م[١٩٤]، و ٩١٩هـ/١٥١٣م[١٩٥].

ومن جهة أخرى لجأت السلطة إلى معاقبة اصحاب المسؤولية عن إرتفاع الأسعار، ففي ربيع الآخر ٧٩٤هـ/شباط (فبراير) ١٣٩١م أهان نائب دمشق سودون

١٨٠- ابو الفداء، المختصر، جـ ٤، ص ٩٢، ١٣٤؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ ٢، ص ١٤٢-٣٢٦.

١٨١- السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٣، ص ١١-١٢.

١٨٢- ابن حجر، انباء الغمر، جـ ٢، ص ٧٢-٧٣.

١٨٣- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ ٣، ص ٢٢٧.

١٨٤- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق٢، ص ٥٣٢.

١٨٥- المقريزي، السلوك، جـ ٣، ق٣، ص ١١١٩.

١٨٦- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٩٥، ٩٦.

١٨٧- الغزي، نهر الذهب، جـ ٣، ص ٢٣١.

١٨٨- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٩٨.

١٨٩- ابن الصيرفي، انباء الهصر، ص ٢٧٥.

١٩٠- ابن كثير، البداية، جـ ١٤، ص ٢٩٣.

١٩١- المقريزي، السلوك، جـ ٤، ق٢، ص ٥٨٤؛ دراج، وثائق دير صهيون، ص ٩٨.

١٩٢- العليمي، الانس، جـ ٢، ص ٣١٤-٣١٥.

١٩٣- البصروي، تاريخه، ص ١٢٥.

١٩٤- ابن طولون، اعلام الورى، ص ١٧٠، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ٣٧٤.

١٩٥- ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٣٢٠.

محتسب دمشق ابن الصائغ لانه باشر الحسبة وهو غير كفء لها، حيث ضربه وطوفه على حمار في شوارع المدينة. وقد قال ابن صصري في هذا الصدد: "هذا جزاه وأقل جزاه من يباشر الحسبة ولا يعرف يباشرها"[١٩٦].

ومن الإجراءات الأخرى اجبار الامراء والموظفين الكبار على فتح مخازنهم وشونهم وبيعها للناس، ففي ذي الحجة ٨٩٢هـ/تشرين ثان (نوفمبر) ١٤٨٦م ارتفع سعر الغلال بدمشق حتى وصل ثمن غرارة القمح إلى اربعمائة وعشرين درهماً، والشعير إلى مئة وسبعين درهماً، فنودي بدمشق ان من له حانوت يفتحه ويبيع والا شنق. كما صدر الامر في التاريخ المذكور بعدم بيع التجار المستوردين للقمح أو الشعير حرصا على غلاء الأسعار فيهما أكثر من ذلك[١٩٧].

كذلك عمدت السلطة إلى تحديد أسعار بعض السلع مثل الخبز، حيث كانت تصدر الاعلانات بهذا الشأن اما من النائب، أو المحتسب. بتحديد ثمن رغيف الخبز أو رطل الخبز ومواصفات الرغيف من حيث الجودة والنوعية، ففي اوائل سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م ارتفعت الأسعار بدمشق، فكل ثمان اواق بيعت بدرهم، كما بيعت غرارة القمح بثلاثمائة وخمسين درهماً، مما دفع بالمحتسب في شعبان/حزيران (يونيو) من نفس العام المذكور إلى تنفيذ امر الحاجب بان يكون سعر رطل الخبز الجيد بدرهم، والخبز العادي كل رطل وثلث منه بدرهم[١٩٨]، وقد ماطل ابن النشو في تنفيذ ذلك، فهو من أكبر تجار الغلال، وكان يطمع في سعر مرتفع، وكانت سياسة ابن النشو الاحتكارية للغلال وكثرة طرحه سببا في مقتله بعد اربع سنوات[١٩٩].

١٩٦- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١١٥.

١٩٧- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ ١، ص ٨٣-٨٤.

١٩٨- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٣٢-١٣٣، ٣٧-٣٨.

١٩٩- ابن الفرات، تاريخ الدول، م ٩، جـ ٢، ص ٤٦٢؛ المقريزي، السلوك، جـ ٣، ق٢، ص ٨٧٧؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ ٣، ص ٣٢٨-٣٢٩.

سابعاً، مراقبة الأسواق:

قسم الاشراف على الأسواق في العصر المملوكي إلى قسمين: القسم الاول كان يطلع به ناظر الأسواق، وصلاحيته اقتصرت على الأسواق التابعة للدولة مثل سوق الخيل وسوق الرقيق، حيث يشرف على ايراداتها، ووجوه انفاقها، وكانت هذه الاموال تنفق في الغالب على رسل الملوك ونحوهم، كما خصص منها مرتبات شهرية لافراد معينين[٢٠٠].

والى جانب هذه الوظيفة وجدت في بلاد الشام وظيفة أخرى لم تختلف عن ناظر الأسواق إلاّ ان متسلمها عرف (بشاد). ومن مهامه الاشراف على الصناعات التابعة للدولة، مثل صناعة السكر والحديد والزجاج، علاوة على دار البطيخ[٢٠١].

أما سائر الأسواق الأخرى فمسؤوليتها كانت تقع على المحتسب، ولعل أول اشارة وردت لذكر المحتسب تعود لزمن الخليفة العباسي المنصور (١٣٦/٧٥٤-١٥٨هـ/٧٧٥م)[٢٠٢] حيث اصبحت مهامه واضحة، فالماوردي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) حدد مفهوم الحسبة بقوله: "هي امر بالمعروف إذا ظهر تركـــه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله" [٢٠٣]. ثم ظهرت فيما بعد عدد من المصنفات[٢٠٤] التي تحدد الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الحسبة مثل معرفة الفقه، واحكام الشريعة، وان يكون ورعاً، بالغاً، حراً، عادلاً، حازماً [٢٠٥].

٢٠٠- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٣٢، جـ ١٢، ص ٣٩٧-٣٩٨.

٢٠١- المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١٩٤؛ زيادة، دمشق، ص ١٦٩.

٢٠٢- الدوري، المؤسسات الحكومية، ص ٦٠.

٢٠٣- الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص ٢٩٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الماوردي، الأحكام السلطانية.

٢٠٤- مثل الشيزري، الحسبة، ابن الاخوه، الحسبة؛ ابن تيمية، الحسبة في الاسلام، تحقيق سيد بن محمد بن ابي سعده، ط١، مكتبة دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٣م. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن تيمية، الحسبة، ابن بسام، الحسبة؛ ابن المبرد، كتاب الحسبة، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن المبرد، الحسبة.

٢٠٥- ابن الاخوة، الحسبة، ص ١٤٠٧؛ ابن بسام، الحسبة، ص ١٠-١٥.

لكن ما يهمنا هنا هل جميع هذه الشروط كانت مطابقة على من تولى الحسبة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي؟ وللاجابة على هذا السؤال لا بد من القول ان معظم من تسلم هذه الوظيفة كانوا اشخاصاً غير اكفاء سيما في عهد المماليك الجراكسة، فقد كان المماليك يولونهاإلى من يدفع لهم أموالاً كثيرة بغض النظر عن علمه بامور الدين والصنائع، وهذا ما دفع ابن المبرد في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إلى القول ان المحتسب كان بحاجة "الى معرفة الاحكام من الصلاة، والصوم، والزكاة، والبيع والشراء، والنكاح، والطلاق، والمباح من الاطعمة والمحرم. والمباح من الاشربة والمحرم. وما يكفر به الانسان وما به يسلم، والذبائح وشروطها، والشهادات والاقرار، وجميع هذه الاحكام ليأخذ الناس بها، ويحتاج إلى معرفة الصنائع وجيدها من رديها وغشها، وخالصها من مغشوشها[٢٠٦]".

لقد استطاع كثير من الاشخاص الوصول إلى الحسبة بالرشوة أو بالتقرب للسلطان، ففي جمادى الاخرة ٧٨٨هـ/حزيران (يونيو) ١٣٨٧م عيّن تقي الدين بن الخباز الحريري على حسبة دمشق بعد ان بذل ثلاثين الفا للامير قردمر المفوض باسم السلطان. وفي ذلك قال ابن قاضي شهبة عن السلطان "فهو في كل حين يولى من يرشيه كائناً من كان" [٢٠٧]. كما دفع تقي الدين ابو بكر بن النحاس ثمانمائة دينار في ربيع الاول ٨٨١هـ/حزيران (يونيو) ١٤٧٦م مقابل ان يصبح محتسباً لدمشق، وكان له ما اراد [٢٠٨]. ولم يقتصر الامر على هذا فحسب بل كان على المحتسب ان يدفع اموالاً شهرية أو سنوية لمن بيدهم السلطة[٢٠٩]. ففي رمضان ٨٢٤هـ/ آب (اغسطس) ١٤٢١م ابطل السلطان المملوكي ما يأخذه نائب دمشق من محتسب دمشق في كل عام، وهو مبلغ من الاموال وقدره نحو ألف وخمسمائة دينار، وقد عوضه عن ذلك ما

٢٠٦- ابن المبرد، الحسبة، ص ٣٨٥-٣٨٦.

٢٠٧- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ١٨٤.

٢٠٨- البصروي، تاريخه، ص ٧٦.

٢٠٩- سهام ابو زيد، الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٩٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابو زيد، الحسبة.

• يتحصل من بلد اربل[٢١٠] من الاموال حيث بلغت الالفين وخمسمائة دينار في العام[٢١١].

• ولكي يعوض المحتسب هذا المبلغ كان عليه ان يحصل على الاموال بأي وسيلة كالعمل بأكثر من مهنة، مثل عبدالقادر محتسب دمشق سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م والذي تعاني صناعة الطحانة والخبازة وتاجر في القمح، علاوة على اخذه من كل صناعة مقررات شهرية[٢١٢].

• وهناك كثير من المراسيم الخاصة بالحسبة والتي تقرر ابطال المشاهرة،أي ما كان يجبى لصالح المحتسب من التجار واصحاب الحرف والصنائع كالخبازين والطحانين، وارباب المعايش، والصنائعية، والدباغين، والمغسلين، والحمالين لاموات المسلمين، وعلى وقف سكان الجوامع والتجار وعلى الأسواق بشكل عام.

• فمن هذه المراسيم مرسوم خاص ببيروت سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م أو سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م)، ومرسومان خاصان ببعلبك (سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م وسنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م)، وعدة مراسيم خاصة بدمشق (سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م أو سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م [٢١٣]، و٨٢٤هـ/١٤٢١م [٢١٤]، و ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م، و ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م، و ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، و٨٩٣هـ/١٤٨٧م [٢١٥]. وفي شعبان ٩١٠هـ/كانون ثان (يناير) ١٥٠٤، وفي ذي الحجة ٩١٨هـ/ شباط (فبراير) ١٥١٢م [٢١٦])، ومرسوم واحد خاص بطرابلس (سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م [٢١٧]).

---

٢١٠ إربل: عرفت مدينة صيدا بهذا الإسم. أنظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص١٤٠.

٢١١- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق٢، ص ٥٨٤.

٢١٢- ابن طولون، مفاكهة الخلان ،جـ١، ص ٨٣-٨٤.

٢١٣- احمد السيد دراج، الحسبة واثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية، المجلة التاريخية المصرية، م١٤، ١٩٦٨م، ص ١٢٩-١٣٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: دراج، الحسبة.

٢١٤- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق٢،ص٥٨٤.

٢١٥- دراج، الحسبة، ص ١٣٠.

٢١٦- ابن طولون، اعلام الورى، ص ١٧٠، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٣٧٤.

٢١٧- دراج، الحسبة، ص ١٣٠.

ورغم تلك الاعمال التي كان يقوم بها المحتسب للحصول على الاموال إلاّ انه لم يكن يسد المبالغ التي كان يدفعها للوصول إلى منصب الحسبة، فهذا تقي الدين بن الخباز يقدم استقالته في محرم ٧٨٩هـ/كانون ثان (يناير) ١٣٨٧م عن حسبة دمشق لانه لم يستطع تسديد الاموال التي انفقها من اجل الحسبة[٢١٨].

ومما تجدر الاشارة اليه ان تعيين المحتسب في بلاد الشام كان يتم من قبل نواب بلاد الشام باستثناء حسبة دمشق وحسبة حلب، فان تعيينهما كان يحصل من قبل السلطان[٢١٩].

هذا وقد تعددت واجبات المحتسب لكن ما يهمنا هنا ما كان يتعلق بالأسواق، فقد كان المحتسب يتخذ له دكة في السوق يراقب منها أهل ذلك السوق .أما الأسواق الاخرى، فكان المحتسب يتجول بها راكباً أو ماشياً في الليل أو في النهار، فيتأكد من صحة الاوزان والمكاييل، ومن وجده يتلاعب فيها عاقبه على ذلك[٢٢٠]. ومع ذلك ظل للرشوة دورها في العصر المملوكي مقابل سكوت المحتسب عن الحرام. ففي ٣جمادى الاخره ٩٠٠هـ/شباط (فبراير) ١٤٩٤م يذكر ابن طولون ان مرسوماً ورد من القاهرة فيه امر بجعل رطل دمشق كرطل مصر، والاوقية كأوقية مصر، فنودي بدمشق على ذلك، واكل المحتسب مالاً كثيراً جراء ذلك[٢٢١].

وكان على المحستب التأكد من سلامة النقود وعدم غشها، فان اكتشف ان العملة مغشوشة عليه ان يبحث عمن احدثها، فاذا ظفر به ان كان واحداً أو جماعة ان "يأمرهم بقصها وتغييرها عن هيئتها وأن لا يغشّوا الناس بها بحيث لا يمكن التعامل بها" [٢٢٢].

أما الأسعار، فالاصل ان لا يتدخل المحستب في تحديد أسعار السلع، ولا ان يلزم التجار بسعر معين، لكن عليه التدخل وقت الغلاء سيما إذا وجد هناك من يحتكر

٢١٨- ابن قاضي شهبة، تاريخه، جـ٣، ص ٢١٣.

٢١٩- دراج، الحسبة، ص ١٢٨.

٢٢٠- الشيزري، الحسبة، ص ١٨-٢٠؛ ابن العديم، زبدة حلب، جـ٣، ص ١٢، ابن بسام، الحسبة، ص١٨٥-١٨٧.

٢٢١- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٦٣.

٢٢٢- ابن الأخوة، الحسبة، ص٧٠.

السلع ليبيعها في اغلى الأثمان. حيث يلزمه المحتسب ببيعها بسعر السوق، وعدم احتكارها لان عمله هذا مخالف لتعاليم الشريعة[٢٢٣].

واذا لم يتدخل المحتسب وقت الغلاء فانه يتعرض للاهانة من قبل الناس، وهذا ما حدث لمجد الدين ابن العجمي في شهر شعبان ٦٢٩هـ/ آيار(مايو) ١٢٣١م حيث وصل سعر رطل الخبز في حلب إلى عشرة قراطيس، مما ازعج عامة الناس فثاروا على محتسبهم، وحاولوا قتله ونهب داره، إلاّ ان المحاولة باءت بالفشل، لانه لجأ إلى مقدم الاحداث في حلب حيث حماه منهم[٢٢٤].

ويبدو ان المحتسب لم يكن لديه سلطة فاعلة فيما يتعلق بالأسعار، لضعف مركزه، فهذا ابن النشو شاد المراكز بدمشق خلال جمادى الاخرة ٧٩٩هـ/ آذار ١٣٩٧م يحتكر الغلال وقت الغلاء ويخزنها حتى يبيعها باعلى الأسعار، دون تدخل من محتسبها، لكن هذا الوضع لم يعجب اهل دمشق لانه اضر بهم، مما دفعهم إلى رجمة وقتله[٢٢٥].

وهناك بعض المحتسبين لم يتدخلوا بالأسعار مقابل اموال تدفع لهم، فقد حصل مع محتسب دمشق في محرم ٩٠٩هـ/ حزيران (يونيو) ١٥٠٣م ان صدر الامر من نائب دمشق بتحديد سعر الخبز، لكن الخبازين لم يمتثلوا لهذا النداء، حيث استمر بيعهم كالمعتاد، وقد سكت عنهم المحتسب بعد ان برطلوه بمبلغ من المال[٢٢٦].

كذلك كان على المحتسب عدم السماح لاهل السوق بالاعتداء على حرمة الشارع، وذلك بمنعهم من تشييد مقاعد لهم امام حوانيتهم لما في ذلك من اضرار بالمارة. في الوقت نفسه كان عليه منع الباعة من الجلوس في شوارع الأسواق لبيع بضائعهم. كما كان على المحتسب عدم السماح لاحمال الحطب والحلفاء، واحمال التبن، وروايا الماء، والرماد وما شاكل ذلك من الدخول للأسواق لما في ذلك من اذى للناس من ناحية، وللمحافظة على نظافة الأسواق من ناحية اخرى. وعليه ان يطلب من اصحاب الأسواق تنظيف أسواقهم من النفايات من اجل سلامتهم وسلعهم من الضرر[٢٢٧].

٢٢٣- ابن تيمية، الحسبة، ص ٢٣-٢٥، ٤٩؛ ابن بسام، الحسبة، ص ١٨.

٢٢٤- ابن العديم، زبدة حلب، جـ٣، ص ٢١٢.

٢٢٥- ابن الفرات، تاريخ الدول، م٩؛ جـ٢، ص ٤٦٢؛ ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٣، ص ٣٢٨-٣٢٩.

٢٢٦- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٢٢٧- ابن بسام، الحسبة، ص ١٩.

ومن الملفت للنظر ان وظائف المحتسب كانت تتفاوت من بلد لاخر، فالمحتسب في بيروت يفترض فيه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً، ففي بيروت يهتم المحتسب بالإحتساب على السمّاكين والملح والصير والبوري وقلائي السمك والطيور وصياديها ونجاري المراكب ونحو ذلك[٢٢٨].

وكان يساعد المحتسب في القيام بواجباته مجموعة من الاعوان علاوة على العرفاء، فقد كان على ارباب كل صنعة عريف، ويرجع نظام عرفاء الأسواق إلى العصر الفاطمي، إذ كان اولئك العرفاء هم الواسطة بين الدولة من جهة وارباب السلع من جهة اخرى[٢٢٩]. وبهذه الطريقة يسهل على المحتسب الاطلاع على الحرف بكل يسر وسهولة، فهؤلاء العرفاء يقدمون للمحتسب تفاصيل كاملة عن حرفهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع، وما تستقر عليه الأسعار[٢٣٠].

فضلا عن ذلك فقد كان لكل حرفة شيخها الذي تعينه السلطة أو تعترف به ويعرف بشيخ الصنف، ويمثل تلك الحرفة[٢٣١]. ومن هؤلاء الشيوخ نذكر جمال الحلبي (ت ٧٠٤هـ/١٣٠٤م) وكان شيخاً للصاغة بدمشق، وشرف الدين محمود العطار (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م) شيخ أسواق العطر بدمشق[٢٣٢]، واحمد الحموي شيخ سوق المرستان بدمشق سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م[٢٣٣].

ومما تجدر الاشارة اليه ان اولئك الموظفين (ناظر الأسواق، المحتسب، عرفاء الأسواق، شيوخ الأسواق) لم يكونوا هم الجهة الوحيدة أو التعبير الوحيد عن سلطة الدولة في الأسواق، فقد بدت سلطة الدولة وتدخلها في شؤون الأسواق واضحة في كثير من التصرفات التي كان اهمها بطبيعة الحال الضرائب والمكوس المفروضة على

٢٢٨- محمد كرد علي، الحسبة في الاسلام، مجلة المجمع العلمي العربي، م١، جـ٨، آب ١٩٢١م، ص ٢٦١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: كرد علي، الحسبة في الاسلام.

٢٢٩- قاسم عبده، الاسواق، ص ١٧٤.

٢٣٠- ابن بسام، الحسبة، ص ١٧-١٨.

٢٣١- الدوري، المؤسسات الحكومية، ص ٦١.

٢٣٢- الصقاعي، تالي الوفيات، ص ١٧، ١٨٨-١٨٩.

٢٣٣- البصروي، تاريخه، ص ١٥٦.

أهل الأسواق، أو في بعض الاعمال التي كانت الدولة ترغم أهل الأسواق على القيام بها.

لقد تعددت الضرائب في بلاد الشام سيما في عصر المماليك الشراكسة، ولم تكن تخضع هذه الضرائب لزمن معين، فمتى صدر الامر من السلطة ينفذ على الفور ففي يوم الثلاثاء التاسع من رمضان ٨٩٢هـ/ آب (اغسطس) ١٤٨٦م وصل جان بلاط دوادار مصر ومعه امر بمصادرة البلاد الشامية كغزه والقدس وصفد وحماه وطرابلس وحلب، "قيل ان السلطان جعل تسفيره نحو اربعين الف دينار"[٢٣٤]. كما صدر الامر في محرم ٨٩٧هـ/ تشرين ثانٍ (نوفمبر) ١٤٩١م بمصادرة صناع الحرير بدمشق، وان يأخذ على كل نول حرير شيئاً معلوماً، ولم يصغ نائب دمشق لاحتجاجات هؤلاء الصناع، وقدر مجموع تلك الاموال بنحو خمسة عشر الف درهم، فرض على كل حارة قسماً منها[٢٣٥].

وخلال شهر رجب ٩٠٧هـ/كانون ثانٍ (يناير) ١٥٠١م فرض نائب دمشق على اهلها مبلغ ثلاثين الف دينار، مما دفع بالناس إلى اغلاق حوانيتهم، وأسواقهم، وترك منازلهم لتجنب ذلك. وقد اثمرت جهودهم بتخفيض المبلغ إلى عشرين الف دينار، وتم بالفعل جمع المبلغ المذكور في يوم الخميس ١٦ شعبان/ شباط (فبراير) من نفس العام[٢٣٦].

وكثير من هذه الاموال كانت تحصل لاجل بناء صرح عسكري أو مدني، أو لتجهيز الجنود لقتال العدو، أو لاخماد عصيان داخلي. ففي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م شرع العمل في بناء قلعة جعبر، فوضعت ضريبة على أسواق حلب، كما توجه نائب حلب ومعه نحو عشرين الفاً من العمال والصناع لبناء هذه القلعة[٢٣٧].

٢٣٤- ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٧٨.

٢٣٥- المصدر نفسه، جـ١، ص ١٤٦.

٢٣٦- المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٥٤.

٢٣٧- ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ١١٦.

• وفي شعبان ٨٠٩هـ/ كانون ثانٍ (يناير) ١٤٠٦م عزم الامير نوروز على عمارة قلعة دمشق فقبض على كثير من التجار وصادر اموالهم "حتى كان أهل دمشق يشبهون تلك الايام بايام تمرلنك "حيث شملت هذه المصادرة الخانات والحمامات وارباب المعايش حتى باعة الخزف وباعة السراطين الجالسون تحت القلعة، وقد انقطعت الاسباب وتعطلت المعايش جراء ذلك. وقبل ذلك الزم نائب دمشق اهلها بعمارة دار السعادة في رجب ٨٠٥هـ/كانون ثان (يناير) ١٤٠٢م[٢٣٨].

• وللدفاع عن البلاد كان على كل تاجر ان يجهز مقاتلاً على فرس بكامل عدته[٢٣٩]، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م وردت الاخبار بقدوم التتر إلى بلاد الشام، فما كان من السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨/١٢٧٩-٦٨٩هـ/١٢٩٠م) إلاّ ان بعث بكتاب إلى نائب دمشق جمال الدين اقوش النجيبي[٢٤٠] يلزم فيه كل صاحب حانوت بعدة كاملة، وان يعلقها على باب حانوته، كما يأمرهم بتعلم رمي النشاب في طرفي النهار، وقد قام عريف كل سوق بتسجيل اسماء أهل السوقة[٢٤١].

• وتكرر نفس الحدث والسبب في ذي القعدة ٦٩٩هـ/ تموز (يوليو) ١٢٩٩م حيث امر الامير سيف الدين قبجق المنصوري[٢٤٢] نائب دمشق من اصحاب الأسواق في مدينة دمشق بتعليق الاسلحة في حوانيتهم، وعليهم الاستعداد لحرب التتار، كما كتب إلى جميع بلاد الشام في هذا المعنى. وبعد هذه التجهيزات عرض أهل الأسواق على نائب السلطنة المشار اليه وعليهم السلاح، فجعل لكل سوق مقدم وجماعة حوله[٢٤٣].

٢٣٨- ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٥، ص ٨٦. جـ٦، ص ٦٣.

٢٣٩- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٩.

٢٤٠- جمال الدين اقوش النجيبي: تولى نيابة دمشق بين (سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وسنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م). انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٣٣.

٢٤١- الكتبي، عيون التواريخ، جـ٢١، ص ٢٨١.

٢٤٢- سيف الدين قبجق المنصوري: تولى نيابة دمشق بين سنتي (٦٩٦هـ/١٢٩٦م و ٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، انظر ابن طولون، اعلام الورى، ص ٣٧.

٢٤٣- ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ٢٢٣-٢٢٤.

• ولمقاتلة التركمان الذين أكثروا فساداً في بلاد حماه وطرابلس فقد فرض الامير شيخ على أهل دمشق في رمضان ٨٠٨هـ/ شباط (فبراير) ١٤٠٥م اجرة شهر عن حوانيتهم ومساكنهم وبساتينهم[٢٤٤].

ومن جهة ثانية فقد تدخلت السلطة في الشؤون الدينية لأهل الأسواق، كالزامهم بالصلاة. ففي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م امر والي الشرطة بدمشق اياز افتخار الدين الحراني أهل السوق بالصلاة، وعاقب من تخلف عنها[٢٤٥].

فضلا عن ذلك فقد شارك أهل الأسواق باقامة الاحتفالات كالنصر على الاعداء، أو قدوم السلطان أو مغادرته لمدن الشام وغير ذلك من المناسبات السعيدة[٢٤٦]، وكان يعبر أهل الأسواق عن فرحهم بايقاد الشموع والقناديل وتعليقها على ابواب حوانيتهم. ففي سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م خرج السلطان الاشرف خليل (٦٨٩/١٢٩٠-٦٩٣هـ/١٢٩٣م) من دمشق عائداً إلى مصر، فطلب من جميع أهل الأسواق ان يخرج كل واحد منهم وبيده شمعة موقدة عند ركوب السلطان، فخرجوا كلهم، ورتبوا صفا من باب النصر إلى مسجد القدم، فعندما ركب السلطان اضيئت تلك الشموع دفعة واحدة، وسار بينها حتى نزل مخيمة[٢٤٧].

وهكذا نلاحظ ان الاشراف على الأسواق لم يكن مقتصرا على جهة واحدة كناظر الأسواق، أو المحتسب، أو عرفاء الأسواق، بل كان للسلاطين ونوابهم وحتى والي الشرطة صلاحية على الأسواق، لكن سلطة كل منهم كانت محدودة.

ومن ناحية اخرى يتضح ان عمل الأسواق لم يقتصر على الناحية الاقتصادية فحسب، بل شارك أهل الأسواق في مختلف الميادين الحضارية والسياسية.

يتضح مما تقدم ان بلاد الشام كانت لها معاملاتها الخاصة بها وهي تختلف عن معاملات مصر، فكثيراً من الاحيان انفردت بنقودها الخاصة بها مثل القراطيس في

٢٤٤- المقريزي، السلوك، جـ٤، ق١، ص ١٦؛ ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٥، ص ٢٩٧-٢٩٨.

٢٤٥- ابو شامه، الذيل، ص ٢١٨.

٢٤٦- حول ذلك انظر الفصل الأول، ص ٦٣-٦٥.

٢٤٧- المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٨٠.

حين استخدمت مصر الفلوس النحاسية، إلى جانب ذلك فقد أستخدمت المقايضة ونصف المقايضة في المعاملات التجارية علاوةً على السفاتج والصكوك مما أسهم بالتالي بزيادة النشاط التجاري بشكل ملحوظ.

كما استقلت بلاد الشام بموازينها ومكاييلها ومقاييسها الخاصة بها، وحتى على مستوى بلاد الشام فلم تكن جميع الاوزان أو المكاييل أو المقاييس موحدة في كافة المدن. فالاوزان أو المكاييل أو حتى المقاييس المستخدمة في دمشق ليست هي نفسها المستعملة في حلب أو القدس أو حماة، لذا كان لكل مدينة من مدن بلاد الشام معاملاتها الخاصة بها.

هذا وقد اختلفت مقادير هذه المعاملات من عصر إلى آخر، ولنضرب مثالاً على ذلك فالمكوك المستعمل في حلب في أواخر القرن السادس الهجري ليس بنفس المقدار الذي استخدم في القرن الثامن أو التاسع الهجري.

كما تبين أيضاً أن المنادي والدلال لعبا دوراً بارزاً في بيع السلع التجارية وذلك بإعطاء المشتري مواصفات حسنة عن السلع الراغب في شرائها.

ومن جهة ثانية نلاحظ ان أسعار السلع في بلاد الشام اختلف ثمنها من سلعة لاخرى، فبعض السلع كانت أسعارها معتدلة مثل الحبوب، في حين نجد بعضها الاخر قد ارتفع بشكل ملحوظ كالسكر والدجاج والاوز. اما الفواكه فثمنها كان رخيصاً في بلاد الشام بسبب كثرتها.

ورغم ذلك فأسعار هذه السلع لم تكن ثابتة إذ تأثرت بعوامل طبيعية وبشرية، فالطبيعية مثل القحط أو الجفاف والفأر والجراد والصواعق، والصقيع والرياح والطواعين والزلازل والسيول. وقد اتضح لنا دور هذه العوامل في التأثير بشكل مباشر على الأسعار حيث ارتفعت بشكل نسبي حسب الحدث وقوته.

اما العوامل البشرية فتمثلت باحتكار الدولة للسلع، واستخدامها الاساليب الملتوية للحصول على الاموال مثل سياسة الطرح والرمي، أو عرقلة الاستيراد من اجل بيع سلعها باعلى الأسعار. كما اثر في عدم استقرار الأسعار زيف النقود.

وكان المستفيد الاول من الغلاء هم ارباب السلطة، بالاضافة إلى التجار والباعة في الوقت نفسه اتخذت السلطة عدة خطوات للحيلولة دون وصول الأسعار إلى اعلى من مستواها خوفاً من حدوث فتن واضطرابات في البلاد مما كان يشكل بالتالي خطراً على اصحاب السلطة.

لذا كان السلطان والامراء المماليك يرسلون الغلال من مصر لبلاد الشام لبيعها في الأسواق، ولتخفيف الأسعار. كما حددت السلطة أسعار بعض السلع مثل الخبز. ولم يقتصر الامر على هذا فقد اصدرت السلطة الاوامر المشددة بفتح الجوانيت وبيع السلع للمستهلكين، علاوة على منع استيراد السلع المرتفعة الثمن، حرصاً على عدم زيادة أكثر من الأسعار في البلد المتعرض لها.

واخيراً تحدثنا عن مراقبة الأسواق وان الاشراف عليها كان يتم من عدة جهات كناظر الأسواق والمحتسب وعرفاء الأسواق، وقد وضحنا ان ناظر الأسواق أو شاد بعض الصناعات كالزجاج والحديد أو غيرها كان مسؤولاً عن الأسواق أو الصناعات التابعة للدولة، إذ كان من واجباته الاشراف عليها وجمع ايراداتها، في حين كانت واجبات المحتسب تتعدى ذلك إلى غيرها من الأسواق الاخرى.

والملاحظ ان دور المحتسب في العصر المملوكي لم يكن فاعلاً، فقد اصبحت هذه الوظيفة يتولاها من يدفع الاموال أكثر، مما انعكس بالتالي سلبياً على واجبات المحتسب؛ حيث بذل ما في وسعه لتعويض المبلغ الذي دفعه والمطلوب منه في كل شهر أو سنة. لذا كان المحتسب يعمل أكثر من صنعة ويقبل الرشوة في كل شيء. اما عرفاء الأسواق فكان دورهم يتمثل بمساعدة المحتسب، وتقديم البيانات عن حرفهم كما تدخلت جهات اخرى في امر الأسواق مثل السلطان أو النواب، وحتى صاحب الشرطة كان له صلاحية على أهل الأسواق.

خاتمة:

يتضح مما سبق أن الأسواق التجارية قد احتلت مكانة بارزة في المدينة الاسلامية، وأن معظمها كان يتواجد حول المسجد الجامع. اما العمائر التجارية الاخرى كالخانات والفنادق فقد جاء توزيعها قرب ابواب المدينة، وبجوار سوق القمح كما في دمشق مثلاً. في حين أن القياسر والوكالات احتلت مواقع مختلفة داخل المدينة وان كان اكثرها قد تواجد بالقرب من الأسواق.

كما يتبين ايضاً أن الأسواق الشامية خلال العصر المملوكي كانت على نوعين هما: الأسواق الدائمة والأسواق غير الدائمة. فبالنسبة للأسواق الدائمة فقد تزايد عددها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي إذ احتضنت مدينة دمشق وحدها اكثر من مئة واربعين سوقاً، كما وجد في مدينة عجلون أيضاً عدد كبير من الأسواق، ففي السيل الذي اجتاحها عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، زال اكثر من عشرين سوقاً على اقل تقدير، مما يدل على مدى النشاط التجاري الذي شهده العصر المملوكي وما وصل اليه من ازدهار.

وكان من سمات هذه الأسواق التخصص، فمعظم الأسواق الشامية اختصت ببيع او صنع سلعة واحدة فقط، وعرفت هذه الأسواق باسم نوع السلعة التي تعرض او تصنع فيها، او باسم المكان الذي تواجدت فيه، او باسم من بناها. وقد اولت السلطات المملوكية عناية خاصة بهذه الأسواق حيث شيدت كثير منها، ورممت ما خرب منها، ووسعت بعضها، فضلا عن ذلك فقد عينت لها موظفين لحراستها في الليل، ومراقبة نشاطها التجاري في النهار.

ولم يقتصر دور هذه الأسواق على القيام بالدور الاقتصادي فحسب، بل انها لعبت ادواراً اخرى في الحياة السياسية والاجتماعية والعمرانية، إذ اوقف بعض هذه الأسواق للانفاق على اوجه البر مثل الانفاق على المساجد والمدارس والاضرحة ونحو ذلك.

أما النوع الثاني من الأسواق فعرفت بالأسواق غير الدائمة، وهي تقسم إلى عدة اصناف، مثل: الأسواق الموسمية، ممثلة بأسواق الشام قبل الاسلام (دير ايوب، بصرى، اذرعات)، وأسواق ارتبط قيامها بورود التوابل من الشرق، وخضعت في ذلك لهبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية.

وعرف الصنف الثاني «بالأسواق السنوية» وهي تقسم بدورها إلى فروع، فمنها ما عقدت خارج المدن في وقتها الاعتيادي، ومنها ما ارتبط بذهاب الناس للحج إلى مكة او إلى القدس حيث نصبت الأسواق التجارية على الطرقات وعند نزول الحاج في المنازل، كما اقيمت بعض الأسواق في الاماكن التي كان يزورها الناس في الاعياد والمناسبات. وعند قدوم تجار الغرب لبلاد الشام كانت تقام الأسواق السنوية، ثم تحولت هذه الأسواق إلى أسواق نصف سنوية، وربع سنوية.

كذلك عرفت بلاد الشام أسواقاً اسبوعية تقام في يوم او يومين من الاسبوع في داخل المدن وخارجها، كما ضمت الأسواق غير الدائمة تلك الأسواق التجارية التي كانت ترافق الجيش وتمده بالمؤن والأقوات. اما النوع الاخير من الأسواق غير الدائمة فاطلقنا عليه «الأسواق الطارئة»، حيث كانت تعقد وفقا لظروف قاهرة تلم بالبلاد، ففي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م اضطرت السلطات المملوكية إلى اخراج الأسواق للتتار عند مرورهم ببلاد الشام إلى مصر خوفاً من دخولهم للمدن. كما عقدت الأسواق التجارية خارج انطاكية عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م بسبب الحريق الذي شب فيها.

وتبين أيضاً أن هناك عمائر تجارية أخرى لم تقل اهمية عن الأسواق مثل القياسر، والفنادق، والخانات، والوكالات، ومنشآت تجارية صغيرة أخرى، كالباشورات، والعرصات، والمربعات، والرحبات، والاماكن التي كان يستعملها الباعة الجائلون لبيع بضائعهم، فالقياسر والفنادق اصلها يوناني، والخانات فارسية، في حين ان الوكالات اسلامية، وتعود إلى العصور الوسطى.

وهذه العمائر الاربعة لم تكن تختلف فيما بينها من حيث شكلها العمراني. ووظيفتها التجارية، فقد كانت تتكون من طابقين على الاغلب، الطابق الارضي خصص لخزن السلع وبيعها، ولحجز الحيوانات، في حين أن الطابق العلوي استغل

سكناً للتجار، ولهذا واجه المقريزي والعليمي صعوبة في تمييز كل منشأة من هذه المنشآت عن بعضها البعض.

هذا وقد كثر عدد هذه العمائر وبخاصة الخانات منها في كل من دمشق وحلب بشكل خاص وباقي مدن بلاد الشام بشكل عام، وذلك بسبب ما تميزت به هاتان المدينتان من خصائص اسهمت دون شك في هذه الزيادة الكبيرة مثل الدور السياسي والموقع الاستراتيجي علاوة على الكثافة البشرية التي وجدت في كلا المدينتين.

وقد نتج عن هذه العمائر ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الشام والحركة التجارية بشكل خاص، حيث دفعت بالتجار للقدوم إلى بلاد الشام والمكوث بها إلى فترات طويلة.

كذلك كان في مقدمة عوامل الازدهار ايضا الموقع المتوسط لبلاد الشام بين الشرق والغرب إذ جعلها خير وسيط لتبادل سلع الشرق بالغرب، كما اسهمت الثروة الاقتصادية الكثيرة في بلاد الشام في أن تكون سوقاً تجارية نشطة لسد حاجات اهل الشام، ومن ثم تصدير ما زاد عن احتياجاتها إلى الأسواق الخارجية.

ومن عوامل الانتعاش الاقتصادي كذلك تلك المكانة الدينية التي حظيت بها بلاد الشام، ففيها اماكن دينية مقدسة في فلسطين، فضلا عن كونها كانت معبراً لقوافل الحاج الاسلامي وبخاصة حجاج مصر وشمال افريقية والمغرب والاندلس وفارس وشمال العراق وديار بكر علاوة على حجاج بلاد الشام، وبالاضافة إلى ذلك فقد ضمت بلاد الشام كثيراً من الاضرحة والمشاهد التي تعود لكثير من الصحابة وابطال الانتصارات مما دفع الناس لزيارتها حيث نتج عن ذلك نشاط في الحركة التجارية.

بالمقابل شهد الاقتصاد المملوكي في اواخره تدهوراً وانهياراً لعدة عوامل طبيعية واخرى بشرية، فالعوامل الطبيعية ممثلة بالزلازل والسيول والطواعين والجراد والفئران. اما العوامل البشرية فمنها الحرائق، وضعف السلطة، وهجوم التتار، والتركمان على بلاد الشام، وتمرد البدو وقطعهم للطرقات، بالاضافة إلى غش العملة وعدم اكتسابها لثقة المتعاملين بها، كما كان للاساليب الاحتكارية التي نهجتها السلطات المملوكية دور بارز في تراجع الاقتصاد المملوكي حيث حرصت السلطة

المملوكية على جني الثروة من خلال السيطرة على الأسواق. لكن الضربة القاصمة جاءت من قبل البرتغال الذين قاموا باكتشاف طريق أخر توصلهم إلى سلع الهند والصين دون واسطة المماليك وذلك بالدوران حول رأس الرجاء الصالح، وقد افقد هذا الاكتشاف دخلا كبيراً للمماليك حتى لم تعد الدولة المملوكية تقوى على الثبات امام الزحف العثماني والذي انتصر على المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م.

ومن الملاحظات الهامة ايضا ان بلاد الشام كانت سوقاً منتجاً ومصدراً ومستورداً في نفس الوقت، فبلاد الشام احتوت على ثروة معدنية وزراعية وحيوانية كبيرة اسهمت بشكل كبير في تصنيع كثير من السلع مثل السكر والزيت والزجاج والنحاس والمنسوجات وغيرها، كما صدرت في الوقت نفسه كثير من هذه السلع إلى أسواقها الداخلية التي تقل فيها مثل هذه البضائع وغيرها، كذلك اقامت بلاد الشام علاقات تجارية مع الأسواق الخارجية مثل أسواق مصر واليمن والمغرب والاندلس والهند والصين واروبا بشكل عام، لكن اشد هذه العلاقات نشاطا كانت تلك المبادلات التجارية التي اقامتها بلاد الشام مع مصر بحيث وصل دخل مركز المكوس في قطيا الواقعة على الحدود الشامية المصرية إلى الف دينار كل يوم.

أما المعاملات التي كانت سائدة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي فكانت تتم بواسطة النقود والمقايضة ونصف المقايضة، بالإضافة إلى استخدام السفاتج والصكوك، وقد برزت مكانة بلاد الشام هنا بأن استقلت بنقودها في كثير من الاحيان، كذلك انفردت بلاد الشام بموازينها ومكاييلها ومقاييسها الخاصة بها، وحتى على مستوى المدن الشامية فقد اخذت تختلف في معاملاتها بين مدينة واخرى.

هذا وقد اختلفت الاسعار من سلعة لاخرى، لكن هذه الاسعار قد تاثرت بعدم استقرارها لعوامل طبيعية وبشرية، وكان المستفيد من هذا الغلاء هم ارباب السلطة والتجار والباعة، ورغم ذلك اتخذت الدولة المملوكية بعض الاجراءات للحيلولة دون بلوغ الاسعار إلى اعلى من مستواها المعتاد خوفا من حدوث الفتن والاضطرابات في البلاد، لذلك حرصت السلطة المملوكية على مراقبة الأسواق والاشراف عليها فوضعت موظفين من قبلها مثل ناظر الأسواق والمحتسب وعرفاء الأسواق.

ومن الملفت للنظر ان دور المحتسب في العصر المملوكي لم يكن على ما يرام وبخاصة في العصر المملوكي الثاني، إذ اصبح هذا المنصب يتولاه من يدفع رشوة للسلطة فانعكس هذا سلبيا على واجبات المحتسب حيث بذل قصارى جهده لتعويض ذلك المبلغ الذي كان يدفعه والمطلوب منه في نهاية كل شهر او سنة، فأخذ يعمل بأكثر من صنعة ويقبل الرشوة في كل شيء حتى اصبح عالة على الاقتصاد المملوكي، مما اسهم بالتالي في انهياره بشكل واضح بدلا من ان يكون معيناً وبناءً له.

الملاحق

١- خارطة لبلاد الشام في العصر المملوكي

٢- خارطة لمدينة دمشق في القرن السادس عشر

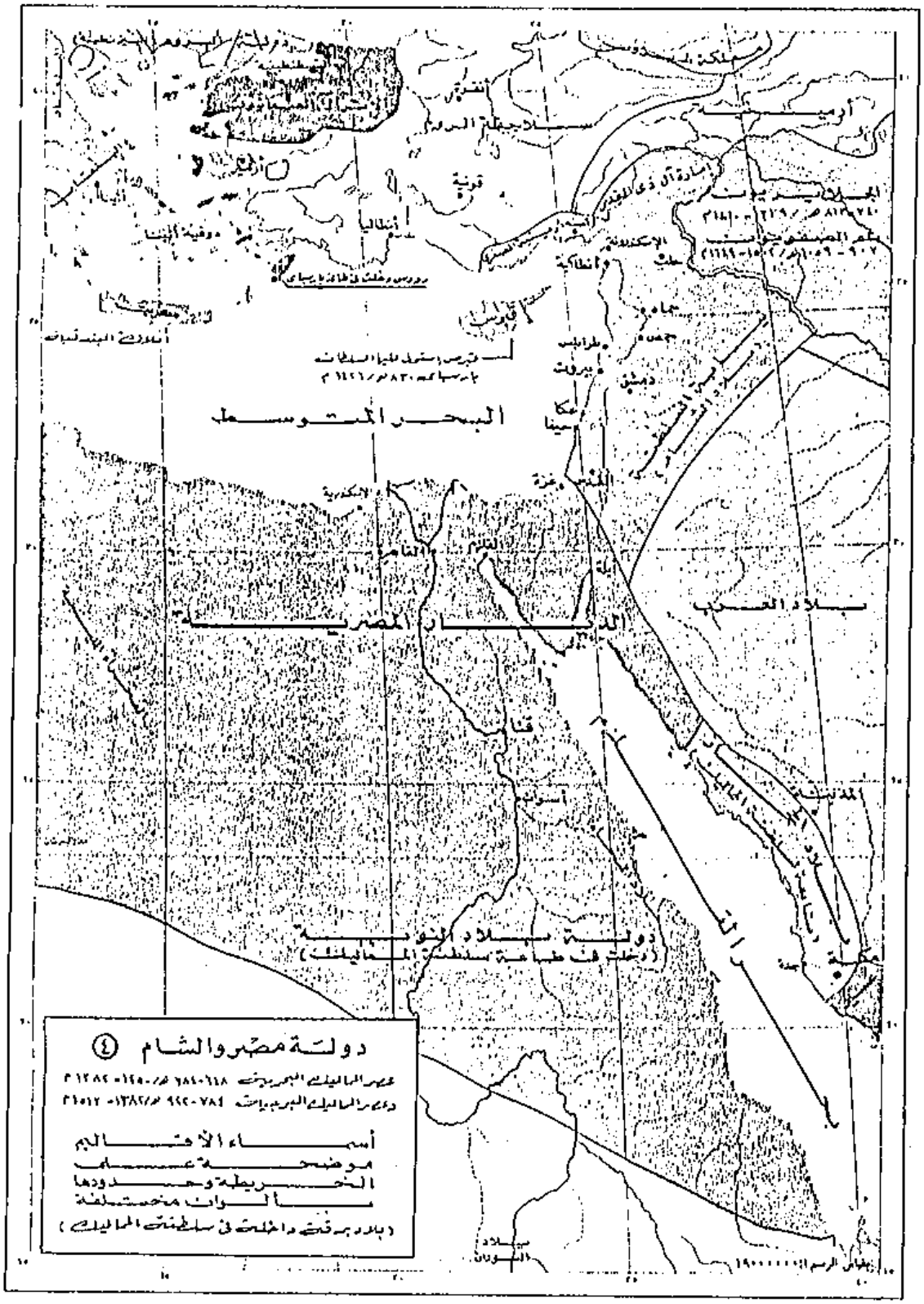

٢٠٥

نقلاً عن: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م. ص ٢٠٥.

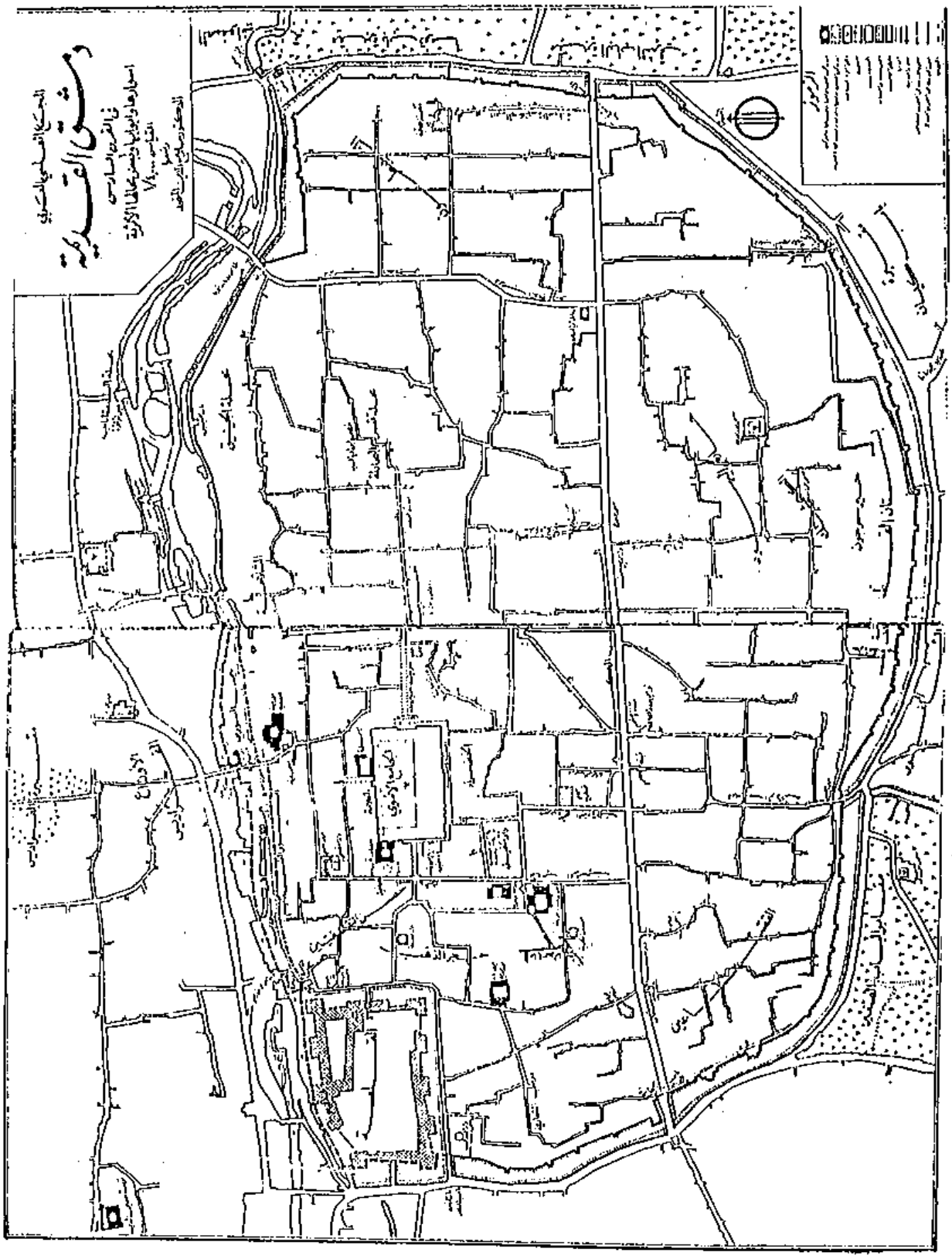

نقلاً عن: ابن المبرد، رسائل دمشقية، ص١٠١ – ١٠٧

قائمة مصادر ومراجع البحث

أ - القرآن الكريم.
ب - المصادر غير المطبوعة (المخطوطات).
جـ - المصادر المطبوعة العربية والأجنبية المترجمة.
د - المراجع العربية والأجنبية المترجمة.
هـ - الابحاث والمقالات العربية والأجنبية المترجمة.
و - المراجع والأبحاث والمقالات الأجنبية.

أ - القرآن الكريم،

ب- المصادر غير المطبوعة (المخطوطات)،

ابن اياس، محمد بن احمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):

١- نشق الازهار في عجائب الاقطار، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (٨٧٢) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في المكتبة البريطانية تحت رقم «٧٥٠٣».

ابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م):

٢- الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (٨٨٢) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب تحت رقم (١٢١٢):

ابن السباهي، محمد بن علي (ت ٩٩٧هـ/١٥٨٨م):

٣- اوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (٥٥٩) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في البودليان، اكسفورد، مجموعة بوكك تحت رقم (٣٠٢).

ابن طولون، محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م):

٤- الشمعة المضيئة في اخبار القلعة الدمشقية، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية، رقم (١٣٨٩) وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم (٢٩٥).

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م):

٥- مسالك الابصار في ممالك الامصار (السفر الثاني) مخطوط منشور عن معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، جامعة فرانكفورت، المانيا الاتحادية، ١٩٨٨م. وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة السليمانية في استنبول تحت رقم (٢٢٢٧).

ابو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م):

٦- مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة والخلافة، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية، رقم (٢٢٣) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة برنستون، مجموعة لاندبيرج، تحت رقم (٥٩٧).

الجزيري، عبدالحق بن نجل (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):
٧- حوادث الزمان (٦٨٩-٦٩٨هـ) مخطوط لدى الدكتور نعمان جبران وهو مصور عن مخطوط محفوظ في مكتبة باريس تحت رقم (٢٤٣٣).
الخالدي، بهاء الدين محمد بن احمد (ت٩٣٧هـ/١٥٣٠/١٥٣١م):
٨- المقصد الرفيع الهادي الى صناعة الانشاء، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (١٠٢٧) وهو مصور عن مخطوط محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم (٤٤٣٩).
الذهبي، شمس الدين (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م):
٩- تاريخ الاسلام بين سنتي (٦٨١-٧٠٠هـ) مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية، رقم (١٨٥٤) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في المتحف البريطاني تحت رقم (٤٨٥٧).
مغلطاي، ابراهيم (ت بعد ٧٣٢هـ/١٣٣١م):
١٠- تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وامرائها، مخطوط، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية رقم (١٠٤٢). وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية في باريس تحت رقم (٤٠٠).

ج - المصادر المطبوعة العربية والأجنبية المترجمة.

ابن الاثير، علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

١١- الكامل في التاريخ، ١٠ اجزاء، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/١٤٧٦م):

١٢- العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك مع (رحلة الامير يشبك بن مهدى الدوادار) ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م.

ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م):

١٣- كتاب معالم القربة في احكام الحسبة، دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.

ابن اياس، محمد بن احمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):

١٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ اجزاء، تحقيق محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢-١٩٨٤م.

ابن أيبك، بن عبدالله الدواداري (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م):

١٥- كنز الدرُر وجامع الغررُ (الجزء التاسع وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التاليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن بسام، محمد بن احمد (ت بعد ٨٨٤هـ/١٤٧٤م):

١٦- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

١٧- رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار)، ٢ جزء، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن تيمية، تقي الدين احمد (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م):

١٨- الحسبة في الاسلام، تحقيق سيد بن محمد بن ابي سعده، ط١، مكتبة دار الارقم، الكويت، ١٩٨٣م.

ابن جبير، محمد بن احمد الاندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م):

١٩- رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م.

ابن جعفر، قدامه (ت٣١٠هـ/٩٢٢م):

٢٠- الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.

ابن الجيعان، بدرالدين ابو البقاء (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م):
٢١- القول المستظرف في سفر مولانا الملك الاشرف، او (رحلة قايتباي الى بلاد الشام -٨٨٢هـ/١٤٧٧م) تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط١، جروس برس، بيروت، ١٩٨٤م.
ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م):
٢٢- كتاب المحبر، دار الافاق الجديدة، بيروت، (د.ت).
ابن حبيب، حسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
٢٣- تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه، ٢ جزء، تحقيق محمد محمد امين، مطبعة دار الكتب بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦-١٩٨٢م.
ابن حجر، شهاب الدين احمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):
٢٤- الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ٥ اجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.
٢٥- انباء الغمر بابناء العمر في التاريخ، ٩ اجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
ابن حوقل، أبو القاسم محمد (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م):
٢٦- كتاب صورة الارض، (القسم الاول)، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.
ابن خرداذبة، عبيدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م):
٢٧- كتاب المسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.
ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):
٢٨- مقدمة ابن خلدون (وهو الجزء الاول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر)، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.
٢٩- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ١٤ جزء، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
ابن دقماق، ابراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):
٣٠- الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، ٢ جزء في مجلد، تحقيق محمد كمال الدين، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٥م.
ابن الربيع، احمد بن محمد (ت في ق٥ هـ/١١م):
٣١- سلوك الممالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، ط١، تراث عويدات، بيروت، ١٩٧٨م.

ابن سعيد، علي بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م):
٣٢- كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط١، منشورات المكتب الجغرافي، بيروت، ١٩٧٠م.
٣٣- كتاب بسط الارض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، معهد مولاى الحسن، تطوان ١٩٥٨م.
ابن سلام، ابوعبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م):
٣٤- كتاب الاموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ١٩٨١م.
/ابن شاهين، غرس الدين خليل (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م):
٣٥- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، المطبعة الجمهورية، باريس. ١٩٨٤م.
ابن الشحنه، حسين بن محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م).
٣٦- الدُّر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي وعالم التراث، دمشق، ١٩٨٤م.
٣٧- البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م، (منسوب اليه).
ابن شداد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م):
٣٨- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين الايوبي، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
/ابن شداد، عز الدين ابي عبدالله محمد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م):
٣٩- الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة. (الجزء الاول-القسم الاول) تحقيق دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣م.
(تاريخ مدينة دمشق) تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦م. (تاريخ لبنان والاردن وفلسطين) تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م.
٤٠- تاريخ الملك الظاهر، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٩٨٣م.
ابن صصري، محمد بن محمد (ت قبل ق ٩هـ/١٥م):
٤١- كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم م. بريز، مكتبة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٣م.

ابن الصيرفي، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م):
٤٢- نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، ٣ اجزاء، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٣م.
٤٣- انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.
ابن طولون، محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٩٤٦م):
٤٤- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ٢ قسم، تحقيق محمد احمد دهمان، ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٠-١٩٨١م.
٤٥- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) ٢ جزء، تحقيق محمد مصطفى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢-١٩٦٤م.
٤٦- اعلام الورى بمن ولى نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد احمد دهمان، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٤م.
٤٧- قرة العيون في اخبار باب جيرون، تحقيق صلاح الدين المنجد، (د.ن)، دمشق، ١٩٦٤م.
٤٨- رسائل تاريخية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، ١٣٤٨هـ
٤٩- تاريخ المزة وآثارها، تحقيق محمد عمر حماده، ط١، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣م.
٥٠- ضوء السراج فيما قيل في النساج، تصحيح ودراسة ليلى الصباغ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ١٩٧٨م، ص (٣٥-٩٤).
٥١- ضرب الحوطة على جميع الغوطة، نشرها نشراً جديداً وعلق عليها محمد اسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، م٢١، شباط، ١٩٤٦م. ص (١٤٩-١٦١).
٥٢- حارات دمشق القديمة، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٧، ص (٣٣-٣٥).
ابن عبدالرؤوف وآخرون:
٥٣- ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.
ابن العبدري، محمد بن محمد (ت في ق ٨هـ/١٤م):
٥٤- رحلة العبدري المسماه (الرحلة المغربية) تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم، الرباط، ١٩٦٨م.
ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):
٥٥- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط١، (د.ن)، الرياض، ١٩٧٦م.

ابن عبدون وآخرون:
٥٦- ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.
ابن العديم، كمال الدين ابي القاسم عمر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):
٥٧- زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣ اجزاء، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، (د.ت).
٥٨- بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ جزء، تحقيق سهيل زكار، مطابع دار البعث، دمشق، ١٩٨٨م.
ابن العراقي، احمد بن عبدالرحيم (ت ٨٢٦هـ/١٤٢٢م):
٥٩- الذيل على العبر في خبر من عبر، ٣ اجزاء، تحقيق صالح مهدي عباس، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
ابن عربشاه، شهاب الدين احمد (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م):
٦٠- عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق احمد فايز الحمصي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
ابن عساكر، علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م):
٦١- تاريخ مدينة دمشق (المجلدة الثانية-القسم الاول-خطط دمشق) تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٩٥٤م.
ابن العماد الحنبلي، عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):
٦٢- شذرات الذهب، في اخبار من ذهب، ٨ اجزاء، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، في دار الافاق الجديدة، دار الافاق الجديدة، بيروت، (د.ت).
ابن عمر الاندلسي، يحيى (ت ٢٨٩هـ/ ٩٠١م):
٦٣- كتاب النظر والاحكام في جميع احوال السوق، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٥م.
ابن عوض المغربي، احمد (ت في ق ١١هـ/ ١٧م):
٦٤- قطف الازهار في خصائص المعادن والاحجار ونتائج المعارف والاسرار، تحقيق بروين بدري توفيق، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):
٦٥- مسالك الابصار في ممالك الامصار.
(الجزء الاول) تحقيق احمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م. (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) تحقيق ايمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٥م.

(قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين) تحقيق دوروتيا كرافولسكي، ط١، المركز الاسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م.
٦٦- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):
٦٧- تاريخ الدول والملوك، (المجلد التاسع-الجزء الثاني)، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الاميركانية، بيروت، ١٩٣٨م.
ابن الفقيه، احمد بن محمد الهمذاني (ت حوالي ٢٩٠هـ/٩٠٣م):
٦٨- مختصر كتاب البلدان، مطبع بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ.
ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن احمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م):
٦٩- تاريخ ابن قاضي شهبة (الجزء الثالث)، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.
ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):
٧٠- الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي)، تحقيق محمود زايد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.
ابن القلانسي، ابو يعلي حمزه (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م):
٧١- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
ابن كثير، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):
٧٢- البداية والنهاية، ١٤ جزء في ٧ مجلدات، تحقيق احمد ابو ملحم واخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م):
٧٣- المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان، مطبوعات مديرية الاثار القديمة العامة، دمشق، ١٩٤٧م.
٧٤- المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت اسماعيل، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة دمشق، ١٩٨٢م.
ابن المبرد، جمال الدين يوسف بن حسن (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م):
٧٥- (غدق الافكار في ذكر الانهار، عدة الملمات في تعداد الحمامات، الاعانات في معرفة الخانات، نزهة الرفاق في شرح حالة الاسواق)، في كتاب رسائل دمشقية، تحقيق صلاح محمد الخيمي، ط١، دار ابن كثير، بيروت، دمشق، ١٩٨٨م.

٧٦- نزهة الرفاق في شرح حالة الاسواق، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩م، ص (١٩-٢٨).
٧٧- كتاب الحسبة، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٧م. ص (٣٨٤-٣٩٠).
٧٨- ثمار المقاصد في ذكر المساجد، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١هـ/١٣١١م):
٧٩- لسان العرب المحيط، ١٥ مجلد، دار صادر، بيروت، (د.ت).
ابن هشام، ابو محمد عبدالملك بن هشام بن ايوب (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م):
٨٠- السيرة النبوية، ٤ اجزاء، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي واولاده، مصر، ١٩٥٥م.
ابن منقذ، اسامة (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م):
٨١- كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م.
ابن واصل، جمال الدين محمد (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٩م):
٨٢- مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (الجزء الثاني والثالث)، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٥٧م. (الجزء الرابع)، تحقيق حسنين محمد ربيع، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م.
ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨):
٨٣- تتمة المختصر في اخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) تحقيق احمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠.
٨٤- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط٢، مطبعة البابي الحلبي، مصر (د.ت)
ابن يحيى، صالح، (ت نحو ٨٤٠هـ/١٤٣٦م):
٨٥- تاريخ بيروت وهو (اخبار السلف من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت) تحقيق فرسيس هورس اليسوعي وآخرون، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
أبو شامة، شهاب الدين ابي محمد عبدالرحمن (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م):
٨٦- الروضتين في اخبار الدولتين، ٢ جزء في مجلد، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
٨٧- تراجم رجال القرنيين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):
٨٨- كتاب تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.
٨٩- المختصر في اخبار البشر، ٤ اجزاء، المطبعة الحسينية المصرية، (د.ت).

٩٠- اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، تحقيق محمد كمال وفالح البكور، ط١، دار القلم العربي، حلب، سورية ١٩٨٩م (منسوب اليه).

ابو الفضل الدمشقي، جعفر بن علي، (ت بعد ٥٧٠هـ/١١٧٥م):

٩١- كتاب الاشارة الى محاسن التجارة، ط١، دار الاتحاد العربي، (د.م) ١٩٧٣م.

ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).

٩٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، من جزء (١-١٢) طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٣م. (جـ١٣)، حققه محمد فهيم شلتوت، ١٩٧٠م. (جـ١٤)، حققه جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت، ١٩٧١م. (جـ١٥)، حققه ابراهيم علي طرخان، ١٩٧١م. (جـ١٦)، حققه جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت، ١٩٧٢م.

٩٣- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٤ اجزاء، (جـ١، جـ٢، جـ٤) تحقيق محمد محمد امين، (جـ٣) تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤-١٩٨٦م.

الادريسي، محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م):

٩٤- من نزهة المشتاق في اختراق الافاق (سورية ولبنان وفلسطين والاردن)، تحقيق ابراهيم شوكة، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٣٠، ١٩٧٩م. ص (٣-٢١).

الاسدي، محمد بن محمد بن خليل (ت بعد ٨٥٥هـ/١٤٥١م):

٩٥- التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط١، دار الفكر العربي، (د.م)، ١٩٦٨م.

الاسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد النويري (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٢م):

٩٦- كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية، ٥ اجزاء، بدأ بتحقيقه ايتين كومن واتم تحقيقه والتعليق عليه عزيز سوريال عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٩٦٨-١٩٧٣م.

الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي (ت في نهاية ق ٤/١٠م):

٩٧- كتاب مسالك الممالك، بريل، ليدن، ١٩٦٧م.

الاصفهاني، محمد بن محمد العماد الكاتب (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م):

٩٨- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمود صبح، (د.ن)، القاهرة، ١٩٦٥م.

بامخرمه، ابو محمد الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م).
٩٩- البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه (نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني "بامخرمة" كما سجلها في مخطوط قلائد النحر) دراسة وتحقيق محمد عبدالعال، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٩م.
البخاري محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م):
١٠٠- صحيح البخاري: ٩ اجزاء، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
البدري، عبدالله بن محمد (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م):
١٠١- نزهة الانام في محاسن الشام، ط١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
البُصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت ٩٠٥هـ/١٤٩٩م):
١٠٢- تاريخ البُصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة ٨٧١هـ ولغاية سنة ٩٠٤هـ) تحقيق اكرم حسن العلبي، ط١، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٩٨٨م.
البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):
١٠٣- مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، (وهو مختصر معجم البلدان لياقوت) ٣ اجزاء، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٥م.
البندري، فتح بن علي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م):
١٠٤- سنا البرق الشامي (وهو مختصر البرق الشامي للعماد الكاتب الاصفهاني) تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م.
البكري، عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):
١٠٥- معجم ما استعجم، ٤ اجزاء، تحقيق مصطفى الاسقا، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٥-١٩٥١م.
البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م):
١٠٦- فتوح البلدان، تحقيق عبدالله انيس الطباع وعمر انيس الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
التطيلي، بنيامين بن يونية (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م):
١٠٧- رحلة بنيامين ٥٦١-٥٦٩هـ نقلها الى العربية عزرا حداد، (د.ن) بغداد، ١٩٤٥م.
التيفاشي، احمد بن يوسف (ت ٦٥١هـ/١٢٥٣م):
١٠٨- كتاب ازهار الافكار في جواهر الاحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م):
١٠٩- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.
الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ/١٥٧٠م):
١١٠- الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ٣ اجزاء، دار اليمامة، الرياض، السعودية، ١٩٨٣م.
الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م):
١١١- الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية، ٦ اجزاء، تحقيق احمد عبدالغفور عطا، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
الحسيني، محمد بن علي الحسن بن شمس الدين (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م):
١١٢- ذيل العبر وهو ذيول العبر للذهبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.
الحموي، محمد بن علي (ت في ق ٧هـ/١٣م):
١١٣- التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) تحقيق ابو العبد دودو، مطبة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م.
الحميري محمد عبدالمنعم (ت ٩٠٠هـ/١٥١٤م).
١١٤- كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
١١٥- صفة جزيرة الاندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.
خسرو، ناصر (ت ٤٨١هـ/١٠٨٧م):
١١٦- سفر نامه (رحلة ناصرخسرو الى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري)، نقلها الى العربية، يحيى الحشاب، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م.
الذهبي، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):
١١٧- دول الاسلام، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥م.
١١٨- سير اعلام النبلاء، (جـ٢٠)، تحقيق شعيب الارنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، (جـ٢١-٢٣) تحقيق بشار عواد معروف ومحي هلال السرحان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
١١٩- ذيول العبر في خبر من غبر، ٤ اجزاء، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

راوولف، ليونهارت:
١٢٠- رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣م، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م.
الزبيدي، ابو بكر محمد بن الحسين (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م):
١٢١- تاج العروس، ١٠ مجلدات، دار ليبيا، بنغازي، ١٩٦٦م.
السبكي، تاج الدين عبدالوهاب (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م).
١٢٢- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط١، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٨م.
السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م):
١٢٣- الضوءاللامع لاهل القرن التاسع، ١٢ جزء، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤هـ
١٢٤- كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، (د.ت).
السمهودي، نور الدين علي بن احمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م):
١٢٥- وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، ٢ جزء، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م.
السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).
١٢٦- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
١٢٧- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ٢ جزء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط١، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٨م.
شيخ الربوه، شمس الدين محمد (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م):
١٢٨- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).
الشيزري، عبدالرحمن بن نصر (٥٨٩هـ/١١٩٣م):
١٢٩- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):
١٣٠- كتاب الوافي بالوفيات ١٢ جزء، فرانز شتايز بفيسبادن. الجزئين (١، ٣)، تحقيق هلموت ريتر، ١٩٦١-١٩٦٢م. والاجزء (٢، ٤، ٦)، تحقيق س ديدرينغ ١٩٧٠-١٩٧٤م. (جـ٧)، تحقيق احسان عباس، ١٩٦٩م. (جـ٨)، تحقيق محمد يوسف نجم، ١٩٨٢م.(جـ٩)، تحقيق يوسف فان اس، ١٩٨٢م، (جـ١٠) تحقيق جالكين سوبله وعلي عمارة، ١٩٨٢م. (جـ١١)، تحقيق شكري فيصل،١٩٨١م. (جـ١٢)، تحقيق رمضان عبدالتواب، ١٩٧٩م.

الصفاعي، فضل الله بن ابي الفخر (ت بعد ٧٢٥هـ/١٣٢٤م):
١٣١- تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سويله، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م.
الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/١٩٢٢م):
١٣٢- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ١٠ اجزاء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
العليمي الحنبلي، مجير الدين (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م):
١٣٣- الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ جزء في مجلد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.
العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م):
١٣٤- عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان
حوادث وتراجم (٦٤٨/١٢٥٠-٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، ٢ جزء، تحقيق محمد محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧-١٩٨٨م.
حوادث وتراجم (٨٢٤/١٤٢١-٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٩م.
الغزي، نجم الدين (ت ١٠٦١هـ/١٦٥٠م):
١٣٥- الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة، ٣ اجزاء تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الاميركانية، ومطبعة المرسلين اللبنانيين، ١٩٤٥-١٩٤٩م.
القرماني، احمد بن يوسف بن احمد (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م):
١٣٦- كتاب اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
القزويني، زكريا بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):
١٣٧- آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).
١٣٨- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط٤، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.
القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٦هـ/١٢٤٨م):
١٣٩- ابناء الرواة على انباء النحاة، ٤ اجزاء، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م.
القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):
١٤٠- مآثر الانافة في معالم الخلافة، ٣ اجزاء، تحقيق عبدالستار احمد فراج، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
١٤١- صبح الاعشى في صناعة الانشا، ١٤ جزء، ط١، دار الفكر، (د.م) ١٩٨٧م.

الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):
١٤٢- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣-١٩٧٤.
١٤٣- عيون التواريخ، (الجزء الحادي والعشرون)، تحقيق نبيلة عبدالمنعم وفيصل السامر، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٤م.
الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٧م):
١٤٤- الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
المرزوقي، أبو علي (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م):
١٤٥- كتاب الأزمنة والأمكنة، دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ١٣٣٢هـ.
المقدسي، شمس الدين ابو عبد الله (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م):
١٤٦- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت).
المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):
١٤٧- اغاثة الامة بكشف الغمة او (تاريخ المجاعات في مصر) مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة (د.ت).
١٤٨- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف (بخطط المقريزي) ٣ اجزاء، دار صادر، بيروت، (د.ت)
١٤٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، الاجزاء الاولى (١-٢) تحقيق محمد مصطفى، والاجزاء (٣-٤) تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٢م.
١٥٠- النقود القديمة والاسلامية، تحقيق رأفت محمد النبراوي، مجلة العصور، م٣، ج١، يناير، ١٩٨٨م، ص (١١٧-١٤٧).
١٥١- اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطمين الخلفا، ٣ اجزاء، (جـ١) تحقيق جمال الدين الشيال، (جـ٢-٣) تحقيق محمد حلمي محمد، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، ١٩٧١م.
المنصوري، بيبرس (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م):
١٥٢- التحفة الملوكية في الدولة التركية (تاريخ دولة المماليك البحرية من ٦٤٨-٧١١هـ)، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.

النابلسي، عبدالغني (ت ١١٤٣هـ١٧٣١م):
١٥٣- الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبدالحميد مراد، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٩م.
١٥٤- علم الملاحة في علم الفلاحة، ط١، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م.
النعيمي، عبدالقادر (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م):
١٥٥- الدارس في تاريخ المدارس، ٢ جزء، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١م.
النويري، شهاب الدين احمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):
١٥٦- نهاية الارب في فنون الادب، ٣١ جزء من (١-٢١) جزء نسخه مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة (د.ت). (جـ٣٠) تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.
الهروي، علي بن ابي بكر (ت ٦١١هـ/١٢١٤م):
١٥٧- كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣.
الهمذاني، حسن بن احمد (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م):
١٥٨- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.
الورثيلاني، حسين بن محمد (ت ١١٩٣هـ/١٧٧٨م):
١٥٩- نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.
لابروكييه، برتراندون:
١٦٠- رحلة برتراندون دي لابروكييه الى فلسطين، ولبنان، وسورية، (١٤٣٢م). ترجمة محمود زايد، من مجلة الابحاث، جزء ٣، السنة ١٥، ايلول ١٩٦٥.
ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م):
١٦١- معجم البلدان، ٥ اجزاء، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.
اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م).
١٦٢- تاريخ اليعقوبي، ٢ جزء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

اليوسفي، موسى بن محمد (ت ٧٥٩هـ/٨٩٥م):
١٦٣- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق احمد حطيط، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.
اليونيني، قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م):
١٦٤- ذيل مرآة الزمان، ٤ اجزاء، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٤-١٩٦٠.

د- المراجع العربية والأجنبية المترجمة:

أبو دلو، ربى احمد
١٦٥- معاصر السكر في غور الاردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين في ضوء المصادر التاريخية والمكتشفات الاثرية، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة اليرموك، ١٩٩١م.
ابو دمعه، أمين:
١٦٦- الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الايوبي، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة دمشق، ١٩٨٨م.
ابو زيد، سهام:
١٦٧- الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
الأسدي، خير الدين:
١٦٨- احياء حلب واسواقها، تحقيق عبدالفتاح رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٨٤م.
١٦٩- موسوعة حلب المقارنة، ط١، مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤م.
آ. أشتور:
١٧٠- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبله، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.
الافغاني، سعيد:
١٧١- اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٠م.

الالوسي، محمود شكري:
١٧٢- بلوغ الارب في معرفة احوال العرب، ٣ أجزاء، دار الكتاب العربي، مصر، (د.ت)
الامام، رشاد:
١٧٣- مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣-١٥١٦م)، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٦م.
أمين، محمد محمد:
١٧٤- الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية وثائقية، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.
باشا، نجاة:
١٧٥- التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٦م.
البخيت، محمد عدنان:
١٧٦- مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط١، (د.ن-د.م) ١٩٧٦م.
بدران، عبدالقادر:
١٧٧- منادمة الاطلال ومسايرة الخيال، المكتب الاسلامي، دمشق، (د.ت).
البستاني، بطرس:
١٧٨- دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
البقلي، محمد قنديل:
١٧٩- التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٣م.
البيشاوي، سعيد عبدالله:
١٨٠- نابلس خلال الحروب الصليبية "١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ"، (د.ن)، عمان، ١٩٩١م.
جوايتاين، د.س:
١٨١- دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامي، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.
جوده، صادق احمد داود:
١٨٢- مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
جبران، نعمان محمود:
١٨٣- مملكة حماه في العهدين الايوبي والمملوكي الاول (٥٧٠/١١٧٤-٧٨٣هـ/١٣٨١م) رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٨١م.

الجبرتي، عبد الرحمن:
١٨٤- تاريخ عجائب الآثار والتراجم والأخبار، ٣ أجزاء، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨م.
حتي، فيلب:
١٨٥- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢، ترجمة كمال اليازجي، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
١٨٦- مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد جرجس نصار، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.
الحجي، حياة ناصر:
١٨٧- احوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨/١٢٧٩-٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، ط١، شركة كاظمة، الكويت ١٩٨٤.
الحسني، علي:
١٨٨- تاريخ سوريا الاقتصادي، مطبعة بدائع الفنون، دمشق، ١٣٤٢هـ.
الحصيني، محمد اديب:
١٨٩- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، ٣ اجزاء في مجلد، ط١، دار الافاق، بيروت، ١٩٧٩م.
حلاق، عبدالله يوركي:
١٩٠- حلبيات، هدية مجلة الضاد بدلاً من الاعداد (٨-١١)، ١٩٨٣م.
حموده، عبدالرحمن سعيد:
١٩١- بيت المقدس في عهد المماليك، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة الازهر، ١٩٧٩م.
حمور، عرفان محمد:
١٩٢- اسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩م.
حوراني، جورج فضلو:
١٩٣- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، مكتبة الانجلو المصرية، (د.ت).
الحياري، مصطفى:
١٩٤- الامارة الطائية في بلاد الشام، ط١، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧م.
خرابشه، سليمان:
١٩٥- مملكة طرابلس في العهد المملوكي، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٨٥م.

خير الدين، صفوح:
١٩٦- مدينة دمشق (دراسة في جغرافية المدن)، منشورات وزارة الثقافة والسياسية والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩م.
داود، جورج فريد:
١٩٧- مدينة حلب في العصر المملوكي الاول، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٧٧م.
دراج، احمد:
١٩٨- وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨م.
دهمان، محمد احمد:
١٩٩- ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م.
٢٠٠- في رحاب دمشق، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م.
الدوري، عبدالعزيز:
٢٠١- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط٣، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠م.
دوزي، رينهارت:
٢٠٢- تكملة المعاجم العربية، ٦ أجزاء، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
ديماند، م.س.:
٢٠٣- الفنون الاسلامية، ترجمة احمد محمد عيسى، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م.
رمضان، احمد:
٢٠٤- المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، (د.ن)، القاهرة، ١٩٧٧م.
رنسيمان، ستيفن:
٢٠٥- تاريخ الحروب الصليبية، ٣ اجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م.
الروسان، محمد سليمان:
٢٠٦- تطور الحمام في بلاد الشام في العصر الاسلامي المبكر في ضوء المصادر التاريخية والمستجدات من الاكتشافات الاثرية، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة اليرموك، ١٩٨٩م.
الريحاوي، عبدالقادر:
٢٠٧- مدينة دمشق، (د.ن)، دمشق، ١٩٦٩م.

٢٠٨- العمارة العربية الاسلامية، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م.

الزربا، فريال بدوي:

٢٠٩- الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الاردنية، ١٩٨٠م.

زغلول، سعد:

٢١٠- العمارة والفنون في دولة الاسلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، (د.ت).

زيادة، نقولا:

٢١١- الحسبة والمحتسب في الاسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م.

٢١٢- رواد الشرق في العصور الوسطى، ط١، هدية المقتطف، ١٩٤٣م.

٢١٣- دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦م.

زيتون، عادل:

٢١٤- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصورالوسطى، ط١، دار دمشق، دمشق،١٩٨٠م.

سابق، سيد:

٢١٥- فقه السنه، ٣ اجزاء، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

سالم، السيد عبدالعزيز.

٢١٦- طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٦٦م.

سبانو، غسان:

٢١٧- مملكة حماة الايوبية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤م.

سعيد، ابراهيم حسن:

٢١٨- البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

سوفاجية، جان:

٢١٩- دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م.

السويدي، محمد أمين البغدادي:

٢٢٠- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ت).

الشافعي، فريد محمود:

٢٢١- العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عمادة شؤون

المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ١٩٨٢م.
صالحية، محمد عيسى:
٢٢٢- الاضاءة في المدينة الاسلامية، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣م.
ضومط، انطوان خليل:
٢٢٣- الدولة المملوكية، ط٢، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢م.
الطباخ، محمد راغب:
٢٢٤- اعلام النبلاء بتاريخ حلب، ٧ اجزاء، ط٢، دار القلم العربي، حلب، ١٩٨٨م.
الطراونه، طه ثلجي:
٢٢٥- مملكة صفد في عهد المماليك، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.
طرخان، ابراهيم علي:
٢٢٦- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
العارف، عارف:
٢٢٧- المفصل في تاريخ القدس، (الجزء الاول)، ط١، مكتبة الاندلس، القدس، ١٩٦١م.
عاشور، سعيد عبدالفتاح:
٢٢٨- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.
٢٢٩- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
عاشور، فايد حماد:
٢٣٠- العلاقة بين البندقية والشرق الادنى الاسلامي في العصر الايوبي، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٠م.
٢٣١- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
عاشور، محمد:
٢٣٢- دراسة في الفكر الاقتصادي العربي، (ابو الفضل جعفر بن علي الدمشقي)، ط١، دار الاتحاد العربي، ١٩٧٣م.
عبدالخالق، هناء:
٢٣٣- الزجاج الاسلامي في متاحف ومخازن الاثار في العراق، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٦م.

عبدالرزاق، احمد:
٢٣٤- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
العسلي، كامل جميل:
٢٣٥- وثائق مقدسية تاريخية، ٢ جزء، ط١، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٣-١٩٨٥م.
عطالله، محمود علي:
٢٣٦- نيابة غزة في العهد المملوكي، ط١، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م.
العلبي، اكرم حسن:
٢٣٧- خطط دمشق (دراسة تاريخية شاملة على مدى الف عام من سنة ٤٠٠-١٤٠٠هـ)، ط١، دار الطباع، دمشق، ١٩٨٩م.
٢٣٨- دمشق بين المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م)، ط١، الشركة العربية المتحدة، دمشق، ١٩٨٢م.
٢٣٩- معارك المغول الكبرى، ط١، دار المأمون للتراث، (د.م)، ١٩٨٨م.
علي، جواد:
٢٤٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠اجزاء، ط٢، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٠م.
علي، علي السيد:
٢٤١- القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م.
عيسى، احمد:
٢٤٢- تاريخ البيمارستانات في الاسلام، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
غالب، عبدالرحيم:
٢٤٣- موسوعة العمارة الاسلامية، ط١، جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م.
الغزي، كامل بن حسين:
٢٤٤- نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣ اجزاء، المطبعة المارونية، حلب، (د.ت).
غوانمه، يوسف حسن:
٢٤٥- امارة الكرك الايوبية، منشورات بلدية الكرك، الاردن، ١٩٨٠م.
٢٤٦- تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى (القسم الحضاري) جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٩م.
٢٤٧- الزلازل في بلاد الشام في العصر الاسلامي واثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر، عمان، ١٩٩٠م.
٢٤٨- عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء، عمان، ١٩٧٩م.

٢٤٩- أيله (العقبة) والبحر الاحمر واهميتها التاريخية والاستراتيجية، دار هشام، اربد، ١٩٨٤م.
٢٥٠- تاريخ نيابة بيت المقدس، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م.
٢٥١- مدينة اربد في العصر الاسلامي، منشورات مركز الدراسات الاردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م.

فهمي، عبدالرحمن:
٢٥٢- النقود العربية ماضيها وحاضرها، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤م.

فهمي، نعيم زكي:
٢٥٣- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

القاسمي، محمد سعيد وآخرون:
٢٥٤- قاموس الصناعات الشامية، ٢ جزء في مجلد، تحقيق ظافر القاسمي، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

كرد علي، محمد:
٢٥٥- خطط الشام، ٦ اجزاء، (د.ن)، بيروت، ١٩٧١م.

كيال، منير:
٢٥٦- الحمامات الدمشقية، (د.ن-د.م)، ١٩٨٦م.

لوبون، غوستاف:
٢٥٧- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط٣، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦م.

لوفران، جورج:
٢٥٨- تاريخ التجارة، ترجمة هشام الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

لويس، أرشيبالد:
٢٥٩- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة محمد أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).

ماجد، عبدالمنعم:
٢٦٠- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
٢٦١- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ٢جزء، مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٤م.

مايـر، ل.م:
٢٦٢- الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
المبيض، سليم عرفان:
٢٦٣- النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية والأجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
محاسنه، محمد حسين:
٢٦٤- الأحوال الإقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة بغداد ١٩٨٦م.
المدني، زياد عبدالعزيز:
٢٦٥- مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب (الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب لعلاء الدين أبو الحسن إبن الناصرية الحلبي المتوفى عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الأردنية، ١٩٨٣م.
موسى، عز الدين:
٢٦٦- النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
الموسوي، مصطفى عباس:
٢٦٧- العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٤م.
ميتز، آدم:
٢٦٨- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ جزء، ترجمة محمد عبدالهادي، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).
هايد، ف:
٢٦٩- تاريخ التجارة في الشرق الإدنى في العصور الوسطى، (الجزء الأول) ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
هنتس، فالتر:
٢٧٠- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م.
ولستنجر، كارل:
٢٧١- الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، عربه عن الألمانية قاسم طوير، (د.ن)، دمشق، ١٩٨٤.

لابيدوس، إيرا مارفيس:
٢٧٢- مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة سهيل زكار، ط١، دار حسان، دمشق، ١٩٨٥م.
اليوزبكي، توفيق:
٢٧٣- تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مؤسسة دار الكتب، العراق، ١٩٧٥م.
٢٧٤- دراسات في النظم العربية الإسلامية، ط٣، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٨م.

هـ- الأبحاث والمقالات العربية والأجنبية المترجمة:

أبيش، يوسف:
٢٧٥-المؤسسات الاقتصادية بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م. ص (١٢١-١٣٢).
آزاد، علي:
٢٧٦-البنية النظرية لكتاب الانيق في المناجيق لابن اربقا الزردكاش، دراسات تاريخية، عدد ٣٣-٣٤. ايلول، كانون الاول، ١٩٨٩م. ص (١٤٣-١٦٠)
أسكندر، توفيق:
٢٧٧- نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العهد الوسيط، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ٦، ١٩٥٧م. ص (٣٧-٤٦).
أليسييف، نيكتيا:
٢٧٨- التخطيط المادي بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م ص (٩٥-١٠٧).
بهنسي، عفيف:
٢٧٩- المدينة العربية الاسلامية ونموذجها دمشق القديمة، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ٢٦، ١٩٧٦م ص (٩-٢٦)
٢٨٠- صناعة السيوف الدمشقية، (ابحاث الندوة العلمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب) مطبعة جامعة حلب، ١٩٧٧م ص (٤٩٥-٥٠٨).
تدمري، عمر عبدالسلام:
٢٨١- نصوص كتابات تاريخية على عمارة طرابلس الاسلامية في عصر المماليك (المراسيم السلطانية)، مجلة تاريخ العرب والعالم، عدد ٣٥، ايلول ١٩٨٨١م. ص (١٠-٢٤).

التميمي:
٢٨٢- النظم والطرق التجارية في الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية، مجلة المقتطف، مجلد ٩٨، جزء ٣، ابريل ١٩٤١م، ص (٢٧٣-٢٧٨).
حسن، محمد عبدالغني:
٢٨٣-التجارة في الاسلام، مجلة المقتطف، مجلد ١٠٣، جزء ٥، ايلول ١٩٤٣م. ص (٤٧٣-٤٧٨).
خريسات، محمد:
٢٨٤-التوسع العمراني في دمشق حتى اواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.
خصباك، جعفر حسين:
٢٨٥-احوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول، مجلة كلية الاداب بغداد، عدد ٤، آب ١٩٦١م. ص (١٥٨-١٧٢).
خضير، هاشم:
٢٨٦-المدينة الاسلامية وخصائصها في كتاب «بحوث المؤتمر الجغرافي» مركز البحوث، السعودية، مجلد ٥، ١٩٨٤م، ص (٥-٤٧).
٢٨٧-دائرة المعارف الاسلامية، اصدر بالالمانية والانجليزية والفرنسية، واعتمد في الترجمة على الاصلين الانجليزي والفرنسي، ترجمة خورشيد وآخرون، انتشارات جهان تران، بوذر حمبري (د.ت).
دراج، احمد السيد:
٢٨٨-الحسبة واثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٤، ١٩٦٨م، ص (١٢٧-١٤١).
درادكه، صالح:
٢٨٩- طريق الحج الشامي في العهد الاموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، مجلد ١، ١٩٨٧م، ص (٤٢٧-٤٦١).
الدوري، عبدالعزيز:
٢٩٠- المؤسسات الحكومية، بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكيومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م. ص (٥٣-٦٨).
٢٩١- نشوء الاصناف والحرف في الاسلام، مستل من مجلة كلية الاداب بغداد، عدد ١، حزيران، ١٩٥٩م، ص (١-٣٧).

دوكسوسو، غستون:
٢٩٢- تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة المشرق، مجلد ١٥، عدد ٤، ١٩١٢م. ص (٢٨٠-٢٨٧).
الرباط، ناصر:
٢٩٣- مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق من القرن السابع حتى القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ٣٨-٣٩، ١٩٨٨-١٩٨٩. ص (٧٥-١٠٤).
الريحاوي، عبد القادر:
٢٩٤- خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد ٢٥، ١٩٧٥، ص (٤٧-٦٣).
زايد، محمود:
٢٩٥- دراسات للتقسيمات الادارية في فلسطين، «المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براترندون دى لابروكييه ١٤٣٢م»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، مجلد٢، ١٩٨٣م. ص (٥٨٢-٥٩٢).
زكي، عبدالرحمن:
٢٩٦- المدنية الاسلامية، مجلة الفيصل، عدد ٢٧، اغسطس ١٩٧٩م. ص (٩١-١٠١).
٢٩٧- صناعة السيوف، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٦، ١٩٥٦م ص (٨٥-٩٢).
زهدي، بشير:
٢٩٨- بناء المدن السورية وتنظيمها في العهد الهلنستي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ٤-٥، ١٩٥٤-١٩٥٥م. ص (٣٧-٥٢).
زيات، حبيب:
٢٩٩- دور البطيخ ببغداد ودمشق، مجلة المشرق، عدد ٢٧، ١٩٢٩م، ص (٧٦١-٧٦٤).
زياده، نقولا:
٣٠٠- فيلكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، مجلد ٢، ١٩٨٣م، ص (١٩٢-٢٠٦).
٣٠١- تجارة بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.
٣٠٢- الاسواق الاسلامية، مجلة المقتطف، مجلد ١٠٣، جزء ١، يوليو ١٩٤٣م ص (١٣٧-١٤١).
٣٠٣- طريق الحج في عصر المماليك، مجلة تاريخ العرب والعالم، عدد ١٣١، ١٩٨٩. ص (١٢-١٦).

سركيس، يعقوب:
٣٠٤- الاب الكرملي وكتابه النقود العربية وعلم النميات، مجلة المجمع العلمي العراقي، جزء ١، ايلول ١٩٥٠م، ص (٢٥٢-٢٩٤).
شالمتيا، بدور:
٣٠٥- الاسواق بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م. ص (١٠٩-١١٩).
صالح، محمد امين:
٣٠٦- تجارة البحر الاحمر في عصر المماليك الجراكسة، مجلة الدارة، عدد ٢، يناير ١٩٨١م، ص (١٢٦-١٤٦).
صالحية، محمد عيسى:
٣٠٧- من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حولية كلية الاداب جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥م.
٣٠٨- حفظ الفواكه غضة طرية لمدة طويلة في ضوء التراث العربي الاسلامي، مجلة العصور، المجلد ٥، الجزء ١، يناير ١٩٩٠م، ص (١٧٥-١٨٣).
٣٠٩- الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، بحث لم ينشر، ١٩٩١م.
ص،ي:
٣١٠- الصناعة السورية زمن الحرب الصليبية، مجلة المقتطف، مجلد ٣٣، جزء ٣، أذار، ١٩٠٨م، ص (٢٠٢-٢٠٦).
عاشور، سعيد عبدالفتاح:
٣١١- الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية بحث في كتاب بحوث في تاريخ الاسلام وحضارته، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص (٢٠١-٢٦٣).
العبادي، احمد مختار:
٣١٢- من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية، مجلة عالم الفكر، مجلد ١١، (ابريل، مايو، يونيو) ١٩٨٠، ص (١٢٧-١٦٠).
عبدالرحيم، مدثر:
٣١٣- المؤسسات القضائية، بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص (٤١-٥٢).
عبدالرسول، سليمة:
٣١٤- تمصير المدن الاسلامية في القرن الاول الهجري، المجلة التاريخية تصدرها الجمعية العراقية للتاريخ والآثار، عدد٢، ١٩٧٢م، ص (٢٠٦-٢٢٧).

عبد القوي، شوقي:
٣١٥- تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (٤١-٩٠٤هـ / ٦٦١-١٤٩٨م) عالم المعرفة الكويت، عدد ١٥١، تموز ١٩٩٠م.
عثمان، محمد عبدالستار:
٣١٦- المدينة الاسلامية، عالم المعرفة الكويت، عدد ١٢٨، آب ١٩٨٨م.
العريني، السيد الباز،
٣١٧- الحسبة والمحتسبون في مصر، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣، عدد ١، ١٩٥٠م ص (١٥٧-١٦٩).
العش، محمد ابو الفرج،
٣١٨- الزجاج السوري المموه بالميناء والذهب في العصر الوسيط، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ١٦، جزء ١، ١٩٦٦م. ص (٣٧-٥٥).
العمري، آمال:
٣١٩- دراسة لبعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١٠، جزء ٢، نوفمبر ١٩٦٤م. ص (٢٢٣-٢٧٣).
عواد، كوركيس:
٣٢٠- المباقل المحمولة، مجلة المقتطف، يوليو ١٩٤٣م، ص (١٧٠-١٧١).
الغنيم، عبدالله يوسف:
٣٢١- اسباب الزلالزل واحداثها، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٣٥، جزء ٤، تشرين الاول ١٩٨٤م، ص (١٧٥-٢٨٧).
غوانمة، يوسف حسن:
٣٢٢- التجارة الدولية في مناطق شرقي الاردن (من جنوب الشام) في العصرالمملوكي، دراسات تاريخية، عدد ٢٣-٢٤، أيلول، كانون الأول، ١٩٨٦م، ص (٨٦-١٠٢).
٣٢٣- الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، دراسات تاريخية، عدد ١٣، تشرين اول ١٩٨٣م. ص (٧٤-٨٥).
٣٢٤- التاريخ الاسلامي، بحث في الموسوعة الاردنية، جزء ١، ١٩٨٩م، ص(٢٢٩-٢٩٦) .
٣٢٥- نيابة بيت المقدس، بحث في كتاب دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣، ص (٢٢٣-٢٦٣).
قاسم عبده، قاسم:
٣٢٦- الاسواق في مصر في عصر سلاطين المماليك، مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة، مجلد ٣٦-٣٧، جزء ١-٢، ١٩٧٤-١٩٧٥م، ص (١٥٧-١٧٨).

٣٢٧- بعض مظاهر الحياة في عصر سلاطين المماليك، بحث في موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، بيروت، جزء ٣، ١٩٨٧م. ص (١٨٣-٢٣٤).

كاشف، سيده اسماعيل:

٣٢٨- دراسات في النقود الاسلامية، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥م. ص (٧٧-١٠٥).

كاهن، كلود:

٣٢٩- الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الاسلامية خلال القرون الوسطى، مجلد الاجتهاد، عدد ٦، شتاء ١٩٩٠م. ص (١٠٥-٢٠٦).

كرد علي، محمد:

٣٣٠- الحسبة في الاسلام، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١، جزء ٨، آب ١٩٢١م، ص (٢٥٧-٢٦٢).

٣٣١- جباية الشام في الاسلام، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١، جزء٨، آب، ١٩٢١م، ص (٣٢٩-٣٤٠)، (٣٥٩-٣٦٩).

لبيب، صبحي:

٣٣٢- سياسة مصر التجارية في عصر الايوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٨-٢٩، ١٩٨١-١٩٨٢م، ص (١١٧-١٤٥).

٣٣٣- التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤، ١٩٥١م. ص (٥-٦٣).

معايطة، زريف:

٣٣٤- الاسواق في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.

ملاحوش، عمر حامد:

٣٣٥- اسواق العرب واثرها في اللغة والأدب، مجلة كلية الاداب بغداد، مجلد ١، عدد ٢١، ١٩٧٧م، ص (٣٩٩-٤١٨).

المنجد، صلاح الدين:

٣٣٦- خطط مدينة دمشق، مجلة المشرق، مجلد ٤٢-٤٣؛ جزء ١-٣، ١٩٤٨-١٩٤٩م.

مؤنس، حسين:

٣٣٧- المساجد، عالم المعرفة الكويت، عدد ٣٧، كانون الثاني ١٩٨١م

ميشون، جان:

٣٣٨- المؤسسات الدينية، بحث في كتاب «المدينة الاسلامية» ترجمة محمد احمد تغلب، السيكومو فجر، اليونسكو، ١٩٨٣م. ص (١٣-٤٠).

ناجي، عبد الجبار:
٣٣٩- المدينة العربية الاسلامية في الدراسات الاجنبية، مجلة المورد، مجلد ٩، عدد ٤، شتاء ١٩٨٠م ص (١٣٦-١٧٠)
٣٤٠- خصائص المدنيةالعربية الاسلامية عند المؤلفين العرب، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٩، ١٩٨٦م. ص (١٤٩-١٨٠).
ناجي، معروف:
٣٤١- عروبة المدينة الاسلامية، مجلة كلية الاداب جامعة بغداد، عدد ٧، نيسان ١٩٦٤م، ص (٥-٥٨) .
لامنس، هنري:
٣٤٢- تجارة سواحل سورية في الاجيال المتوسطة، مجلة المشرق، مجلد ٩، عدد ٢، ١٩٠٦م، ص (٩١٩-٩٢٤).
يوسف، السيد محمد:
٣٤٣- علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور الى القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الاداب، جامعة فؤاد الاول، مجلد ١٥، جزء ١، مايو ١٩٥٣م. ص (١-٣٣).
يوسف، عبدالودود:
٣٤٤- جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر من مخطوطة تلميذ عبدالقادر النعيمي، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ٢٣، ١٩٧٣م. ص (١٨١-١٩٨).
٣٤٥- طوائف الحرف الصناعية في حماه في القرن السادس عشر، مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، مجلد ١٩، ١٩٦٩م. ص (٨٥-١٠٢).

و- المراجع والأبحاث والمقالات الأجنبية،

Burgoyne, M.H:

1 - Mamluk Jerusalem, the British school of Archealogy in Jerusalem by the world of Islam, London, 1984.

Combe, et al:

2 - Repertoire Chronologique D'epigraphie Arab Lecaire Imprimerie de L'institut Francais D'archeologie orientale (Vol. 12, 1943) (Vol 13, 1944) (Vol. 14, 1954) (Vol. 15, 1956) (Vol. 17, 1982).

3 - The Encyelopaedia of Islam, Leiden, E.J. Brill, 1978.

Goitein, S.D:

4 - A Mediterranean Society, 3 Vol's, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, California, 1967.

Golvin, L:

5- Quelques notes sur le suq Al - Qattanin et ses annexes A Jerusalem-Bulletin d'etudes orientales, Tome XX, 1967.pp (101-117).

Labib, S:

6 - Egyptian Commercial policy in the middle ages, in. M.K. Cook (ed.) studies in the Economic History of the Middle East, New work, 1970.pp(63-77).

Lapidus, Ira:

7 - Muslim Urban Society in Mamluk Syria, in A.H. Hourani and S.M. Stern, (eds.) the Islamic City, Oxford,1970,pp(195-206).

Omari, Abdullah:

8 - The Market Society of Greater Syrian in the later Middle Ages (1250-1517), University of Wisconsin-Milwaukee, 1986. (Unpublished Doctoral Thesis).

Ziadeh, N.A:

9- Urban Life in Syria Under the early Mamluks, Greenwood Press, Westport, connecticut, 1970.

ملخص

الأسواق الشامية في العصر المملوكي

إعداد

فيصل عبدالله محمد بني حمد

إشراف

الدكتور عبدالله العمري

تهدف هذه الدراسة إلى إعطاء صورة عن النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام خلال العصر المملوكي.

يحتوي هذا البحث على ستة فصول وتوطئة ففي التوطئة تحدثت عن الأسواق داخل المدينة الإسلامية. وقد تبين لنا ان الأسواق التجارية قد احتلت مركزاً هاماً في المدينة، إذ أن معظمها كان يحيط بالمسجد الجامع. وقد جاء ترتيبها بشكل منظم، فالأسواق التي اختصت ببيع أو صنع السلع الخفيفة كانت أقرب جواراً للجامع. أما الأسواق التي إعتنت بالبضائع الثقيلة فكان موضعها قرب ابواب المدينة.

وخصصت الفصل الأول والثاني للحديث عن أنواع الأسواق حيث قسمتها إلى نوعين هما الأسواق الدائمة والأسواق غير الدائمة، فالأسواق الدائمة هي المحلية الثابتة التي تفتح ابوابها للبيع والشراء كل يوم ويكون موقعها داخل المدينة. أما الأسواق غير الدائمة فتشمل الأسواق الموسمية والأسواق السنوية والأسواق الأسبوعية والأسواق المرافقة للجيش والأسواق الطارئة.

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن العمائر المكملة للأسواق مثل القياسر والفنادق والخانات والوكالات ومنشآت تجارية أخرى كالباشورات والعرصات والمربعات والرحبات والأمكنة التي كان يستخدمها البائعة الجائلون. وقد اتضح لنا من خلال هذا الفصل أن هذه العمائر لا تقل أهمية عن الأسواق التجارية من حيث دورها التجاري.

أما الفصل الرابع فوضحت فيه العوامل المؤثرة في الأسواق ايجاباً وسلباً حيث تبين أن من عوامل إزدهار الأسواق الشامية هو الموقع المتوسط لبلاد الشام علاوة على الثروة الإقتصادية والمكانة الدينية التي حظيت بها بلاد الشام، بالإضافة إلى التسهيلات التجارية التي قدمها بعض السلاطين المماليك للتجار الأجانب مما دفع بهؤلاء للقدوم إلى بلاد الشام.

بالمقابل شهدت بلاد الشام تراجعاً ملحوظاً في نشاطها التجاري ولا سيما في أواخر العصر المملوكي. ويعود السبب في ذلك لعوامل طبيعية وأخرى بشرية، لكن أشد هذه العوامل اثراً كان الإكتشاف الجغرافي للطريق التجاري حول إفريقية حيث فقدت دولة المماليك بسبب ذلك دخلاً كبيراً.

واقتصرت الفصل الخامس للحديث عن السلع التجارية. وتبين من خلال هذا الفصل أن بلاد الشام تمكنت من الإعتماد على نفسها في تصنيع كثير من السلع، في الوقت نفسه اجرت مبادلات تجارية مع الأسواق الخارجية، وكان أشد هذه العلاقات نشاطاً تلك التي اقامتها بلاد الشام مع أسواق مصر والهند والصين وأوروبا.

أما الفصل الأخير فكان عن المعاملات التي كانت سائدة في الأسواق الشامية كالتعامل بالنقود والمقايضة ونصف المقايضة، بالإضافة إلى استخدام السفاتج والصكوك. كما تحدثت عن الأوزان والمكاييل والمقاييس والأسعار ودور المحتسب في مراقبة الأسواق.

وقد اتضح أن وسائل التعامل التجاري في بلاد الشام كانت تختلف من مدينة لإخرى، فالأوزان والمكاييل والمقاييس المستخدمة في دمشق مثلاً لا تماثل شاكلتها في حلب لا من حيث وزنها أو مقدارها. كما أن الأسعار قد اتصفت بعدم استقرارها حيث تأثرت بعوامل طبيعية وأخرى بشرية. أما المحتسب فلم يكن دوره على ما يرام إذ قلّد هذا المنصب في كثير من الأحيان إلى من يدفع رشوة، مما إنعكس بالتالي سلبياً على الإقتصاد المملوكي حيث أسهم في تراجعه بشكل ملحوظ.

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

٣٥٢٣٠٥

ABSTRACT

Syrian Markets in the Mamluk Period

Prepared by

Faisul Abdullah Mohammed Bani Hamad

MA. of Islamic History and Islamic Culture, Yarmouk University, Irbid, 1992.

Supervisor

Dr. Abdullah AL-Omary

This study aims at giving an idea about the commercial and industrial activity in Bilad AL-Sham (Greater Syria) during the Mamluke Period.

This research consists of six chapters and an introduction. In introduction I dealt with markets irside Muslim Cities. It has been found that trade markets have occupied an important place in the City. Most of them were around the centeral mosque. They were well arranged. The markets of which sold or manufactured light commodities were nearer to the mosques, while most of the markets which were concerned with heavy commodities were near the city gates.

Chapter one and two were devoted to the kinds of markets which comprised two categories: permanent markets and temporary ones. Permanent markets were the local stable ones which opened daily for business translations and were located inside the city. Temporary markets were the seasonal, annual weekly, army and emergency markets.

In chapter three we discussed the buildings which supplemented or were annexed to markets such as bazaars, hotels, khans, caravan saries, and other buildings such counrtyands, squares, public squares

and other places used by hawkers. it has become clear that these buildings played a commercial role not inferior to that of the markets.

In chapter four we have explained the factors which either positively or adversely affected markets. One of the factors that led to the prosperity of Syrian markets was the central location of Syria over and above the economic wealth, the religious prestige of the country and facilities extended by some sultans to foreign businessmen who were thereby induced to come to Syria.

On the other side, Syria witnessed a noticeable recession in commercial activity especially towards the end of the Mamluk period. This was due to natural as well as human couses; but the most serious factor was the discouery of the road to the far east via the cape of Good Hope رأس الرجاء الصالح which cost the Mamluk state an important source of income.

Chapter five was restricted to commercial goods. In this chapter we can notice that Syria could be self-reliant in manufacturing many goods. At the some time, commerce was exchanged with other markets, Particularly those of Egypt, India, China and Europe.

The last chapter was about the transactions that prevailed in Syrian markets. Money, bartering and semi-bartering were used in buying and selling. In this chapter we also touched on weights, measurements, prices and market supervision.

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك